الرواية التي قامت شركة «نيولاين سينما»
بتحويلها إلى عمل سينمائي

إنها الرواية الأكثر مَبيعاً وفقاً لما جاء عن صحيفة «نيويورك تايمز»

مذكرات حب

نيكولاس سباركس

www.rewity.com
^RAYAHEEN^

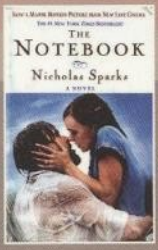

تطل علينا من وقت إلى آخر قصة حب تأخذ بألبابنا حتى تصبح أكثر من مجرد قصة؛ حيث تتحول إلى تجربة نتذكرها إلى الأبد. هذه المقولة تنطبق على رواية **«مذكرات حب»**؛ فهي تعد احتفالية لتخطي العاطفة حدود العمر والزمن، وهي تبعث فينا الإحساس بالفرح والحزن في الوقت نفسه.

وتجعلنا نؤمن من جديد بوجود الحب الحقيقي..

عاد «نوا كالون»، وهو في الواحدة والثلاثين من عمره، إلى ولاية «نورث كارولينا» الساحلية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولا تزال تلاحقه صورة الفتاة التي فقدها منذ أكثر من عقد من الزمان، و«آلي نيلسون»، فتاة في التاسعة والعشرين من عمرها تستعد للزواج من محامٍ ثري، لكنها لم تتوقف عن التفكير في الفتى الذي استولى على قلبها منذ زمن بعيد. هكذا تبدأ قصة حب عميقة وخالدة استطاعت أن تحول المأساة إلى انتصار وأن تحقق المعجزات..

«لقد برهنت هذه الرواية الرومانسية والكلاسيكية على أن الأشياء الجميلة لا تأتي إلا على دفعات صغيرة».

- مجلة «كريستيان ساينس مونيتور».

«إن السمة الشعرية البديعة لهذه الرواية الرومان[illegible]ة المؤثرة بإمكانها أن تأسر قلوب جميع القرّاء.. فيا له من ر[illegible]

- جريدة «دينفر روكي ماونتين نيوز».

K.D.
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
دينار

www.rewity.com
^RAYAHEEN^

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore

6 281072 050160
282203965

معجزة

من أنا ؟ وإلام ستنتهى هذه القصة ؟

لاحت الشمس فى كبد السماء وأنا جالس بجوار النافذة التى غطى زجاجها غمام يوضح أن الدهر قد أكل عليها وشرب . إن هيئتى تبدو غريبة إلى حد ما اليوم لأننى أرتدى قميصين ، وسروالاً ثقيلاً ، ولفاعًا ملفوفًا مرتين حول رقبتى ، وموضوعًا داخل كنزة صوفية حاكتها لى ابنتى فى عيد ميلادى منذ ثلاثين عاماً . وكان مُنَظم الحرارة مضبوط على أعلى درجة ، بالإضافة إلى مدفأة كهربائية صغيرة وضُعِت خلف فراشى كان يصدر عنها صرير وطقطقة ، وكانت تنفث الهواء الساخن بصوت يشبه أصوات التنين فى الحكايات الخرافية ، ورغم كل ذلك كانت أوصالى ترتجف من البرد الذى لم يكن يفارقها ؛ فهو إحساس ظل ينمو لمدة ثمانين عاماً ، وحينما أفكر فى أن ثمانين عاماً قد مضت من عمرى ، ورغم تقبلى التام لوصولى إلى هذه السن ، فإننى لا أزال

www.rewity.com
^RAYAHEEN^

أندهش من السبب وراء شعورى بالبرد منذ وصول جورج بوش إلى سُدة الحكم . وأتساءل عما إذا كان يشعر كل مَنْ هُمْ فى مثل سنى بمثل هذا الإحساس ؟

أما عن حياتى ، فليس من السهل أن أحكى عنها ؛ فهى لم تكن مثيرة ورائعة مثلما تخيلتها . ولكنها أيضاً لم تكن قاتمة أو مظلمة مثل حياة السناجب داخل جحورها . وأظن أنها كانت تشبه إلى حد كبير الورقة المالية المضمونة ، فهى حياة مستقرة نوعاً ما ، طغت فيها فترات الرخاء على فترات الشدائد ، وعمها الرخاء بمرور الزمن ، فحياتى كانت صفقة رابحة ومحظوظة ، مع أننى أعلم جيداً أنه لا أحد يجرؤ على قول مثل هذا القول عن حياته ، ولكن لا تنخدع كثيراً بقولى هذا ؛ فأنا لا أمثل شيئاً فريداً من نوعه ، وأنا واثق مما أقول ؛ لأنى رجل عادى ، عاش بأفكاره العادية حياة يعيشها معظم الناس . فلا توجد نصب تذكارية مهداة إلى اسمى الذى سوف يطويه النسيان فور مماتى ، ولكننى أحببت إنسانة من أعماق قلبى وروحى ، وكان ذلك وحده يكفينى .

سوف يصف الرومانسيون قصتى بأنها : " قصة حب " ، أما الساخرون فسوف يسمونها مأساة . أما بالنسبة لى فأنا أعتبرها مزيجاً بين الاثنين ، ولكن مهما

كانت رؤيتك التى اخترتها فى النهاية ، فإن ذلك لن يغير من حقيقة أنها تتضمن قدراً عظيماً من حياتى والطريق الذى اخترته فيها . ولست أحمل فى صدرى أى شكوى من الطريق الذى اخترته ، أو الأماكن والمنعطفات التى أخذنى إليها ؛ مع أننى قد أحمل قدراً هائلاً من التذمر بخصوص أشياء أخرى عديدة . ولكن الطريق الذى اخترته كان يُمثل لى دائماً الطريق الصحيح ، ولم أكن لأغيره مهما كانت الظروف .

ولكن - لسوء الحظ - لم يكن مقدراً لى بأن أمضى فى طريقى كما كنت ؛ فطريقى مستقيم كما كان دائماً ، ولكنه الآن مفروش بالحجارة والحصى التى تراكمت طوال سنوات العمر ، حتى ثلاثة أعوام مضت فقط كان يمكن التغاضى عن كل ذلك ، ولكن الأمر أصبح مستحيلاً الآن ؛ فالمرض يسرى فى جسدى شيئاً فشيئاً ؛ ولم أعد قوياً أو صحيح الجسد ، وأنا ماض فى أيامى مثل بالون فارغ قديم : خائر البدن ، ومتهالك القوى ، يزحف الوهن إلى جسدى يوماً بعد يوم .

هاجمتنى نوبة من السعال ، وبعدها أخذت أنظر بعينىَّ الضعيفتين إلى ساعتى ، فأدركت أنه قد حان وقت ذهابى ، وقمت من مقعدى بجوار النافذة ، وأخذت أمشى ببطء داخل الغرفة ، وتوقفت عند

الطاولة لآخذ المفكرة التى قرأتها مئات المرات ، وبدلاً من أن أتصفحها أخفيتها تحت إبطى ومضيت فى طريقى إلى المكان الذى عزمت على الذهاب إليه .

كنت أسير فوق أرضية مغطاة ببلاط أبيض تتخلله خطوط رمادية ، تماماً مثل لون شعرى ، وشعر معظم الموجودين هنا ، مع أنى كنت الشخص الوحيد الموجود فى الرواق هذا الصباح ، فهم كانوا داخل غرفهم التى لم يكن يملأ وحدتهم فيها سوى التلفاز ، ولكنهم مثلى ، قد اعتادوا ذلك ؛ فكل شخص يمكنه أن يعتاد أى شىء مع مرور الوقت .

سمعت أصوات أنين مكتومة تأتى من بعيد وعلمت تحديداً ممن تصدر هذه الأصوات ، وبعدها شاهدتنى بعض الممرضات وابتسمن لى ، فبادرتهن بالتحية ؛ فهن صديقات لى ، وكثيراً ما جلست للتحدث إليهن ، ولكنى واثق من أن الأشياء التى أقوم بها فى كل يوم تثير دهشتهن ، وأخذت أرهف سمعى وأنا أمر من أمامهن حتى أسمع ما يتهامسن به ، وسمعت إحداهن تقول : " ها هو ذاهب إلى هناك من جديد ، كم أتمنى أن تفلح محاولاته " . ولكنهن لم يحاولن التحدث إلىّ مباشرة فى هذا الموضوع ؛ فقد كنت واثقاً من اعتقادهن بأن محادثتهن معى فى هذه الساعة المبكرة من اليوم

سيؤذى مشاعرى ؛ ولأنى أعرف نفسى جيداً ، فأظن أنهن على حق .

فى دقيقة واحدة كنت قد وصلت إلى الغرفة ، وكان بابها مُثبتًا فى دعامة حتى يظل مفتوحاً لدخولى ، كما يحدث عادة ، وكانت هناك ممرضتان أخريان فى الغرفة ، نظرتا إلىّ بابتسامة وأنا أدخل الغرفة ، وقالتا بصوت مبتهج : " صباح الخير " واستغرقت دقيقة فى الحديث إليهن والسؤال عن الأحوال والأطفال والإجازات الوشيكة ، وواصلنا التحدث لدقيقة أو يزيد على الرغم من صوت البكاء الشديد ، ولكنهن لا يلحظانه فقد اعتادتا عليه ، واعتدت عليه أنا الآخر .

بعدها جلست على المقعد الذى بدأ يأخذ شكل جسدى وهما الآن على وشك الانتهاء من مساعدتها على ارتداء ملابسها ، ولكنها مازالت مستمرة فى البكاء . فأنا أعلم أنها سوف تهدأ قليلاً بعد انصرافهما ، فكثيراً ما كانت تضايقها الجلبة التى كانت تحدث كل صباح . وأخيراً ، فُتِحتْ ستارة الغرفة واستعدت الممرضتان للخروج . وربتت كل منهما على كتفى وهما يمران من أمامى ؛ مما أثار لدى إحساساً بالدهشة .

جلست لبرهة وأنا أنظر إليها ، ولكنها لم تكن تبادلنى النظر ، ولكنى أتفهم ذلك لأنها لا تعرفنى .

www.rewity.com ABAYAHEENA

فقد أصبحت غريباً بالنسبة لها . وبعدها ، التفت بعيداً عنها ، وأحنيت رأسى وأخذت أدعو الله فى صمت ليمنحنى القوة التى أحتاج إليها ؛ فأنا أثق بقدرة الله وقوة الدعاء ، ولكن لا أخفى عليكم أن إيمانى قد تزعزع قليلاً بهذا الشأن ؛ مما دفعنى للتساؤل عن عدة أمور لن أستطيع معرفة إجابتها إلا عند موتى .

أصبحت مستعداً للقراءة الآن بعدما ارتديت نظارتى ، وأخرجت من جيبى عدسة مكبرة ، ووضعتها على الطاولة لمدة دقيقة واحدة قبل أن أفتح المفكرة . وبللت إصبعى المعوج مرتين لأطوى غلاف المفكرة البالى حتى أصل إلى صفحتها الأولى . وبعدها وضعت العدسة المكبرة عند أول سطر .

كلما شرعت فى قراءة القصة كنت دائماً أستغرق فى التفكير للحظات وأتساءل بينى وبين نفسى قائلاً : " هل ستحدث المعجزة اليوم ؟ " لست أدرى ؛ فأنا لا أعرف المستقبل ، وفى أعماقى لا تهمنى هذه المسألة على الإطلاق ، فاحتمالية حدوثها هى التى تدفعنى للاستمرار ، وليست الضمانات ، فالمسألة بالنسبة لى تعد نوعاً من المراهنة ، ومع أنك قد تقول إننى شخص خيالى أو ساذج ، أو أى شىء آخر ، لكننى مؤمن بأنه ليس هناك مستحيل .

ومع أنى أعلم أن العلم واحتمالاته كلها ضدى ، ولكن العلم لا يمكنه الإجابة عن كل شىء ! فأنا أعلم ذلك جيداً من خلال خبرتى فى الحياة ، وهذا يجعلنى أركن إلى الاعتقاد بأن المعجزات ، مهما كانت غير معقولة أو يصعب تصديقها ، إلا أنها جزء من الواقع ، ويمكن أن تحدث بغض النظر عن طبيعة الأشياء ؛ ولهذا بدأت من جديد ، مثلما كنت أفعل كل صباح - فى قراءة المفكرة بصوت مرتفع ، حتى يتسنى لها أن تسمعنى - وكلى أمل فىّ أن المعجزة التى سيطرت فكرتها على حياتى هى التى ستنتصر مرة أخرى فى النهاية .

وربما - أى إنه مجرد احتمال - تحدث !

أشباح

فى أوائل أكتوبر من عام ١٩٤٦ ، كان نوا كالون يشاهد الشمس وهى تغيب وتتوارى شيئاً فشيئاً وهو جالس فى رواق منزله ذى الطراز الريفى ؛ فقد كان يحب أن يجلس هناك فى المساء ، وخاصة عندما ينهكه العمل طوال اليوم ، ويترك العنان لأفكاره لتهيم بعيداً عن توجيهات وعيه . وهى الطريقة التى تعلمها من والده لكى تساعده على الاسترخاء .

وكان على الأخص يحب النظر إلى الأشجار وصورها المنعكسة على صفحة النهر . فأشجار شمال كارولينا تكون رائعة الجمال فى منتصف الخريف ؛ لأنها تزخر بجميع درجات كل من اللون الأخضر ، والأصفر ، والأحمر ، والبرتقالى ، وكانت هذه الألوان الساحرة يزداد تألقها مع سطوع ضوء الشمس ، وللمرة المائة أخذ نوا كالون يتساءل فى نفسه عن سكان هذا المنزل

الأصليين ، هل كانوا يقضون أمسياتهم فى تأمل هذه الأشياء نفسها ؟!

يرجع تأريخ بناء هذا المنزل إلى عام ١٧٧٢ ؛ مما يجعله واحداً من أقدم وأكبر المنازل فى مدينة " نيو بيرن " . فى الأساس كان هذا المنزل الرئيسى داخل ضَيْعَةٍ ، وقد اشتراه بعد انتهاء الحرب مباشرة ، وقد استمر في إصلاحه طوال أحد عشر شهراً مضت منفقاً فيه مبلغاً كبيراً من المال . وقد قام صحفى من جريدة رالى بكتابة مقال عنه منذ أسابيع قليلة ماضية ، وقال عن الإصلاحات التى تجرى فيه إنها واحدة من أفضل الإصلاحات التى رآها . على الأقل كانت كذلك بالنسبة للمنزل ، أما بقية الضيعة فلها قصة أخرى ؛ فهى البقعة التى يمضى فيها معظم وقته .

بُنى هذا المنزل على مساحة اثنى عشر فدانًا بالقرب من " برايسز جريك " ، وقد انصب عمله على السياج الخشبى الذى يربط بين الأجزاء الثلاثة للضيعة ، فأخذ يزيل الأجزاء التى تعفنت أو أصابها النمل الأبيض ، ويستبدل بالألواح الخشبية التالفة ألواحًا أخرى إذا اقتضى الأمر . ولا يزال أمامه الكثير من العمل ، وخصوصاً فى الجانب الغربى ، وقبل أن يطرح أدواته جانباً تذكر أن يُدون ما انتهى من إنجازه ، وأن يشترى

المزيد من الألواح الخشبية . ودخل إلى المنزل ، وشرب كوباً من الشاى الحلو ، وأخذ حماماً منعشاً ؛ فهو دائماً ما يستحم فى نهاية كل يوم ؛ لأن الماء يمحو معه آثار التعب والاتساخ .

بعدها أخذ يمشط شعره ، وارتدى بنطالاً من الجينز الباهت اللون ، وقميصاً أزرق بأكمام طويلة ، وشرب كوباً آخر من الشاى الحلو ، وذهب إلى الرواق ليجلس هناك حسبما اعتاد أن يفعل كل يوم فى مثل هذا الوقت .

ورفع ذراعيه فوق رأسه ، ثم أنزلهما ثانية إلى جنبيه ، وأخذ يحرك كتفيه فى استدارة وهو يكمل هذا التمرين ، وهو يشعر بأنه نظيف وفى أحسن حال بعدما استعاد حيويته . كانت عضلاته متعبة ، وكان يعلم أنها سوف تؤلمه بعض الشىء فى الغد ، ولكنه كان سعيداً لأنه استطاع أن ينجز معظم الأعمال التى أراد أن ينتهى منها .

ذهب نوا ليحضر الجيتار ، وقد استحضر صورة والده ، وأحس بافتقاده كثيراً . وأخذ يداعب أوتاره أولاً ، ويضبط وترين منها من الشدادة ، ويرتجل عليها من جديد . وفى هذه المرة بدت الأنغام أكثر انضباطاً ، وبدأ فى عزف موسيقى هادئة . كان يدندن معها قليلاً

فى أول الأمر ، ثم بدأ يغنى عندما أرخى الليل سدوله ؛ فقد اعتاد أن يعزف ويغنى حتى تغيب الشمس وتكتسى السماء بالظلام .

استمر على هذه الحال حتى اقتربت الساعة من السابعة ، فتوقف عن العزف واسترخى على كرسيه وبدأ فى هزه ، وبحكم العادة كان ينظر عاليًا إلى السماء ليشاهد كوكب الجوزاء ، والدب الأكبر ، والنجم القطبى وهى تسطع فى سماء الخريف .

وأخذ يحسب بعض الأرقام فى رأسه ثم توقف ؛ فهو يعلم أنه أنفق جميع مدخراته على هذا المنزل ، وينبغى عليه أن يحصل على وظيفة جديدة فى أقرب وقت ممكن ، ولكنه طرح هذا التفكير جانباً وقرر أن يستمتع بالأشهر الباقية فى ترميم البيت بعيداً عن القلق ، فسوف تصبح كل الأمور على ما يرام ؛ كما يحدث معه دائماً . علاوة على أن التفكير فى المال كثيراً ما يصيبه بالملل ، فمنذ السنوات الأولى من عمره تعلّم كيف يستمتع بالأشياء البسيطة ، الأشياء التى فى متناول يده ، وكان يصعب عليه أن يستوعب مشاعر الآخرين المختلفة حيال هذا الأمر . وهى صفة أخرى اكتسبها من والده .

اقتربت منه كلبته كليم ، وأخذت تحك رأسها فى يده قبل أن ترقد تحت قدميه ، وقال لها وهو يربّت رأسها : " مرحباً ، يا فتاة ، كيف حالك ؟ " ، فأخذت تعوى بصوت ضعيف وهى تصوب عينيها المستديرتين الهادئتين نحوه ، فعلى الرغم من فقدها لإحدى أرجلها بسبب حادث سيارة ، إلا أنها لا تزال تتحرك بخفة ليجد فيها ونيساً يخفف من شعوره بالوحدة فى الليالى الهادئة مثل تلك الليلة .

كان فى عامه الواحد والثلاثين ، أى إنه مازال شاباً ، ولكنه لم يعد صغيراً حتى يظل وحيداً . ولم يحاول التعرف على إحدى الفتيات منذ عودته إلى هذا المكان ، ولم يقابل واحدة استطاعت أن تجذبه إليها ولو من بعيد . لقد كانت غلطته ؛ وهو يعرف ذلك جيداً . فهناك شىء ما يحول بينه وبين أية امرأة تحاول التقرب إليه ، ولم يعد متأكداً من قدرته على تغيير ذلك حتى وإن حاول ! وأحياناً ما كان يفكر فى أثناء الدقائق التى تسبق نومه مباشرة بأنه محتوم عليه أن يظل وحيداً إلى الأبد .

ومضت ساعات المساء ونوا يشعر بالدفء والراحة ، وهو يسمع أصوات الحشرات وحفيف أوراق الأشجار ، معتقداً بأن أصوات الطبيعة هى الأكثر صدقاً وواقعية ،

وهى التى تثير بداخلنا المشاعر وليس أصوات السيارات وهى التى تثير بداخلنا المشاعر وليس أصوات السيارات والطائرات ؛ فالأشياء الطبيعية تعطى أكثر مما تأخذ ، وأصواتها تجعله يعود إلى الحالة الطبيعية التى ينبغى للإنسان أن يكون عليها . فقد كان يمضى لحظات خلال الحرب ، وخاصة بعد حدوث قتال عنيف ، وهو يفكر فى هذه الأصوات البسيطة ، التى قال عنها والده فى اليوم الذى تم فيه تعبئة الجنود إلى الحرب : " إن هذه الأصوات هى التى ستحميك من الجنون ، وهى موسيقى طبيعية سوف تحمسك وتجعلك تدافع ببسالة عن وطنك " .

انتهى نوا من شرب الشاى ، ودخل إلى المنزل ، فوجد كتاباً ، ثم أضاء الرواق وهو فى طريقه إلى الخارج ، وبعد جلوسه مرة أخرى ، نظر فى الكتاب . كان قديماً ، وغلافه ممزقاً ، وصفحاته مبقعة بآثار للطين والماء . كان كتاب " Leaves of Grass " للشاعر والت وايتمان ، الذى ظل يحمله معه خلال سنوات الحرب ؛ حتى إنه صد عنه رصاصة كادت أن تصيبه .

أخذ نوا يمسح الغلاف ، وينظفه من الأتربة التى علقت به ، ثم فتح الكتاب بطريقة عشوائية ، وبدأ فى قراءة الكلمات التى أمامه :

" قد حانت ساعتك يا روح ، ورحلتك الحرة فى
عالم من غير كلمات ،
بعيداً عن الكتب ، بعيداً عن الفن ، فمع زوال
اليوم ، ينتهى الدرس ،
وتظهر قوتك الكامنة فى الصمت ، والتأمل ،
والتفكير فى موضوعاتك المفضلة ،
المساء ، والنوم ، والموت ، والنجوم " .

ابتسم نوا لنفسه ؛ لسبب ما يذكره وايتمان دائماً ، إنها بلدة " نيو بيرن " ، فهو سعيد بعودته إليها من جديد . فعلى الرغم من سفره بعيداً عنها لأربعة أعوام كاملة ، فهى وطنه ، وهنا يعرف الكثير من الناس ، منذ صباه ، فلم يكن هذا شيئاً غريباً . ومثل العديد من المدن الجنوبية ؛ فالناس هنا لا يتغيرون مطلقاً ، ولكنهم يكبرون بعض الشىء .

وكان أعز صديق له فى تلك الفترة هو جس ، وهو رجل زنجى يبلغ من العمر سبعين عاماً ويعيش فى نهاية الشارع ، وقد تقابلا بعد أسبوعين من شراء نوا للمنزل ، عندما جاء جس وهو يحمل بعض الشراب

والطعام الذى أعده فى المنزل ، وجلسا فى أول ليلة لهما لتناول هذا الطعام ورواية بعض الحكايات .

والآن يأتيه جس ليلتين فى الأسبوع ، عادة فى الساعة الثامنة ؛ ولأن لديه أربعة أبناء وأحد عشر حفيداً فى منزله ، فهو يحتاج إلى الخروج منه من حين إلى آخر ، ولا يستطيع نوا لومه على ذلك ، وعادة ما كان جس يحضر معه آلة الهارمونيكا الخاصة به ، وبعد أن يفرغا من التحدث لفترة من الوقت ، كانا يعزفان معاً بعض الأغنيات ، وأحياناً كان يستمر عزفهما لساعات طويلة .

كان نوا يعتبر جس هو عائلته ؛ فلم يكن له أى أقرباء ، على الأقل منذ وفاة والده فى العام الماضى . فقد كان طفلاً وحيداً ؛ وتوفيت والدته بعد إصابتها بالأنفلونزا وهو فى الثانية من عمره ، وعلى الرغم من إقدامه على الزواج فى إحدى المرات ، إلا أنه لم يكمل هذه الخطوة أبداً .

ولكنه يعلم جيداً أنه وقع فى الحب لمرة واحدة فى عمره . مرة واحدة فقط منذ فترة بعيدة ، ولكنها غيرته إلى الأبد ؛ فالحب المثالى له مثل هذا التأثير على الأشخاص ، وقد كان حبه من هذا النوع .

بدأت السحب الساحلية تزحف ببطئ شديد فى السماء المظلمة ، وتتحول إلى اللون الفضى ، بسبب انعكاس ضوء القمر عليها ، وعندما تكاثفت السحب أسند رأسه إلى الخلف على المقعد الهزاز ، وكانت قدماه تتحركان بطريقة تلقائية ، وبإيقاع منتظم مثلما كان يفعل كل مساء ، وشعر أن عقله يعود به إلى ذكرى ليلة دافئة كهذه مضى عليها أربع عشرة سنة .

كانت الليلة الافتتاحية لمهرجان " نيوز ريفر " فى عام ١٩٣٢ بعد تخرجه مباشرة ، وقد خرج جميع سكان المدينة ليستمتعوا بالشواء وممارسة ألعاب الحظ . وكانت تلك الليلة رطبة ـ لسبب ما لا يزال يذكر ذلك بوضوح ـ وقد وصل هناك بمفرده ، وفى أثناء سيره وسط الجموع ؛ ليبحث عن أصدقائه ، رأى صديقه فين ومعه سارة ـ وكان قد تربى معهما ـ وهما يتحدثان إلى فتاة جميلة ، وعندما انضم إليهم فى آخر الأمر ، كانت تلك الفتاة تنظر إليه بعينين حائرتين ، وقالت له فى بساطة شديدة : " أهلاً بك ، لقد سمعت عنك الكثير من فين " .

بداية عادية يمكن نسيانها لو كانت مع شخص آخر غيرها ، ولكنه عندما نظر فى عينيها الزمردية الأخاذة ، عرف قبل أن يستطيع أن يأخذ نَفَسَهُ التالى أنها الإنسانة التى يمكنه أن يظل يبحث عنها بقية

حياته ، ولن يجدها سوى مرة واحدة . كانت تبدو مثالية إلى أبعد حد ، بينما هبت رياح الصيف المعتدلة بين أوراق الأشجار .

ومنذ تلك اللحظة ، أصبحت الرياح تهب مثل الإعصار . أخبره فين بأنها سوف تقضى الصيف فى نيو بيرن مع أسرتها ؛ لأن والدها يعمل لحساب آر . جاى . راينولدز ، ومع أنه لم يفعل شيئاً سوى هز رأسه ، إلا أن صمته بدا طبيعياً بسبب الطريقة التى كانت تنظر بها إليه . ضحك فين عندها ؛ لأنه عرف ما كان يدور بينهما ، واقترحت سارة أن يذهبوا لتناول المشروبات المثلجة ، واستمر الأربعة فى المهرجان حتى خفت جموع الناس ، وأغلقت المتاجر مع خلول الليل .

وتقابلا فى اليوم التالى ، واليوم الذى يليه ، وأصبحا لا يفترقان مطلقاً ؛ ففى صباح كل يوم ما عدا اليوم الذى يذهب فيه لدار العبادة ، كان يحاول الانتهاء من أعماله بأسرع ما يمكن ، ويذهب بعدها مباشرة إلى منتزه " فورت توتون " حيث كانت تنتظره ؛ ولأنها لم تعش من قبل فى مدينة صغيرة ، فكانت تمضى وقتها معه فى عمل أشياء جديدة عليها تماماً ، فقد علمها كيف تضع الطعم فى السنارة وتصيد السمك من الغدير ، وذهب معها فى جولة استكشافية لبرارى غابة

كرواتان ، واستقلا قارباً صغيراً ليشاهدا عواصف الصيف الرعدية ، وكان وقتها يشعر بأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد .

غير أنه تعلم منها كذلك أشياء كثيرة ، ثم اصطحبها إلى منزلها بعد ذلك ، وعندما توقفا قليلاً عند رواق منزلها ليودعها . قال لها لأول مرة إنه يحبها ، وظل يسأل نفسه بعد ذلك لماذا انتظر كل هذا الوقت قبل أن يفعل ذلك ، وفى وقت لاحق من هذا الصيف حضر بها إلى هذا المنزل . ونظر إلى أركانه الخربة ، وقال لها إنه فى يوم من الأيام سيشترى هذا المنزل ويصلحه ، واستمرا لبعض الوقت يتحدثان عن أحلامهما - إنه يريد أن يرى العالم ، أما هى فكانت تريد أن تصبح رسامة ، وعندما غادرت المدينة بعد ثلاثة أسابيع لاحقة ، أخذت معها جزءاً من روحه ورحلت معها بقية أيام الصيف . ظل يراقبها ، وهى تغادر المدينة فى الصباح المبكر ليوم ممطر ، بعينين مسهدتين لم تريا النوم فى الليلة السابقة ، وبعدها ذهب إلى منزله وأعد حقيبته ، وقضى الأسبوع التالى لرحيلها بمفرده على جزيرة " هاركيرز " .

مسح نوا على شعره بيديه ونظر فى ساعته . وكانت الساعة الثامنة والثلث ، فنهض من مكانه وسار تجاه

مقدمة منزله ليرى الطريق . وعندما لم يشاهد جس قادماً ، عرف أنه لن يأتى ، فعاد من جديد ليجلس على مقعده الهزاز .

وتذكر حديثه عنها مع جس ، ففى المرة الأولى التى ذكر فيها اسمها أمامه أخذ جس يهز رأسه وهو يضحك ويقول : " إذن هذا هو الشبح الذى تهرب منه ! " ، وعندما سأله عما يعنيه بكلامه قال : " أنت تعلم أنى أقصد بالشبح الذكرى ؛ فقد كنت أراقبك وأنت تعمل ليل نهار ، من غير أن تستريح قليلاً أو تلتقط أنفاسك ؛ فالناس يجهدون أنفسهم هكذا لثلاثة أسباب : إما لأنهم مجانين ، أو حمقى ، أو يحاولون النسيان . وبالنسبة لك كنت أعتقد أنك تحاول النسيان ، ولكنى لم أكن أعرف الشىء الذى تريد نسيانه " .

واستمر يفكر فيما قاله جس ؛ فقد كان على حق فيما قاله . " نيو بيرن " مسكونة الآن بالأشباح ، لعلها شبح ذكراها ؛ ففى كل مرة يسير فيها بالقرب من منتزه " فورت توتين " ـ المكان الذى كانا يلتقيان فيه ـ كان يراها هناك ، إما جالسة فوق المقعد ؛ أو واقفة عند البوابة ، وكانت دائمًا مبتسمة ، وشعرها الأشقر منسدلاً على كتفيها ، وتنظر إليه بعينيها الزمردية الجذابة . وعندما كان يجلس فى الرواق مساءً ومعه جيتاره كان

يراها تجلس إلى جواره ، تستمع إليه فى هدوء وهو يعزف الموسيقى التى تعلمها فى طفولته .

كان ينتابه نفس هذا الإحساس عندما يذهب إلى صيدلية جاستون ، أو إلى المسرح ، أو حتى عندما يسير وسط المركز التجارى للمدينة ، ففى كل مكان ينظر إليه كان يرى صورتها ، أو يرى الأشياء التى تعيد ذكراها ثانية .

وهو يعلم أن هذا شىء غريب ؛ فقد عاش فى " نيو بيرن " طوال السبعة عشر عاماً الأولى فى حياته ، ولكنه عندما يفكر فى " نيو بيرن " فإنه لا يذكر منها الآن سوى آخر صيف قضاه معها هناك ، أما بقية ذكرياته الأخرى فلم تكن إلا ذكريات باهتة من هنا وهناك لسنوات عمره ، وقليل منها ـ إن وجد ـ هو الذى يحرك مشاعره .

وعندما حكى عنها لـ " جس " فى إحدى الليالى ، لم يتفهم حقيقة مشاعره فحسب ، بل استطاع أن يفسر له أسبابها ، وقال ببساطة : " كان والدى دائماً يقول لى إن المرة الأولى التى تعرف فيها معنى الحب ، ستغير حياتك إلى الأبد ، ومهما حاولت فلن تفلت مطلقاً من هذا الإحساس ، والفتاة التى كنت تحكى لى عنها هى

حبك الأول ، ومهما حاولت ستظل ذكراها معك إلى الأبد " .

هز نوا رأسه ، وعندما بدأت صورتها تتلاشى من رأسه ، عاد إلى كتاب وايتمان ، واستمر يقرأ لساعة ، وهو يرفع رأسه بين الحين والآخر ليرى حيوانات " الراكون " و " الأبوسيوم " وهي تجري بالقرب من الغدير ، وفي التاسعة والنصف طوى صفحات الكتاب ، وصعد إلى غرفته ، وبدأ يكتب في مفكرته ، مدوناً بعض الملاحظات الشخصية والأعمال التي أنجزها في المنزل ، وبعد أربعين دقيقة راح في نوم عميق ، وصعدت كليم إليه ، وأخذت تتشممه وهو نائم ، وتمر في حركات دائرية حوله قبل أن تكوِّر جسدها في آخر الأمر لتنام إلى جوار سريره .

وفي ساعة مبكرة من هذا المساء ، وعلى بعد مئات الأميال ، كانت تجلس وحيدة على الأرجوحة الموجودة في رواق منزل والديها ، وهي تطوي إحدى قدميها أسفل منها ، وكان المقعد مبللاً بعض الشيء عندما جلست عليه ؛ بفعل مياه الأمطار التي سقطت بشدة منذ قليل ، ولكن السحب بدأت تتلاشى الآن ، وهي تنظر إليها ، وإلى النجوم ، وتسأل نفسها ماذا كان

قرارها صائباً أم لا ؟ فقد استمرت في صراع مع نفسها طوال الأيام السابقة حتى هذا المساء ، ولكن في النهاية كانت تعلم أنها لن تسامح نفسها إذا ضيعت هذه الفرصة من يدها .

لم يكن لون يعرف السبب الحقيقي وراء سفرها في الصباح التالي ، وقد لَمَّحت له من أسبوع مضى أنها ربما تذهب لتفقد بعض متاجر التحف الموجودة بالقرب من الساحل ؛ حيث قالت له قبل سفرها : " سأظل هناك ليومين فقط ، بالإضافة إلى أنني أحتاج إلى فترة راحة من مشقة الإعداد للزفاف " . شعرت ببعض الضيق لأنها كذبت عليه ، ولكنها كانت تعلم أنها لا تستطيع أن تقول له الحقيقة . وسفرها لا يعنيه في شيء ، ولم يكن لطيفاً منها أن تطلب منه أن يتفهم حالتها .

كانت رحلتها من " رالي " مريحة ، ولم تستغرق سوى ساعتين ؛ حيث وصلت إلى هناك قبل الحادية عشرة صباحاً بقليل ، وذهبت للتأكد من حجزها لغرفة في فندق صغير في وسط البلد ، وذهبت إلى غرفتها ، وأفرغت حقيبتها ، وعلقت ملابسها في الخزانة ووضعت باقي الأشياء داخل الأدراج ، وتناولت غداءها بسرعة ، وسألت النادلة عن أقرب طريق للذهاب إلى متاجر التحف ، وقضت الساعات القليلة التالية في

التسوق ، وفى الساعة الرابعة والنصف كانت قد عادت إلى غرفتها فى الفندق .

جلست عند حافة سريرها ، وتناولت سماعة الهاتف واتصلت بـ " لون " الذى لم يُطِل الحديث معها لارتباطه بموعد فى المحكمة ، ولكن قبل أن تنهى المكالمة أعطته رقم الهاتف الخاص بها فى هذا المكان ووعدته بالاتصال به فى اليوم التالى ، وشعرت براحة بعد إنهائها للمكالمة ؛ فهى مجرد مكالمة روتينية ، لم تخرج عن الأشياء العادية ، ولا يوجد شىء يجعله يرتاب فى تصرفها .

لقد تعرفت عليه منذ أربعة أعوام ماضية ؛ وكان ذلك فى عام ١٩٤٢ ، فى وقت عانى فيه العالم من ويلات الحرب التى لم تدخلها أمريكا إلا لعام واحد فقط . كل فرد كان يحاول الإسهام بشىء ، فتطوعت للعمل فى المستشفى الموجود فى وسط المدينة ، وعند ذلك أحست بقيمتها وقيمة ما تقدمه للآخرين ، ولكن الأمر كان أصعب مما كانت تتخيله ؛ فبعد عودة الدفعة الأولى من الجنود المصابين إلى أرض الوطن وجدت نفسها تمضى أيامها مع نفوس محطمة وأجساد مهشمة ، وعندما تقدم لون ليعرفها بنفسه فى إحدى الحفلات ، رأت فيه صفات الشخص الذى تتمناه : شخص واثق من

مستقبله ، يتمتع بخفة الظل ، وقادر على أن يطرد كل المخاوف عنها .

فقد كان وسيماً ، وذكياً ، وجذاباً . وهو محامٍ ناجح يكبرها بثمانى سنوات ، ويحب عمله كثيراً ، ولا يسعى فقط إلى كسب القضايا ، ولكن إلى صنع اسم مرموق لنفسه ، وهى تتفهم سعيه الذى لا يفتر وراء النجاح ؛ لأن والدها ومعظم الرجال الذين تقابلهم فى محيطها الاجتماعى ـ كانوا مثله ، وهو قد تربى وفقاً للنظام الطبقى فى الجنوب الذى يعتبر اسم العائلة وإنجازاتها أهم الاعتبارات فى الزواج ، وفى بعض الأحيان تصبح هى الاعتبارات الوحيدة .

وعلى الرغم من تمردها على هذه الأفكار منذ صباها ، إلا أنها وجدت نفسها منجذبة إلى التلقائية التى يتمتع بها لون ، ووجدت نفسها تحبه شيئاً فشيئاً ، ومع كل الساعات التى يمضيها فى العمل ، كان يعاملها برقة ؛ فهو رجل بمعنى الكلمة ، ويتمتع بشخصية ناضجة ومسئولة ، وخلال الفترات العصيبة للحرب التى احتاجت فيها إلى شخص يقف إلى جوارها ، لم يخذلها ولو مرة واحدة ؛ فهى تشعر بالأمان وهى معه ، وتعرف أنه يحبها ؛ ولهذا السبب قبلت عرضه عليها بالزواج .

ولكنها شعرت بالذنب لوجودها فى هذا المكان عندما بدأت تفكر فى هذه الأشياء ، وهى تعرف جيداً أن عليها أن تحزم حقائبها وتترك المكان قبل أن تغير فكرها ، فقد فعلت ذلك من قبل منذ زمن بعيد ، ولكنها إذا غادرت الآن فإنها لن تقوى على العودة إلى هذا المكان من جديد ، فتمالكت نفسها واستردت هيبتها ، بعد أن ترددت قليلاً ، ثم مضت فى طريقها إلى الباب ، ولكن الصدفة وحدها هى التى دفعت بها إلى هذا المكان ، فوضعت حقيبتها على الأرض من جديد ، وأدركت أنها إذا غادرت الآن ستظل تتساءل عمًا كان سيحدث عندها ، وهى ترى أنها لن تستطيع أن تتحمل أن يلازمها هذا الشعور بالحيرة طوال عمرها .

ذهبت لتغتسل ، وبعدما ضبطت درجة حرارة المياه ذهبت إلى المزينة ، وخلعت قرطها وهى تمر داخل الغرفة ، وبحثت عن علبة مساحيق الزينة وفتحتها لتأخذ قطعة من الصابون ، وأخذت تنظر فى المرآة وهى تغير ملابسها .

كان الجميع يقول عنها إنها جميلة منذ كانت فتاة صغيرة ، فكان لها جسد ممشوق ومتناسق الأجزاء ، وصدر صغير ، وبطن مشدود وأرجل رشيقة . وقد

ورثت عن أمها عظام الوجنتين العالية ، وبشرتها الملساء ، وشعرها الأشقر ، ولكن أفضل سماتها كانت شخصيتها ، وقد كانت عيناها تشبهان أمواج المحيط ، كما كان يصفهما لون دائماً .

بعدما أخذت قطعة الصابون ذهبت إلى داخل الحمام ، وأدارت الصنبور ، ووضعت المنشفة فى مكان قريب ، وقفزت برشاقة إلى داخل حوض الاستحمام .

لقد كانت تحب الإحساس بالاسترخاء الذى يسببه لها الحمام الدافئ ، غطست قليلاً فى الماء ؛ فقد كان هذا اليوم طويلاً ، وشعرت بأن ظهرها يؤلمها ، ولكنها كانت سعيدة بأنها استطاعت الانتهاء من التسوق سريعاً ، فعليها أن تعود إلى " رالى " ، ومعها بعض الأشياء ، والأشياء التى اشترتها يمكنها أن تفى بهذا الغرض ، وحاولت أن تتذكر أسماء بعض المتاجر الموجودة فى منطقة " بوفورت " ، ولكنها تذكرت فجأة أنها لن تحتاج إليها ؛ فليس من طبع لون التجسس عليها .

وأخذت تفكر فيما سيقوله عنها والداها وعن سلوكها . فليس هناك شك فى أنهما لن يوافقاها عليه ، وخصوصاً والدتها . فهى لم ترض فى يوم من الأيام على

ما حدث معها فى الصيف الذى قضته فى هذا المكان ، ولن ترضى عنه الآن ، مهما كانت أسبابها !

واسترخت قليلاً فى الماء قبل أن تخرج منه ، ثم تناولت منشفتها ، وذهبت إلى الخزانة وبحثت عن الثوب الذى سترتديه ، وأخيراً اختارت الثوب الأصفر ، وكان من الملابس الشائعة فى الجنوب فارتدته ، ونظرت فى المرآة ، وهى تدور يميناً ويساراً . كان الثوب يناسبها تماماً ، ويجعلها تبدو أكثر جمالاً ، ولكنها فى نهاية الأمر قررت تغييره وإعادته إلى مكانه فى خزانة الملابس .

وأخذت بدلاً منه ثوباً عادياً ، وأكثر حشمة وارتدته ، وكان لونه أزرق فاتحاً ، وأزراره تصل إلى عنقها ، ومع أنه لا يبدو جميلاً مثل الثوب الأول ، إلا أنه يبرز الصورة التى رأتها مناسبة لها .

لم تبالغ فى وضع مساحيق الزينة ، واكتفت بلمسة من ظل العيون ، ومن " الماسكارا " لتبدى جمال عينيها ، ولم تكثر كذلك من وضع العطر ، واختارت قرطاً صغيراً وارتدته ، وبعد ذلك ارتدت صندلها المنخفض الكعبين الذى ارتدته سابقاً ، وأخذت تمشط شعرها الذهبى ، وتثبته بمشبك الشعر إلى أعلى .

ونظرت فى المرآة وقالت إن هذا يبدو زائداً على الحد ، ورأت أنه من الأفضل أن تتركه منسدلاً على كتفيها .

وبعدما فرغت من ذلك رجعت بظهرها إلى الوراء وراحت تقيِّم مظهرها ، فكانت تبدو جميلة ، فلم تكن تتكلف فى ملبسها ، ولم ترد المبالغة فى أى شىء . فرغم كل شىء هى لم تكن تعلم ما الذى ينتظرها ؛ فقد مر زمن طويل ، يكفى لأن تتغير فيه أشياء عديدة ، ومنها أشياء لا تريد مجرد التفكير فى حدوثها .

كانت تنظر إلى أسفل وهى ترى يديها ترتجفان ، وتضحك من نفسها ، فهذا شىء غريب ؛ فهى عادة لم تكن عصبية إلى هذه الدرجة ، فهى مثل لون دائماً ما تثق فى نفسها حتى وهى طفلة صغيرة ، وتذكر أن طبيعتها هذه سببت لها بعض المشكلات أحياناً ، وخاصة عندما تتعرف على أحد ؛ لأن ذلك كان يسبب الإحساس بالرهبة منها .

وتناولت حقيبتها ومفاتيح السيارة ، ومفتاح غرفتها وأخذت تلفه حول يدها لدقيقتين وهى تفكر وتقول لنفسها : " لقد قطعت كل هذا الشوط ، فلا تتراجعى الآن وأنت على وشك الخروج " ، ولكن بدلاً من ذلك جلست على سريرها من جديد ، ونظرت فى ساعتها ، وكانت حوالى السادسة ، وكانت تعلم أن عليها مغادرة

المكان فى غضون دقائق معدودة ؛ فهى لا تريد أن تصل فى الظلام ، ولكنها فى حاجة إلى المزيد من الوقت .

وهمست لنفسها قائلة : " اللعنة ! ما الذى أفعله هنا ؟ لا ينبغى علىَّ أن أكون هنا ، فليس هناك داع لذلك ! " ، ولكنها عندما قالت ذلك كانت تعلم أن ذلك ليس صحيحاً ، فهناك شىء يجذبها إلى هذا المكان ، وإذا لم يكن هناك شىء آخر لاستطاعت أن تجد إجابتها .

فتحت حقيبتها وهى تبحث داخلها حتى عثرت على قصاصة مطوية من جريدة ، وبعدما أخرجتها فى رفق شديد ـ خشية أن تتمزق منها ـ فتحتها وأخذت تنظر إليها لفترة ، ثم قالت أخيراً : " هذا هو السبب إذن ! " .

استيقظ نوا فى الساعة الخامسة ، وأبحر فى زورق " الكياك " فى خليج " برايسز كريك " لساعة كاملة ، كما اعتاد ذلك . وعندما فرغ ، استبدل بملابسه ملابس العمل ، وأعاد تسخين بعض قطع البسكويت التى صنعها بالأمس ، وتناول تفاحتين ، ثم شرب بعد إفطاره فنجانين من الشاى .

وبدأ يواصل عمله فى السور ، ويصلح معظم ألواحه الخشبية التى تحتاج إلى إصلاح ، ففصل الصيف هنا يشبه الصيف فى الهند ؛ حيث تزيد درجة الحرارة على ثمانين درجة ! وباقتراب موعد الغداء شعر بالإرهاق والحر ، ثم بالسرور لأنه سيأخذ فترة راحة .

تناول طعامه وهو يجلس عند الخليج الصغير ، حيث كانت أسماك " البورى " تقفز عالياً ، فهو يحب أن يراقب قفزاتها لثلاث أو أربع مرات فى الهواء قبل أن تختفى من جديد داخل المياه المالحة ، ولسبب ما كان سعيداً بأن فطرة هذه الأسماك لم تتغير منذ آلاف السنين ، أو ربما لمئات الآلاف منها .

وأحياناً كان يسأل نفسه ما إذا كانت فطرة الإنسان قد تغيرت بمرور الزمن ؟ وكان دائماً ما يستنتج أنها لا تزال كما كانت ، على الأقل فى صفاتها الأساسية والبدائية ؛ فحسب معلوماته ، اتسم الإنسان دائماً بنزعة عدوانية ، ودائماً ما سعى من أجل الهيمنة والسيطرة على العالم ، وكل ما فيه من موارد ؛ فالحرب فى أوربا واليابان أثبتت ذلك .

توقف نوا عن العمل قليلاً بعد الساعة الثالثة وسار فى اتجاه سقيفة صغيرة ، ثم جلس بالقرب من مرساه الصغير ، وراح يبحث عن صنارته ، وطُعمين ، وزوجين

من الجراد ظل محتفظاً بهما فى يديه ، ثم ذهب إلى رصيف القوارب ، ووضع الطعم فى الصنارة ، ورمى بها إلى الماء .

كان الصيد دائماً ما يجعله يتأمل حياته ، وهو الآن منشغل فى تأملاته ، بعدما توفيت والدته ، تذكر كيف كان يقضى أيامه فى بيوت مختلفة ، ولسبب أو لآخر ، كان يتلعثم فى الكلام وهو صغير ، وتعرض للكثير من المضايقات بسبب هذا الأمر ، فبدأ يُعرض عن الكلام شيئاً فشيئاً ، وعندما بلغ الخامسة من العمر ، توقف عن الكلام تماماً ، وعندما التحق بالمدرسة ، ظن مُعلموه أنه طفل معوق ذهنياً ، وأوصوا والده بإخراجه من المدرسة .

ولكن الأب ، بدلاً من ذلك ، تحمل مسئوليته كاملة ، وجعله يستمر فى المدرسة ، وبعد ذلك طلب منه أن يأتى إليه عند ورشة الخشب ؛ فى مكان عمله ؛ ليساعده فى رفع وتخزين الأخشاب ، وكان يقول له وهما يعملان جنباً إلى جنب : " كم هو جميل أن نقضى معاً بعض الوقت ، تماماً مثلما كان يحدث بينى وبين جدك ! " .

وخلال ذلك الوقت الذى قضياه معاً ، كان والده يتحدث معه عن الطيور والحيوانات ، أو يروى له

بعض القصص والأساطير التى كانت شائعة فى شمال كارولينا ، وفى غضون بضعة أشهر استطاع نوا التحدث من جديد ، ولكن ليس بطريقة جيدة ؛ فقرر والده أن يعلمه القراءة من خلال كتب الشعر ، وظل يقول له : " تعلَّم كيف تقرأ هذه بصوت عال وسيمكنك أن تقول أى شىء تريده " . ومرة أخرى كان والده على صواب ؛ فمع حلول العام التالى كان نوا قد تخلص من تلعثمه إلى الأبد ، ولكنه استمر فى الذهاب إلى ورشة الخشب فى كل يوم لمجرد أن والده هناك ، وفى المساء كان يجلس لقراءة قصائد والت ويتمان ، وتينيسون بصوت مرتفع ، فى أثناء ما كان والده يجلس إلى جواره على مقعده الهزاز ، ومن وقتها داوم على قراءة الشعر .

وعندما كبر فى السن قليلاً ، كان يقضى معظم عطلاته وإجازاته الأسبوعية بمفرده ، وذهب فى جولة استكشافية لغابة كرواتان فى أول قارب اقتناه ، وهو يسير به فى خليج " برايسز كريك " لمسافة عشرين ميلاً إلى أن وصل به إلى أقصى نقطة ممكنة ، وبعدها قطع المسافة المتبقية حتى وصل إلى الساحل سيراً على الأقدام . وأصبح التجوال والاستطلاع عشقه الأول ، وكان يقضى ساعات طويلة فى الغابة ، وهو يجلس تحت أشجار البلوط العملاقة ، ويصفر ويعزف ألحاناً

هادئة بجيتاره للاوز وطيور مالك الحزين البرية ذات اللون الأزرق ؛ فالشعراء يعرفون أن الخلوة فى الطبيعة - بعيداً عن الآخرين ، وعن الأشياء الصناعية - شىء يفيد الروح ، وهو دائماً ما يعتبر نفسه مثل هؤلاء الشعراء .

وعلى الرغم من هدوئه ، إلا أن السنوات التى قضاها فى حمل الأوزان الثقيلة من الخشب داخل الورشة ساعدته على التفوق فى الرياضة ، وقد قاده تميزه الرياضى إلى التمتع بشعبية واسعة بين زملائه . وكان يستمتع بألعاب كرة القدم والجرى ، ومع أن رفاقه كانوا يمضون أوقات الفراغ معاً ، إلا أنه لم يكن ينضم إليهم فى معظم الأوقات ، فالشخص الذى لا يعرفه جيداً يمكن أن يظن أنه شخص متعجرف ، أو قد يظن أنه كبر ونضج قبل أوانه وقبل أقرانه .

وتذكر حديثه مع فين عن آلى بعد مغادرتهما للمهرجان فى الأمسية الأولى للقائه بها ، وضحك فين على ما قاله ، وتنبأ له بأمرين : أنهما سيقعان فى الحب ، وأن قصتهما لن تتوج بالنجاح !

كانت هناك شدة عنيفة بعض الشىء فى خيط الصنارة ، وكان نوا يأمل فى صيد سمكة كبيرة ، ولكن هذه الحركة توقفت فى آخر الأمر . وبعدما سحب الخيط ونظر إلى الطعم ، ألقى بها ثانية إلى الماء .

إن فين كان محقاً فيما تنبأ به طوال الصيف ، كانت آلى تتفنن فى إيجاد الأعذار لوالديها عندما كانا يتقابلان ، ولم يكن ذلك بسبب عدم حبهما له ، ولكن لأنه ينتمى إلى طبقة اجتماعية مختلفة ، وفقيرة جداً ، ولن يقبلا لابنتهما أن تكون على علاقة جادة مع شخص مثله ، وكانت تقول له : " أنا لا أهتم بما يفكر فيه أبواى ، أنا أحبك ، وسأظل أحبك ، وسوف نجد طريقة لكى نظل معاً إلى الأبد " .

ولكنهما لم يستطيعا فى نهاية الأمر ، ففى الأيام الأولى من شهر سبتمبر جُنِىَ محصول الأرز بأكمله ، ولم يكن لديها سوى خيار العودة مع عائلتها إلى " وينستون سالم " ، وفى صباح مغادرتها للمدينة قال لها : " إن الشىء الوحيد الذى انتهى هو الصيف ، وليس حبنا يا آلى فسوف نظل معاً إلى الأبد " . ولكن ذلك لم يحدث ، فلسبب لم يكن يعلمه ، لم يتلق جواباً واحداً على أى خطاب أرسله .

وفى النهاية قرر مغادرة " نيو بيرن " لكى ينساها ، بالإضافة إلى الكساد الاقتصادى الذى جعل من كسب العيش فى " نيو بيرن " ضرباً من المستحيلات . ذهب فى أول الأمر إلى " نورفوك " وعمل هناك لمدة ستة أشهر فى فناء لصنع السفن قبل أن يتم تسريحه ، وبعدها

انتقل إلى " نيو جيرسى " ؛ لأنه علم أن حالتها الاقتصادية ليست بنفس السوء كما هى فى " نيو بيرن " .

وأخيراً وجد وظيفة فى ساحة لجمع الخردة ؛ حيث يتم فصل حديد الخردة من بين أنواع المعادن الأخرى . كان صاحب هذه الساحة رجل يُدعى موريس جولد مان ، وكان ينوى جمع أكبر كم ممكن من حديد الخردة لاعتقاده بأن هناك حربًا وشيكة سوف تندلع فى أوربا ، وأن أمريكا سوف تساق إليها من جديد ، ولكن نوا لم يكن يهتم كثيراً بهذا السبب ؛ فقد كان سعيداً فقط لأنه حصل على وظيفة .

فالسنوات التى قضاها فى ورشة الخشب جعلته يتحمل طبيعة العمل الشاقة فى هذا المكان ، وكان يعمل بجد ونشاط ، فلم يكن هذا العمل يجعل عقله منشغلاً عن التفكير فى آلى طوال اليوم فقط ، ولكنه كان يشعر بضرورة الاجتهاد فى العمل ؛ فقد كان والده يقول له دائماً : " اجتهد فى كل عمل تتقاضى عنه أجرًا قدر ما تستطيع ؛ لأن ما دون ذلك يعد أحد أشكال السرقة " . وسلوكه هذا أرضى عنه صاحب العمل . وكان يقول له جولدمان : " أنت شاب ممتاز فى الكثير من

الجوانب " ، وكانت هذه الكلمات هى أفضل إطراء يمكن أن يقدمه له جولد مان .

ومع كل ذلك ظل يفكر فى آلى ، وخاصة فى المساء ، وكان يرسل إليها خطاباً مرة فى كل شهر ، ولكن لم يصله أى رد منها ! وأخيراً فكر فى كتابة خطاب أخير ، وأجبر نفسه بعدها على تقبل حقيقة أن الصيف الذى قضاه معها كان الشىء الوحيد الذى جمع بينهما .

وعلى الرغم من كل ذلك ؛ فذكراها لا تزال باقية معه ، وبعد مرور ثلاثة أعوام على آخر خطاب أرسله لها ، سافر إلى " وينستون سالم " على أمل أن يجدها ، وذهب إلى منزلها ، فاكتشف أنها انتقلت للإقامة فى مكان آخر هى وعائلتها ، وبعدما تحدث مع بعض الجيران اتصل أخيراً بشركة " آر . جى . آر " ، ولكن الفتاة التى ردت على مكالمته كانت حديثة العهد بالعمل فلم تتعرف على الاسم ، ولكنها بحثت عنه فى ملفات العاملين ، واكتشفت أن والد آلى ترك العمل بالشركة ، ولم يرسل لهم عنوانه الجديد ، وقد كانت تلك المحاولة الأولى والأخيرة لبحثه عنها .

وطوال ثمانى سنوات تالية ظل يعمل مع جولدمان ، فى بادئ الأمر كان واحداً من بين اثنى

عشر موظفاً ، ولكن مع مرور السنين ، زاد حجم الشركة ، وترقى هو فى وظائفها ، وبحلول عام ١٩٤٠ استطاع أن يتقن جميع الأعمال وإدارة العمليات بأكملها ، وعقد صفقات سمسرة جديدة ، وأشرف على فريق عمل مكون من ثلاثين شخصاً ، وأصبحت هذه الشركة من أكبر الشركات الموردة للخردة فى الساحل الشرقى .

وخلال هذه الفترة تعرف على عدد من الفتيات . وكان جاداً فى خطبة إحداهن تلك التى لها عينان شديدتا الزرقة وشعر أسود ناعم ، وتعمل نادلة فى أحد مطاعم المدينة المتنقلة . ورغم ارتباطهما لمدة عامين كاملين وتمتعهما بأوقات طيبة كثيرة معاً ، إلا أنه لم يشعر معها بنفس الإحساس الذى كان يشعر به مع آلى .

ولكنه لن ينساها أبداً ، فقد كانت تكبره بأعوام قليلة ، وهى التى علمته كيف يُسعد من يحب ، وكيف يعبر بلمسة يد أو همسة شفاه عن مشاعره الصادقة . وكانا يمضيان معاً أياماً طوالاً يحاول كل منهما فيها أن يعبر عن مشاعره للآخر حتى يكسب رضاه .

كانت تلك المرأة تعلم جيداً أن علاقتهما لن تستمر إلى الأبد ، وقالت له فى إحدى المرات قبل انتهاء

علاقتهما بمدة وجيزة : " كنت أتمنى أن أمنحك كل ما تريد ، ولكننى لم أستطع ؛ فهناك جزء منك تحتفظ به لنفسك بعيداً عن الآخرين ، حتى أنا ، فأنت تكون معى بجسدك فقط ، ولكن مشاعرك وأفكارك ملك لامرأة أخرى ! " .

رغم إنكاره لكل ذلك إلا أنها لم تصدقه ، وكانت تقول له : " أنا امرأة ـ وأعرف هذه المشاعر جيداً ، فأنا أشعر أنك عندما تنظر إلى ، أنك تنظر إلى امرأة أخرى ، وكأنك تترقب قدومها لك من عالم الغيب حتى تنتشلك بعيداً عن كل ذلك " ، وبعد ذلك الحوار بشهر ذهبت لتزوره فى العمل لتخبره بأنها تعرفت على شخص آخر ، وكان متفهماً لمشاعرها . وافترقا كصديقين ، وفى العام التالى تسلم بطاقة بريدية منها تقول له فيها إنها قد تزوجت ، ولم يسمع عنها شيئاً منذ ذلك التاريخ .

وفى أثناء زيارته لـ " نيو جيرسى " ، ذهب لزيارة والده مرة فى بداية العام الجديد ، وقضى معه بعض الوقت فى التحدث وصيد السمك ، وبين كل حين وآخر كانا يقومان برحلة إلى الساحل ، ويخيمان عند الشاطئ بالقرب من " أوكراكوك " .

وفى ديسمبر من عام ١٩٤١ ، عندما أتم السادسة والعشرين من عمره ، اندلعت الحرب ، مثلما توقع

جولدمان تماماً ، وفى الشهر التالى توجه نوا إلى مكتب جولدمان ليخبره عن عزمه على التطوع فى الجيش ، وبعد ذلك رجع إلى " نيو بيرن " ليودع والده ، وبعد مرور خمسة أسابيع وجد نفسه فى معسكر تدريب للقوات البحرية الأمريكية وفى أثناء تواجده فى المعسكر تلقى خطاباً من جولدمان يعبر له فيه عن امتنانه لمجهوداته ، وقد أرفق معه شهادة تمنحه الحق فى الحصول على نسبة صغيرة من قيمة ساحة الخردة إذا ما تم بيعها ، وقد قال جولدمان له فى الخطاب : " لم أكن أستطيع تحقيق هذا النجاح لولا وجودك معى ؛ فأنت أفضل شاب على الإطلاق كان يعمل لدىَّ .

قضى نوا الأعوام الثلاثة التالية مع الجيش الثالث الذى يقوده باتون ، يجوب صحارى شمال إفريقيا وغابات أوربا ، وهو يحمل ثلاثين رطلاً فوق ظهره . ولم تكن وحدة المشاة التابع لها بمنأى عن القتال الدائر ، فقد شاهد زملاءه وهم يموتون من حوله ؛ رآهم وهم يدفنون فى أماكن تبعد عن وطنهم بآلاف الأميال . وفى إحدى المرات ، بينما كان مختبئاً فى حفرة مناوشة بالقرب من نهر الراين ، تخيل أنه رأى آلى وهى تراقبه من بعيد .

وتذكر كيف انتهت الحرب فى أوربا ، وبعد أسابيع قليلة أخرى توقف فى اليابان . وقبيل انتهائه من الخدمة العسكرية بفترة قصيرة ، تسلم خطاباً من محام موكل عن جولدمان اكتشف من خلاله أن جولدمان قد توفى منذ عام ، وتم تصفية أملاكه . وعند بيع الشركة حصل نوا على شيك بحوالى سبعين ألف دولار ، ولكن لسبب ما لم يشعر نوا بالحماس والسعادة تجاه هذا الأمر .

وفى الأسبوع التالى عاد إلى " نيو بيرن " ، واشترى المنزل ، وبعدها بفترة أحضر والده ليُطلعه على الأشياء التى ينوى فعلها ، ويشير عليه بالتغييرات التى سيجريها ، ولكن والده بدا هزيلاً وهو يتجول فى المكان ، وكان يعانى من السعال ومن ضيق التنفس ، شعر نوا بالقلق عليه ، ولكن والده طلب منه ألا يقلق ، وطمأنه بأن ما يعانى منه هو مجرد دور أنفلونزا .

وبعد مضى أقل من شهر كان والده قد توفى إثر إصابته بالالتهاب الرئوى ودُفن فى المقابر العامة إلى جوار زوجته ، وكان نوا يحاول بين حين وآخر التوقف عن زيارته ، ووضع بعض الورود على قبره ؛ وفى بعض الأحيان كان يضع ورقة عليها بعض الكلمات الرقيقة ، وكل ليلة كان يحرص على قضاء بعض اللحظات فى

تذكر والده ، والدعاء له ؛ حيث إنه الشخص الوحيد الذى علمه كل ما هو ذو قيمة فى الحياة .

بعدما لف خيط الصنارة ، وضع عدة الصيد بعيداً ، وذهب فى طريقه إلى المنزل ، فوجد هناك جارته مارثا شو واقفة عند المنزل لتشكره ، وأحضرت معها ثلاثة أرغفة من الخبز الذى أعدته فى المنزل ، وبعض قطع البسكويت تقديراً له على ما فعله معها ، فقد قُتِلَ زوجها فى الحرب ، وتركها ومعها ثلاثة أطفال ومنزل متهالك تربيهم فيه ، وكان الشتاء على الأبواب ، وقد قضى نوا عدة أيام ليصلح لها سقف منزلها ، ويستبدل بالنوافذ المكسورة أخرى جديدة ، ويُحكم سد باقى النوافذ ، ويصلح لها الموقد الخشبى على أمل أن يساعدهم ذلك على اتقاء برد الشتاء .

وما إن غادرت المكان حتى ركب شاحنته الصغيرة المتهالكة متجهًا إلى جس ، فغالباً ما كان يذهب لزيارته عندما ينوى الذهاب إلى المتجر لأن عائلة جس لا تمتلك سيارة ، فصعدت إحدى بناته وركبت إلى جواره وهو يقود سيارته ، وذهبا إلى التسوق من متجر " كابرز جينرال " ، وعندما عاد إلى المنزل لم يفرغ مشترياته من البقالة مباشرة ، وبدلاً من ذلك اغتسل ، وأخذ كتاباً لـ " ديلان توماس " ، وذهب ليجلس فى الردهة .

أما هى فكانت لاتزال تجد صعوبة فى تصديق ما حدث ، مع أنها تحمل الدليل فى يدها .

فقد كان هذا الدليل موجوداً فى الصحيفة فى منزل والديها منذ ثلاثة أسابيع مضت ؛ حيث كانت فى المطبخ لتعد فنجاناً من القهوة ، وعندما عادت إلى الطاولة ، ابتسم والدها وأشار إلى صورة صغيرة فى الصحيفة وقال : " أتذكرين هذا المكان ؟ " .

وناولها الصحيفة ، بعدما نظرت إليها نظرة سريعة غير مكترثة ، فانجذبت عيناها إلى شىء فى الصورة ، فأخذت تدقق النظر فيها وهمست لنفسها قائلة : " إن هذا غير ممكن " ، وأخذ والدها ينظر إليها فى دهشة ، تجاهلت نظراته إليها ، وجلست وأخذت تقرأ المقال فى صمت ، وتذكرت بصعوبة صورة والدتها وهى تأتى لتجلس فى مواجهتها على الطاولة ، وفى النهاية ، وعندما انتهت من القراءة ووضعت الصحيفة جانباً ، كانت والدتها تحدق فيها بدهشة بنفس التعبير الذى ارتسم على وجه والدها منذ لحظات قليلة .

فسألتها والدتها وهى تتناول فنجان القهوة بيدها : " هل أنت على ما يرام ؟ إن وجهك يبدو شاحباً بعض الشىء " . لم تجب مباشرة ؛ فهى لم تستطع فعل

شيء ، ولاحظت عندها أن يديها ترتجفان تلك الرجفة التى مازالت تلازمها منذ تلك اللحظة .

وهمست لنفسها من جديد : " وها هى الآن ستنتهى ، بأى حال من الأحوال " ، وأعادت طى هذه القصاصة ووضعتها فى مكانها ، وتذكرت كيف غادرت منزل والديها فى وقت لاحق من ذلك اليوم ومعها الصحيفة حتى يتسنى لها اقتطاع هذه المقالة ، وأخذت تقرؤها من جديد قبيل ذهابها للنوم فى هذه الليلة ، وقرأتها أيضاً فى الصباح التالى كما لو كانت تحاول التأكد من أنها ليست حلماً . والآن ، بعدما قضت ثلاثة أسابيع فى السير بمفردها ؛ ثلاثة أسابيع من الحيرة ، كانت هى السبب وراء قدومها إلى هذا المكان .

وعندما كان الجميع يسألونها عن تصرفاتها الغريبة كانت تقول لهم إنها متوترة بعض الشيء ، وكانت هذه أفضل حجة ؛ فالجميع ـ ومن بينهم لون نفسه ـ لم يعارضوها عندما طلبت منهم السفر لمدة يومين ؛ فالتجهيز للزفاف أمر مجهد للجميع ، وقد تم دعوة خمسمائة شخص للحفل من بينهم الحاكم ، والسيناتور ، وسفير البلاد إلى بيرو ، فمن وجهة نظرها ، كان هذا شيئاً مبالغًا فيه ، غير أن خطبتها كانت خبرًا يهم المجتمع ، وقد تَصَدَّرَ صفحات أخبار

المجتمع فى الصحف منذ إعلان ارتباطهما منذ ستة أشهر ماضية ، وكانت تفكر من وقت لآخر فى الهروب مع لون ليتزوجها بعيداً عن كل هذه الضجة ، ولكنها كانت تعلم أنه لن يوافقها الرأى ، فهو كأى رجل سياسة بارز يحب أن يصبح محط أنظار الجميع .

أخذت نفساً عميقاً ووقفت من جديد ، وهمست لنفسها قائلة : " إما الآن وإما فلا " ، فأخذت أشياءها وتوجهت إلى الباب ، وتوقفت للحظات قبل أن تفتحه وصعدت الدرج ، فابتسم لها المدير وهى تسير من أمامه ، وكانت تشعر بنظراته تتعقبها وهى تغادر المكان وتتجه إلى سيارتها ، فركبت سيارتها على عجل ، ونظرت إلى نفسها مرة أخيرة ، وأدارت محرك السيارة ، واتجهت على الفور صوب شارع " فرونت " .

لم تتدهش كثيراً لكونها لا تزال تذكر طريقها فى المدينة جيداً ، على الرغم من غيابها عن هذا المكان لسنوات طويلة ؛ ولأنها مدينة صغيرة فقد استطاعت قيادة سيارتها فى شوارعها بمنتهى السهولة . وبعد عبورها نهر " ترينت " من فوق الجسر المتحرك ذى الطراز القديم ، اتجهت فى سيارتها إلى طريق مفروش بالحصى ، وبدأت فى جولتها الأخيرة من الرحلة .

لقد كانت هذه المدينة المنخفضة جميلة جداً ، كما كانت فى الماضى ، أما أرضها فتختلف عن المنطقة الموجودة عند سفح الجبل حيث تَربَّت ؛ فالأرض فى هذا المكان مستوية ، ولكن لها نفس التربة الخصبة الغنية بالطمى المثالية لزراعة القطن والأرز ؛ فهذان المحصولان ـ بالإضافة إلى خشب البناء ـ جعل هذا الجزء من الولاية جزءاً حيوياً ، وفى أثناء قيادتها للسيارة على طول الطريق خارج المدينة ، شاهدت معالمها الجميلة التى تعد السبب الأول فى جذب الناس ليأتوا إليها من كل مكان .

وبالنسبة لها ، فهى لم تتغير على الإطلاق ؛ فأشعة الشمس المنكسرة كانت تمر خلال أشجار البلوط والجوز الأبيض التى يصل طولها إلى مائة قدم والموجودة بالقرب من المياه لتضفى المزيد من التألق على ألوان الخريف . وعلى يسارها يقع نهر فضى اللون يميل مع اتجاه الطريق ، ولكنه ينحرف فجأة قبل أن يصب فى نهر آخر أكبر يبعد عنه بميل واحد .

أما الطريق المفروش بالحصى فيشق طريقه وسط المزارع التى كانت موجودة قبل اندلاع الحرب الأهلية ، وكانت تعلم أن بعض هؤلاء الفلاحين يعيشون حياة لا تختلف كثيراً عن الحياة التى عاشها أجدادهم . إن

طبيعة هذا المكان تأبى التغيير ؛ حيث يزخر ذهنها بفيض من الذكريات ، وشعرت بأن هناك شيئاً يختلج فى صدرها وهى تشاهد معالم المدينة التى لم ترها منذ زمن بعيد .

كانت الشمس ترتفع قليلاً فوق قمم الأشجار ، وبينما كانت تدور فى منحنى مرت من أمام مبنى قديم هجره أصحابه منذ سنوات ، ولكنه لا يزال واقفاً ، فقد ذهبت لاستكشافه فى ذلك الصيف لتبحث عن تذكارات للحرب الأهلية ، وفى أثناء مرورها بالسيارة حول هذا المكان تراقصت أمام أعينها الذكريات كما لو كانت قد حدثت بالأمس القريب .

ظهرت أمام أعينها فى المنظر التالى شجرة بلوط رائعة الجمال تقف على ضفة نهر ، وأتت معها ذكريات أكثر قوة ؛ فلا تزال الشجرة تبدو على صورتها القديمة ، وأغصانها المنخفضة والسميكة لا تزال تمتد بشكل أفقى على طول الأرض ، وتذكرت كيف كانت تجلس تحت ظلال الشجرة فى يوم من أيام شهر يوليو الشديدة الحرارة مع شخص كان ينظر إليها بشوق يخطف الأحاسيس ، وكانت هذه أول لحظة شعرت فيها بأنها قد أَحبَّتْ .

فقد كان يكبرها بعامين ، وفى أثناء قيادتها على طول هذا الطريق كانت صورته تتضح أمامها شيئاً فشيئاً ، فقد كان دائماً ما يبدو أكبر سناً من عمره الحقيقى ، وتذكرت كيف كانت تفكر فيه . كان مظهره ينم عن شخص سفعته أشعة الشمس ، تماماً مثل ذلك المزارع الذى يعود إلى منزله بعد أن قضى ساعات طويلة فى الحقل . وكان لديه يدان غليظتان ، وأكتاف عريضة مثل التى يحظى بها هؤلاء ممن يعملون بجد للحصول على قُوتهم ، وقد بدأت الخطوط الرفيعة تشق لها طريقاً يتخذ شكلاً مستديراً حول عينيه الداكنتين اللتين تبدوان قادرتين على قراءة أفكارها .

لقد كان طويلاً وقوياً ، شعره بنى فاتح ، وهو وسيم بطريقته الخاصة ، ولكن أكثر ما تتذكره هو صوته ؛ فقد كان يقرأ لها فى ذلك اليوم ـ وهما يجلسان أسفل الشجرة ـ بنبرة صوت رقيقة فيها عذوبة وسلاسة ؛ فصوته كان يشبه الأصوات التى تسمعها فى المذياع ، وكأن صوته حين يقرأ لها يحلق فى الفضاء ، وتذكرت كيف كانت تغمض عينيها ، وتصغى إليه باهتمام ، وتسمح للكلمات التى يقرؤها بأن تلمس روحها :

" لقد غوتنى الشمس حتى سرت وراءها فى طريق
الغسق المليء بالضباب ،
فمضيت حتى كسا المشيب مفرقى فى طريق
الشمس الراحلة " .

كان يقلب بين أصابع يده صفحات الكتب القديمة المثنية الحواف التى قرأها لمئات المرات ، فكان يقرأ لفترة من الوقت ، ثم يتوقف قليلاً ليتحدثا معاً ، فكانت تخبره عن الأشياء التى تريد تحقيقها فى هذه الحياة ـ عن أمانيها وأحلامها للمستقبل ـ وكان يُصغى إليها باهتمام ، ويعدها بأنه سيحققها لها ؛ فالطريقة التى كان يتحدث بها جعلتها تصدقه ، وكانت تعلم عند ذلك مدى حبها له . وفى بعض الأحيان ، عندما كانت تسأله ، كان يتحدث عن نفسه أو يوضح لها السبب وراء اختياره لقصيدة بعينها وعن رأيه فيها ، وفى أوقات أخرى كان يكتفى بالجلوس لتأملها بطريقته الخاصة .

وكانا يراقبان الشمس وهى تغيب ، ويأكلان معاً تحت أضواء النجوم . كان الوقت قد تأخر ، وكانت تعلم أن والديها سيغضبان إذا علما بمكان وجودها ، ومع ذلك فكانت فى تلك اللحظة لا تبالى بكل ذلك .

وكان كل ما يشغل تفكيرها هو كم كان هذا اليوم الذى أمضته معه رائعاً ! وكم كان هو مميزاً !

وأخيراً وبعد التوجه إلى منعطف آخر من الطريق رأت المنزل على مقربة مسافة منها ، لقد تغير المنزل بصورة كبيرة عما كانت تتذكره ، فأبطأت من سرعة سيارتها وهى تقترب منه ، وتتجه إلى الطريق الطويل المصفوف بالأشجار ، وسارت فى اتجاه المنارة التى استدعتها للقدوم من " رالى " .

كانت تقود سيارتها ببطء ، وتنظر فى اتجاه المنزل ، وعندما رأته يجلس فى الرواق ويراقب سيارتها أخذت نفساً عميقاً ، وكان يرتدى ملابسه الصباحية . وتبدو صورته من بعد كما لو كان لم يتغير ، وفى اللحظة التى كان ضوء الشمس يظهر فيها من ورائه كان يبدو كما لو كان يذوب داخل هذا المشهد .

واصلت السيارة سيرها إلى الأمام ، وعجلاتها تدور فى بطء شديد ، وأخيراً توقفت تحت شجرة البلوط التى تُظِلُّ واجهة المنزل ، فأدارت المفتاح ، وهى تنظر إليه ، فتوقف محرك السيارة .

غادر الرواق وبدأ يسير فى اتجاهها بخطى هادئة ، ثم توقف فجأة عندما رآها تخرج من السيارة واستمرا

لفترة طويلة من الوقت يحدق كل منهما فى الآخر دون أن يتحركا .

هى آليسون نيلسون ، التى تبلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً ، مخطوبة ، وتنتمى إلى طبقة مميزة فى المجتمع ، جاءت لتبحث عن إجابات لأسئلة تريد معرفتها ، أما هو " نوا كالون " ، فهو شخص حالم ، يبلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً ، وقد جاء لزيارته الشبح الذى استحوذ على حياته بأكملها !

التلاقى من جديد

استمر كل منهما فى النظر إلى الآخر دون حراك .

ولم يقل هو أى شىء ، وكانت عضلاته تبدو جامدة ، فظنت للحظة أنه لا يعرفها ، ولكنها شعرت فجأة بالذنب لأنها جاءت إليه بهذه الطريقة ، وبدون موعد ؛ مما زاد صعوبة الموقف ، ولكنها ظنت أنها ستمر بسهولة نوعاً ما ، وأنها ستقدر على قول ما تريده ، ولكنها لم تستطع ؛ فكل فكرة كانت ترد إلى خاطرها تبدو غير مناسبة ، أو ينقصها شىء ما .

وبدأ عقلها يسترجع ذكريات الصيف الذى أمضياه معاً ، ولاحظت عند رؤيتها له أنه لم يتغير كثيراً عن آخر مرة رأته فيها ، وتصورت أنه يبدو على ما يرام . وعندما رأته مرتدياً قميصه الفضفاض الذى يطوى طرفه داخل بنطال من الجينز فاتح اللون ، استطاعت أن ترى كتفيه العريضتين كما تذكرهما ، ونحول جسده تدريجياً حتى الردفين وبطنه المشدود ، وكان لونه يميل إلى

السمرة كذلك ، كما لو كان يعمل تحت أشعة الشمس طوال الصيف ، ومع أن شعره يبدو أقل كثافة مما كانت تذكره ، إلا أن شكله لم يتغير كثيراً عن الصورة التى عرفتها .

وعندما أحست بأنها على استعداد ، أخذت نفساً عميقاً وابتسمت قائلة :

" مرحباً يا نوا ، تسرنى رؤيتك من جديد " .

فاندهش من تعليقها ، وأخذ ينظر إليها والحيرة تملأ عينيه ، وبعدها هزَّ رأسه قليلاً ، وبدأت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة رقيقة .

وتمتم قائلاً : " وأنت كذلك ... " ، وقرَّب يديه من ذقنه ، وقال لها : " أنت حقاً ! أنا لا أصدق نفسى ... ! " .

فأحست بالدهشة بادية فى صوته وهو يتحدث ، والذى زاد من إحساسها أن كل شىء حدث فى وقت واحد ـ وجودها فى هذا المكان ورؤيتها له ، وأحست بأن هناك شيئاً عميقاً وقديماً يختلج فى صدرها ، شيئاً جعلها تشعر بالدوار فى لحظة .

ووجدت نفسها تقاوم من أجل السيطرة على ذاتها ؛ فهى لم تتوقع حدوث كل ذلك ؛ لأنها لم تكن تتمنى

حدوثه ؛ فهى مرتبطة بشخص آخر الآن ، ولم تأت إلى هذا المكان من أجل شىء ما ... ولكن ... !

ولكن .....

ولكن هذا الإحساس مستمر رغماً عنها ، وشعرت فى لحظة وجيزة بأنها عادت ابنة الخمسة عشر ربيعاً من جديد ، وكأنها لم تمر بتجربة كل هذه السنين الماضية ، وأن كل أحلامها يمكن أن تتحقق .

وشعرت كما لو كانت قد عادت أخيراً إلى وطنها .

واقترب كل منهما من الآخر دون أن ينطق بكلمة ، واستطاعت وهى تنظر إليه عن قرب أن ترى التغيرات التى لم تلاحظها فى أول الأمر ؛ فقد أصبح رجلاً ناضجاً الآن ، وفقد وجهه نضارة الصبا ، وازداد عمق الخطوط الباهتة حول عينيه ، وهناك ندبة فى ذقنه لم تكن موجودة من قبل ، وقد تغير بعض الشىء ؛ كيف لا وقد مر على فراقهما أربعة عشر عامًا .

واغرورقت عيناها بالدموع ؛ فضحكت بعصبية وهى تمسح الدموع من عينيها .

ومع أن هناك آلاف الأسئلة التى بدت على وجهه ، إلا أنه اكتفى بسؤالها قائلاً : " هل أنت على ما يرام ؟ " .

فقالت : " أنا آسفة ! لقد غلبتنى الدموع ... " .

فقال وهو يبتسم : " لا عليكِ ، ولكنى لا أصدق ما حدث ! كيف استطعت العثور علىّ ؟ " .

فرجعت خطوة أخرى إلى الوراء محاولة استعادة رباطة جأشها ، ومسحت آخر قطرة من دموعها ، ثم قالت :

" لقد قرأت قصة المنزل فى صحيفة رالى منذ أسبوعين ، وكان علىَّ أن آتى لرؤيتك من جديد " .

فابتسم نوا ابتسامة عريضة ، وقال : " أنا سعيد بما فعلت " ، ورجع إلى الوراء قليلاً وقال : " يا إلهى ! إنك رائعة الجمال ؛ لقد أصبحت أجمل من ذى قبل ! " .

فشعرت بالدماء تسرى فى وجهها ، مثلما كان يحدث تماماً منذ أربعة عشر عاماً .

وقالت له : " أشكرك ، وأنت تبدو رائعاً أيضاً " . وكانت محقة فيما قالت فقد أنضجته السنوات الماضية كثيراً .

وسألها : " ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ ولماذا عُدت ؟ " .

فأعادتها أسئلته إلى الزمن الحاضر ، وجعلتها تدرك خطورة ما يمكن أن يحدث إذا لم تكن حذرة ، وأخذت تحدث نفسها بألا تسمح للأمور بأن تفلت من زمام

يدها ؛ فكلما طالت المدة ، زادت صعوبة المواجهة ، ولم تكن تريدها أن تصبح صعبة هكذا .

ولكن يا إلهى ، ماذا يمكن لها أن تفعل أمام رقة عينيه الداكنتين ؟!

فالتفتت بعيداً وأخذت نفساً عميقاً ، واحتارت فيما تقوله ، وعندما بدأت أخيراً فى الحديث كان صوتها هادئاً وقالت : " نوا . قبل أن تسىء فهمى ، كانت لدى رغبة شديدة فى رؤيتك ، ولكنْ هناك شىء أريد أن أوضحه لك " ، وتوقفت عن الحديث للحظة ، ثم قالت : " لقد أتيت هنا لسبب ، فهناك شىء أريد أن أخبرك به " .

فقال : " وما هو ذلك الشىء ؟ " .

فنظرت بعيداً ، ولم تجبه للحظة ، وفوجئت بأنها لم تستطع أن تخبره عن سبب قدومها ، حتى هذه اللحظة ، وشعر نوا بهبوط دقات قلبه ، وأن ما ستقوله لن يسره .

فقالت : " لا أعرف كيف أقوله لك ، واعتقدت أنى قادرة فى أول الأمر ، ولكنى الآن لست متأكدة ... " .

وفجأة سمع دوى صرخة فى الهواء ، وجاءت كليم من أسفل السقيفة وهى تنبح بصوت مزعج فالتفتا إلى

هذه الضوضاء ، وكانت آلى سعيدة بهذا التشتيت الذى غيّر مسار الحديث .

وقالت : " هل هذا الكلب ملكك ؟ " .

فأومأ نوا برأسه ، وهو لا يزال يشعر بضيق فى صدره ، وقال : " فى الحقيقة إنها ملكى ، واسمها كليمانتين ، وهى ملك لى وحدى " ، وأخذا يراقبان كليم وهى تهز رأسها ، وتمط جسدها ، وتسير نحو الضوضاء ، واتسعت عينا آلى قليلاً عندما رأتها تعرج فى مشيتها .

وسألت وهى تحاول إضاعة المزيد من الوقت : " ماذا حدث لساقها ؟ " .

فأجابها قائلاً : " صدمتها سيارة منذ أشهر قليلة مضت ، ودعانى دوك هاريسون ـ الطبيب البيطرى ـ لأقرر ما إذا كنت أود الاحتفاظ بها ؛ لأن صاحبها لم يعد يرغب فى ذلك ، وبعدما رأيت ما حدث لها ، شعرت بأنى لا أقدر على تركها لتُقتل بسبب عجزها " .

وقالت وهى تحاول أن تهدأ : " إنك كنت دوماً إنساناً رحيماً " ، وتوقفت عن الحديث للحظة ، ثم نظرت تجاه المنزل ، وقالت : " لقد قمت بعمل رائع

فى إصلاحه ؛ فهو يبدو رائعاً ، تماماً كما كنت أتخيله أن يصبح فى يوم من الأيام " .

فالتفت برأسه فى نفس الاتجاه وهو يشعر بحيرة من حديثها المقتضب ، والشىء الذى تخفيه عنه .

وقال : " شكراً لك ، كم هو لطيف منك أن تقولى ذلك . لقد كان مشروعاً ضخماً ، ولا أستطيع معرفة ما إذا كنت أستطيع إكماله أم لا " .

فقالت : " بالطبع ، سوف تكمله " ؛ فهى تعرف جيداً قوة ارتباطه بهذا المكان ، وهى تعرف مشاعره تجاه كل شىء فيه ، أو على الأقل كانت تعرف ذلك منذ زمن بعيد .

استطاعت بهذه المشاعر أن تدرك كم تغيرت أشياء كثيرة عما كانت عليه ! وكيف أصبحا غرباء الآن ، واستطاعت أن تعرف ذلك من النظر إليه ، واستطاعت أيضاً أن تدرك أن أربعة عشر عاماً من البعد هى فترة طويلة جداً .

واتجه نحوها وقال : " ماذا بك يا آلى ؟ " ، فى محاولة منه لجذب انتباهها إليه ، ولكنها استمرت تنظر إلى المنزل .

وقالت وهى تحاول التبسم : " إنى أبدو سخيفة ، أليس كذلك ؟ " .

فقال لها : " ماذا تعنين بذلك ؟ " .

فقالت : " أعنى هذا الأمر برمته ، ظهورى هكذا فجأة ، وعدم معرفتى لما يجب علىَّ قوله ، لابد أنك تعتقد أننى جننت " .

فقال لها بلطف : " أنت لست مجنونة على الإطلاق " ، وواصل حديثه قائلاً :

" على الرغم من عدم معرفتى بالسبب ، ولكنى أشعر بأنه أمر صعب عليك . لماذا لا نذهب للسير لبعض الوقت ؟ " .

فقالت : " كما اعتدنا أن نفعل ؟ " .

فقال : " ولم لا ؟ أعتقد أنه بإمكاننا القيام بذلك " .

فترددت للحظة ونظرت إلى باب منزله الأمامى ، وقالت : " هل تحتاج إلى إبلاغ أحد بقيامنا بذلك ؟ " .

فهزَّ رأسه قائلاً :

" كلا ، لا يوجد هنا أحد لأبلغه ، فأنا أعيش هنا وحدى مع كليم " .

وعلى الرغم من سؤالها إلا أنها كانت متأكدة من عدم فى وجود أحد بالداخل ، ولم تكن تعرف كيف تتصرف تجاه هذا الشعور ، ولكنها شعرت بأن هذا الشعور زاد من صعوبة قدرتها على قول ما تريد ؛ فقد كان ممكناً أن يصبح هيناً إذا كان هناك أحد بالداخل .

واتجها ناحية النهر ، ثم انتقلا إلى طريق آخر بالقرب من ضفته . وقد اندهش سيرها وهى تترك مسافة فاصلة بينهما لا تسمح باقترابهما من بعض ولو صدفة .

وكان ينظر إليها ، وكانت لا تزال جميلة بشعرها الغزير وعينيها الحالمتين ، ومشيها بكبرياء ، وكأنها تحلق فى الهواء . لقد رأى الكثير من الجميلات من قبل وقد بهر جمالهن عينيه ، ولكن عقله رفضهن لأنهن لم يكن يتمتعن بالصفات التى كانت تجذبه فيها ، مثل : الذكاء ، والثقة بالنفس ، وقوة الإرادة والعاطفة ؛ فهى الصفات التى تبعث فى نفوس الآخرين الإحساس بالعظمة ، وهى الصفات التى يطمح فى الحصول عليها .

وكان يعرف أن آلى تمتلك هذه الصفات ، وفى أثناء سيرهما الآن ، شعر بهذه الصفات تتحرك تحت السطح من جديد ، والكلمات التى كانت تأتى على خاطره عندما كان يحاول وصفها للآخرين هى أنها " قصيدة حية " .

وسألته فى أثناء ما كان الطريق يفضى إلى تل صغير من الحشائش : " متى عدت إلى هذا المكان ؟ " .

فأجاب : " منذ ديسمبر الماضى . كنت أعمل فى الشمال لفترة من الوقت ، ثم قضيت السنوات الثلاثة الأخيرة فى أوربا " .

فنظرت إليه والأسئلة تطل من عينيها وقالت : " ماذا عن الحرب ؟ " .

فأومأ برأسه ، وواصلت حديثها قائلة :

" كنت أعتقد أنك ربما تكون هناك . أنا سعيدة بأنك نجوت منها " .

فأجابها : " وأنا كذلك " .

وسألته : " هل أنت سعيد بعودتك إلى الوطن ؟ " .

فقال : " نعم بالطبع ، فجذورى هنا ، وهذا هو المكان الوحيد الذى يفترض أن أوجد فيه " ، ثم توقف للحظة ، وسألها بصوت رقيق ، وهو يتوقع الأسوأ : " وماذا عنك ؟ " .

ومرت لحظات طويلة قبل أن تستطيع الإجابة .

ثم قالت : " لقد تمت خطبتى ! " .

فأحنى رأسه عندما قالت ذلك ، وشعر فجأة بوهن شديد ، وفهم أن هذا ما كانت تحاول أن تخبره به .

فهنأها فى آخر الأمر وهو يتعجب من طريقته المقنعة عندما سألها عن موعد الزفاف .

فأجابته : " بعد ثلاثة أسابيع من السبت القادم ؛ لأن لون يريد أن يكون زفافنا فى شهر نوفمبر " .

فقال : " لون ؟ " .

قالت : " إن خطيبى هو لون هاموند الابن " .

فأومأ برأسه دون أن تبدو عليه أمارات التعجب ؛ فعائلة هاموند تعد واحدة من أقوى وأكبر العائلات نفوذاً فى هذه الولاية ؛ بسبب زراعة وإنتاج القطن ، وعلى عكس ما حدث عند وفاة والده ، فإن موت لون هاموند الأب كان قد تَصَدَّرَ الصفحة الرئيسية للجريدة ، ثم قال لها : " لقد سمعت عنهم . فقد استطاع والده أن يقيم مشروعاً ضخماً ، فهل تولى لون إدارته بعد رحيله ؟ " .

فهزت رأسها وقالت : " كلا ؛ إنه يعمل كمحام ، وله نشاطه الخاص فى وسط المدينة " .

فقال : " شخص مثله له هذا الاسم لابد أن يكون مشغولاً " .

فقالت بصوت خفيض : " نعم ؛ فهو يعمل كثيراً " .

فظن أنه قد سمع شيئاً من نبرة صوتها ، وجاء سؤاله التالى بشكل تلقائى :

" هل يحسن معاملتك ؟ " .

فلم تجبه على الفور ، كما لو كانت تواجه هذا السؤال لأول مرة ثم قالت :

" نعم ، فهو رجل صالح يا نوا ، وسوف تحبه كثيراً " .

ولكن صوتها كان يبدو وكأنه يأتى من بعيد وهى تجيبه عن سؤاله ، أو على الأقل اعتقد ذلك ، وتساءل نوا ما إذا كان عقله يحاول خداعه ؟

وسألته : " كيف حال والدك ؟ " .

سار نوا خطوتين قبل أن يجيب ثم قال : " لقد توفى فى بداية هذا العام ، قبل رجوعى إلى هنا مباشرة ! " .

فقالت بصوت رقيق : " أنا آسفة ! " ؛ فهى تعلم كم كان نوا يحبه .

فأومأ برأسه ، ثم سار الاثنان فى صمت لدقيقة واحدة حتى وصلا إلى قمة التل ، وكانت شجرة البلوط تظهر من بعيد ، والشمس تضوى بأشعتها البرتقالية من ورائها ، وكانت آلى تشعر بنظرات عينيه تتابعها وهى تحدق فى هذا الاتجاه .

وقال : " لدينا ذكريات كثيرة هنا يا آلى " .

فابتسمت وقالت : " أعرف جيداً ؛ فقد رأيتها عندما أتيت إلى هذا المكان . هل تذكر اليوم الذى قضيناه هنا ؟ " .

فقال : " نعم " ، ولم يبادر بقول شىء أكثر من هذا .

فسألته : " هل كنت تفكر فيها ؟ " .

فأجاب : " أحياناً ، وكان يحدث ذلك عادة عندما كنت أسير فى هذا الاتجاه ؛ فهى واقعة الآن داخل أرضى " .

فقالت : " هل اشتريتها ؟ " .

فقال : " لم أكن أستطيع تحمل رؤيتها وهى تتحول إلى خزانة مطبخ " .

فضحكت ضحكة خافتة ، وهى تشعر بإحساس غريب بالسرور من ذلك ، وسألته : " هل مازلت تقرأ الشعر ؟ " .

فأومأ برأسه ، ثم قال : " نعم ؛ فأنا لا أتوقف عن قراءته ، فأنا أعتقد أنه شىء فى دمى " .

فقالت : " أريد أن أخبرك بشىء ، إنك الشاعر الوحيد الذى قابلته فى حياتى " .

فقال : " أنا لست شاعراً ، أنا مجرد قارئ للشعر ولا يمكننى كتابته ؛ فقد حاولت وفشلت " .

فقالت بصوت رقيق : " ولكنك لا تزال الشاعر بالنسبة لى يا نوا ؛ فلازلت أتذكر ذلك كثيراً ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقرأ لى فيها أحد الشعر ، بل كانت ، فى الواقع هى المرة الوحيدة " .

وتعليقها هذا جعلهما يرجعان بالذاكرة إلى الوراء وهما يعودان بخطى متمهلة إلى المنزل ، متخذين طريقاً جديداً بالقرب من المرسى الصغير . عندما كانت الشمس قد هبطت قليلاً وتحول لون السماء إلى اللون البرتقالى ، فسألها :

" إذن ، كم من الوقت سوف تمكثينه هنا ؟ " .

فقالت : " لا أعرف ، ليس كثيراً ، ربما إلى الغد أو بعد غد " .

فسألها : " هل خطيبك هنا فى مهمة عمل ؟ " .

فهزت رأسها وقالت : " كلا ، إنه لا يزال فى رالى " .

فرفع نوا حاجبيه وقال : " هل يعلم بوجودك هنا ؟ " .

فهزت رأسها من جديد وأجابته ببطء : " لا ؛ فلقد قلت له إننى أبحث عن بعض التحف ، فهو لن يستطيع تفهم سبب وجودى هنا " .

تعجب نوا قليلاً من إجابتها ؛ لأن قدومها لزيارته شىء ، وإخفاءها لهذه الحقيقة عن خطيبها شىء آخر .

وقال لها : " لم يكن ضرورياً أن تأتى إلى هنا لتخبرينى بخطبتكما . كان يمكنك أن تكتبى لى ، أو تتصلى بى بدلاً من ذلك " .

فقالت : " أعلم ذلك ، ولكن لسبب ما ، كان علىَّ أن أقوم بذلك شخصياً " .

فسألها قائلاً : " لماذا ؟ " .

فترددت قليلاً ثم قالت بصوت خافت : " لا أعلم " ؛ فالطريقة التى قالتها بها جعلته يصدقها ، وسمع صوت الحصى وهو يُسحق تحت قدميها وهما يسيران فى صمت لخطوات معدودة .

ثم سألها : " هل تحبينه يا آلى ؟ " .

فأجابته على الفور : " نعم أحبه " ، فجرحته كلماتها ، ولكنه أحس من جديد بأن هناك شيئاً فى نبرة صوتها ، كما لو كانت تحاول قول ذلك لإقناع نفسها ، فتوقف عن السير ؛ حتى يجعلها تتجه بنظرها إليه ، ورأى انعكاس ضوء الشمس وهى تضرب فى عينيها وقال :

" إذا كنت سعيدة يا آلى ، وتحبينه حقاً ، لم أكن لأمنعك من الرجوع إليه ، ولكن إذا كان هناك جزء منك

غير واثق من ذلك ، إذن لا تفعلى هذا الأمر ؛ فهذا ما لا يجب أن تقبلى فيه بأنصاف الحلول " .

وجاءت إجابتها سريعة بعض الشيء :

" لقد اتخذت القرار الصائب يا نوا " .

فنظر إليها لبرهة من الزمن وهو متحير هل يصدقها أم لا ؟ ثم هز رأسه وبدأ الاثنان فى السير من جديد . وبعد مرور دقيقة واحدة قال : " أعرف أنى أشق عليك بسؤالى ، أليس كذلك ؟ " .

فابتسمت قليلاً ثم قالت : " لا عليك ؛ فأنا ألتمس لك العذر " .

فقال : " أنا آسف على كل حال " .

فقالت : " لا ، لا تأسف مطلقاً ؛ فليس هناك ما يدعو للأسف ، بل يجب أن أقدم لك اعتذارى ، فربما كان علىَّ أن أكتب لك قبل زيارتى " .

فأومأ برأسه ثم قال : " لأكون صادقاً معك . أنا سعيد جداً بقدومك إلى هنا . فعلى الرغم مما حدث ، إلا أنه لشيء طيب أن أراك ثانية " .

فقالت : " شكراً لك يا نوا " .

فقال : " هل تعتقدين أن بإمكاننا أن نبدأ من جديد ؟ " .

فنظرت إليه بفضول شديد !

ثم قال : " أنت أفضل إنسانة قابلتها فى حياتى يا آلى ، وأنا أود أن نظل معًا إلى الأبد ، فما رأيك فى أن يحاول كل منا معرفة الآخر من جديد ؟ " .

أخذت تفكر فيما إذا كان من الصواب أن تظل فى هذا المكان أم تغادره ؟ وقررت أنه ما دام يعلم بحقيقة خطبتها ، فليس هناك ما يدعو للقلق ، أو على الأقل هى لم تخطئ فى شيء حتى الآن ، فابتسمت ابتسامة خافتة وأومأت برأسها .

وقالت : " أحب ذلك " .

فقال : " حسناً ، وماذا عن تناول العشاء ؟ فأنا أعرف مكاناً يقدم أفضل أصناف سرطان البحر فى هذه المدينة " .

فقالت : " هذا يبدو رائعاً . أين هذا المكان ؟ " .

قال : " منزلى ؛ لقد وضعت شباك الصيد طوال هذا الأسبوع ، ولاحظت أنها اصطادت عدداً لا بأس به منذ يومين فقط ، فهل تمانعين ؟ " .

فقالت : " كلا ؛ فهذا يبدو رائعاً ! " .

فابتسم وأشار بإصبعه إلى أعلى وقال : " عظيم ، إنها هناك عند المرسى الصغير . سأعود إليك بعد دقيقتين " .

أخذت آلى تراقبه وهو يسير بعيداً عنها ، ولاحظت أن التوتر الذى كانت تشعر به وهى تخبره عن خطبتها بدأ يزول عنها ، فأغمضت عينيها وأخذت تمرر يديها خلال خصل شعرها لتسمح للنسيم أن يلامس وجنتيها ، وأخذت نفساً عميقاً واحتجزته داخل صدرها لدقيقة ، وأحست بأن أعصاب ساعديها تسترخى شيئاً فشيئاً ، وهى تخرج هذا النفس ، وأخيراً ، فتحت عينيها ، وأخذت تنظر إلى الجمال الذى يحيطها من كل جانب .

فكثيراً ما كانت تحب مثل تلك الأمسيات ؛ حيث كانت تستنشق العبير الخفيف لأوراق الخريف التى تمتطى ظهور رياح الجنوب الوثيرة . وكانت تحب الأشجار والأصوات التى تصدر عنها ، وكان يساعدها الإصغاء إليها كثيراً على الاسترخاء . وبعد مرور دقيقة عاودت النظر إلى نوا ، وكانت تنظر إليه كما لو كان شخصاً غريباً عنها .

وقالت فى نفسها : " يا إلهى ! إنه يبدو فى أحسن حال حتى بعد مرور كل هذه السنوات " .

كانت تراقبه وهو يحاول تناول حبل معلق فوق سطح المياه ، وبدأ فى جذبه ، وعلى الرغم من الظلام المحيط بالمكان ، استطاعت أن ترى عضلات ساعديه وهى تشد

الحبل فى أثناء ما كان يقوم برفع قفص الصيد من الماء . ثم تركه معلقاً فوق النهر قليلاً وهو يهزهزه حتى يسمح بخروج معظم المياه ، وبعدما وضع القفص فوق المرسى الصغير ، فتحه ، وأخرج سرطانات البحر واحداً تلو الآخر ، ووضعها داخل الدلو .

وخطت آلى نحوه خطوات رشيقة ، وهى تستمع لصرير حشرة الجُدجد ، وتتذكر درساً تعلمته فى أثناء طفولتها ؛ فكانت تعد أصوات الصرير فى دقيقة وتضيف إليها رقم تسعة وعشرين ، فتكون درجة الرطوبة سبعًا وستين درجة مئوية ، فكانت تتذكر ذلك وهى تبتسم إلى نفسها . لم تكن تعرف ما إذا كانت هذه المعلومة دقيقة أم لا ، ولكنها تبدو صحيحة .

فى أثناء سيرها لاحظت أنها انشغلت قليلاً عن رؤية جمال وروعة الأشياء التى تحيطها ، وكانت ترى المنزل من بعيد ؛ فقد ترك نوا بعض المصابيح مضاءة ، وكان يبدو وكأنه المنزل الوحيد الموجود فى المكان ، أو على الأقل المنزل الوحيد الذى ينعم بالكهرباء ، فهناك خارج حدود المدينة ، ليس هناك يقين بشىء مُطلق ؛ فآلاف المنازل لا تزال تفتقر إلى رفاهية الإضاءة .

وعندما صعدت إلى المرسى الصغير سمعت صريره تحت قدميها ، فذكرها صوته بصوت المكبس الصدئ ،

ونظر إليها نوا وغمز بعينه ، ثم ذهب بعد ذلك ليفحص سرطانات البحر ويتأكد من أحجامها . أما هى فذهبت إلى الكرسى الهزاز الذى وضعه فوق المرسى الصغير ، وأخذت تلمسه ، وتمرر يدها على ظهره ، وكانت تتخيله وهو يجلس عليه ليصطاد ، أو يفكر ، أو يقرأ ، وكان قديماً ومسفوعاً من حرارة الشمس وظروف الطقس ، وله ملمس خشن ، وتساءلت كم من الوقت كان نوا يقضيه هنا بمفرده ، وما هى الأفكار التى كانت تدور بخلده فى أوقات كهذه ؟

وقال نوا من غير أن يرفع بصره نحوها : " إنه كرسى والدى " ، فهزت رأسها ، وكانت ترى بعض الخفافيش تحلق فى الهواء ، والضفادعَ وهى تنضم إلى الجدجد فى مقطوعتها المسائية .

وسارت تجاه الجانب الآخر من المرسى ، وهى تشعر بإحساس غريب من الاقتراب من شىء ؛ فهناك شىء دفعها لتأتى إلى هنا ، ولأول مرة منذ ثلاثة أسابيع يذهب عنها هذا الإحساس . كانت تريد أن يعرف نوا بخطبتها ، وأن يتفهم ذلك ويقبله ـ وهى متأكدة من ذلك الآن ، وبينما كانت تفكر فيه ، تذكرت شيئاً تقاسماه معاً منذ ذلك الصيف ، فأخذت تسير ببطء وهى تنظر إلى أسفل ، باحثة عنه حتى وجدته . إنه قلب

حفر على رصيف المرسى قبيل رحيل آلى بأيام قليلة ، وكتب عليه نوا يحب آلى .

هب نسيم عليل كسر حاجز السكون فشعرت بالبرد مما جعلها تعقد ذراعيها ، ووقفت هكذا ، وهى تنظر مرة إلى ذلك النحت ، وفى المرة الأخرى إلى النهر ؛ حتى سمعت صوته وهو يقترب منها ، فكانت تشعر بقربه منها وبدفء مشاعره وهو يتحدث إليها .

وقالت بصوت حالم : " ياله من مكان هادئ ! " .

فقال : " أعلم ذلك ؛ فأنا آتى إلى هذا المكان كثيراً فقط لأشعر بأنى قريب من مياه النهر ، فهى تجعلنى أشعر بإحساس جميل " .

فقالت : " لو كنت مكانك ، كنت سأفعل مثلك تماماً " .

فقال : " هيا بنا ندخل إلى المنزل ، فالبعوض أصبح أكثر شراسة الآن ، وأنا أشعر بالجوع " .

أظلمت السماء ، وبدأ نوا فى السير تجاه المنزل ، وبجانبه آلى ، وفى لحظات صمتهما كان عقلها يشرد قليلاً ، وكانت تشعر وهى تسير على طول هذا الطريق بأنها تصرفت بطريقة طائشة ، وكانت تسأل نفسها ما الذى يدور فى عقله بشأن وجودها هنا ،

وهى غير واثقة من معرفتها لذاتها . وعند وصولهما إلى المنزل بعد ذلك بدقيقتين ، جاءت كليم لتحيتهما .

أشار نوا إلى سيارتها وقال : " هل تركت بداخلها شيئاً تريدين إخراجه ؟ " .

فقالت بصوت يختلف عن صوتها السابق ، وكأن عقد السنين انفرط من أمامها فجأة : " كلا ، لقد أتيت مبكراً وأخرجت كل شيء " .

فقال وهو يسير فى اتجاه السقيفة الموجودة خلف المنزل ويصعد السلم : " حسناً " ، ووضع الدلو بالقرب من الباب ، ودخل إلى المنزل متجهاً إلى المطبخ ، وكان على يمينه مباشرة ، وهو مكان واسع . كانت خزانته مصنوعة من شجر البلوط ، تماماً مثل الأرضية ، وله نوافذ كبيرة تفتح جهة الشرق لتسمح بدخول ضوء الشمس فى الصباح ؛ فقد كانت إصلاحاته راقية الذوق ولا تحمل أى نوع من التكلف ، كما كان يحدث عادة عند إصلاح مثل هذه المنازل الكبيرة .

وقالت له : " هل لديك مانع أن أتفقد المكان ؟ " .

فقال : " لا ، تفضلى ؛ فقد ذهبت للتسوق مبكراً ، وعلى القيام بإفراغ مشترياتى من البقالة " .

وتقابلت عيناهما للحظة ، وعرفت آلى أنه استمر ينظر إليها حتى بعد تحولها عنه بظهرها ومغادرتها للغرفة ؛ فقد أحست بانتفاضة خفيفة فى صدرها .

وتجولت داخل المنزل خلال الدقائق المعدودة التالية ، وأخذت تسير وسط غُرَفِهِ ، وهى تلاحظ كم هى جميلة ، وعندما انتهت ، كان من الصعب عليها تذكر حالة الدمار التى كان عليها . ونزلت من على الدرج ، وتوجهت إلى المطبخ ، ورأته من جانب وجهه . وبدا لها فى لحظةٍ وكأنه شاب فى السابعة عشرة من عمره من جديد ؛ مما جعلها تقف للحظة قبل أن تقترب منه ، وقالت لنفسها : " تباً لك حاولى ضبط نفسك ، وتذكرى أنك مرتبطة الآن " .

كان نوا يقف بجوار الطاولة ، أمام بابين من أبواب الخزانة مفتوحين على مصراعيهما ، وكان يفرغ أكياس البقالة ويضع محتوياتها على الأرض وهو يصفر بصوت هادئ . وظل يبتسم لها وهو يضع المزيد من المعلبات داخل أحد أرفف الخزانة ، فوقفت على مقربة منه واتكأت على الطاولة ، وهى تضع إحدى ساقيها فوق الأخرى . وهزت رأسها فى دهشة من حجم العمل الذى قام به .

وقالت : " إنه شيء لا يصدق يا نوا . كم استغرقت فى هذا الإصلاح ؟ " .

فرفع رأسه وهو يفرغ آخر كيس معه وقال : " استغرقت عامًا تقريباً " .

سألته : " هل قمت بهذا العمل بمفردك ؟ " .

فضحك ضحكة خافتة ثم قال : " لا . كنت أظن أنى سأقدر عندما كنت صغيراً ، وبدأت من هذه القناعة . ولكن العمل كان كثيراً جداً وسيستغرق سنوات ، ولهذا انتهى بى الأمر بالاستعانة ببعض العمال ... بل فى الواقع بالكثير منهم ، ومع كل ذلك كان هناك المزيد من العمل ، وفى معظم الأحوال كنت لا أتوقف عن العمل إلا بعد منتصف الليل " .

فسألته : " لماذا تعمل بهذا الجد والنشاط ؟ " .

كان يود أن يقول لها : " الأشباح " ، ولكنه لم يقلها .

وقال : " لا أعرف ؛ فأنا أريد فقط الانتهاء من هذا العمل . هل ترغبين فى تناول شيء قبل أن أبدأ فى إعداد العشاء ؟ " .

فقالت : " ماذا عندك ؟ " .

فقال : " ليس الكثير فى الواقع لدى شاى وقهوة وبعض المثلجات " .

فقالت : " إذن أفضل الشاى " .

فجمع أكياس البقالة ووضعها جانباً ، ثم ذهب إلى غرفة صغيرة خارج المطبخ ، وعاد منها ومعه عبوة شاى . وأخرج منها كيسين من الشاى ووضعهما بجوار الموقد ، ثم ملأ إبريق الشاى بالماء ، وبعدما وضعه على الشعلة ، أشعل عود ثقاب ، وسمعت آلى أصوات اللهب وهى تدب بالحياة .

وقال : " سوف يجهز الشاى خلال دقائق ؛ فهذا الموقد سريع جداً فى الغليان " .

فقالت : " هذا حسن " .

وعندما بدأ إبريق الشاى فى الصفير ، صب فنجانين وأعطاها أحدهما .

فابتسمت وهى تأخذ رشفة منه ، ثم ذهبت فى اتجاه النافذة وقالت : " إننى متأكدة أن هذا المطبخ يبدو غاية فى الجمال عندما تدخله أشعة الشمس فى الصباح " .

فهز رأسه وقال : " هو كذلك ؛ فقد وضعت نوافذ كبيرة فى هذا الجانب من المنزل لهذا السبب ، وحتى فى غرف النوم فى الطابق العلوى " .

فقالت : " أنا واثقة من أن ضيوفك يستمتعون بضوء الشمس ، إلا إذا كانوا يفضلون النوم حتى وقت متأخر " .

قال : " فى الواقع ، لم يأت إلىَّ من أستضيفه فى منزلى حتى الآن ، فمنذ أن رحل والدى ، لا أعرف أحدًا لأدعوه إلى زيارتى " .

وشعرت من نبرة صوته أنه يحاول جذب أطراف الحديث معها ، ولكن لسبب ما كان يريد أن يخبرها بأنه وحيد ، ويبدو أنه أدرك ما شعرت به ، ولهذا تحول إلى موضوع آخر قبل أن يطول الحديث معه فى هذا الموضوع .

وقال : " سأذهب لأحضر السرطانات البحرية لأنقعها فى الماء والملح لبضع دقائق قبل طهيها على البخار " ، ووضع فنجانه على الطاولة وذهب إلى الخزانة وأحضر إناءً عميقاً به إناء آخر للبخار وغطاء ، وأحضر الإناء إلى الحوض وملأه بالماء ، ثم حمله إلى الموقد .

قالت له : " هل يمكننى مساعدتك فى شىء ؟ " .

فأجابها : " بالطبع ، ما رأيك فى تقطيع بعض الخضراوات لقليها . هناك المزيد منها داخل المُبرد ، ويمكنك إحضار وعاء من هناك " .

وسار إلى الخزانة الموجودة بجوار الحوض ، أما هى فأخذت رشفة من الشاى قبل أن تضع فنجانها على الطاولة وذهبت لإحضار الوعاء ، وحملته من المُبرد ووجدت فى رفه السفلىّ بعضاً من البامية والقرع والبصل والجزر ، وانضم إليها نوا أمام باب المُبرد المفتوح ، فتحركت لتفسح له مكاناً ، فتناول زجاجة من الصلصة الحارة ، ثم عاد إلى الموقد .

فتح نوا الزجاجة وصبها إلى الماء ، ثم أضاف بعض التوابل الأخرى ، وأخذ يقلب الماء حتى تأكد من ذوبانها تماماً ، وذهب إلى الباب الخلفى ليحضر سرطانات البحر .

وتوقف للحظة قبل أن يمضى إلى الداخل وأخذ ينظر إلى آلى ويراقبها وهى تقطع الجزر ، وفى أثناء ذلك أخذ يسأل نفسه من جديد عن السبب وراء قدومها ، وخصوصاً الآن بعدما تمت خطبتها ، فلم يجد تفسيراً منطقياً لكل ذلك .

ولكن آلى كانت دائماً تحب المفاجآت .

فابتسم لنفسه وهو يتذكر تصرفاتها فى الماضى ؛ فقد كانت دائماً مفعمة بالنشاط ، وكانت عاطفية إلى أبعد حد ، تماماً مثلما كان تصوره عن معظم الفنانين ، وهى قطعاً تنتمى إليهم ؛ فموهبة فنية مثل موهبتها تعد هبة

من السماء ، وتذكر عندما رأى بعض اللوحات الزيتية فى متاحف نيويورك ، واعتقد أن أعمالها الفنية لا تقل جمالاً عنها .

وقد أعطته إحدى لوحاتها قبل رحيلها فى ذلك الصيف ، وهو يعلقها فوق المدفأة فى غرفة المعيشة . وكانت تطلق عليها اسم لوحة أحلامها ، وكانت تبدو له لوحة حسية للغاية ، وكان عندما ينظر لها ـ وغالباً ما كان يحدث ذلك فى المساء ـ يرى الرغبة المتأججة فى الخطوط والألوان ، وكان عندما يركز فيها بعناية يخيل إليه أنه استطاع أن يكتشف ما كانت تفكر فيه مع كل لمسة للفرشاة .

نبح كلب من بعيد ، فأدرك نوا أنه ظل واقفاً فترة طويلة والباب مفتوح ، فأغلقه بسرعة ، واتجه عائداً إلى المطبخ وفى أثناء سيره ، كان يسأل نفسه ما إذا كانت قد لاحظت غيابه لفترة طويلة أم لا ؟

وسألها بعدما رآها قد قاربت على الانتهاء : " كيف تسير الأمور معك ؟ " .

فأجابته : " على ما يرام . لقد انتهيت تقريباً . هل هناك شىء آخر أقوم به للعشاء ؟ " .

فقال : " لدى بعض الخبز المصنوع فى المنزل كنت أخطط لتقديمه " .

فقالت : " خبز مصنوع فى المنزل ؟ " .

فقال وهو يضع الدلو داخل الحوض : " أهدته لى إحدى الجارات " ، ثم فتح صنبور المياه وأخذ ينظف السرطانات البحرية ، ويمسك بها تحت المياه الجارية ، ثم يتركها تجرى حول الحوض وهو يقوم بتنظيف الباقى ، فتناولت آلى فنجانها وجاءت لتشاهده .

وقالت : " ألا تخشى أن تقرصك وأنت تمسك بها ؟ " .

فقال وهو يشرح لها : " لا ، فقط أُمْسِكُها بهذه الطريقة " .

فابتسمت وقالت : " لقد نسيت أنك تقوم بذلك طوال حياتك " .

قال : " نيو بيرن مدينة صغيرة ، ولكن المرء يتعلم منها أشياء كثيرة مفيدة " .

فاتكأت على الطاولة ، وهى تقف بجواره ، وانتهت من شرب فنجانها ، وعندما انتهى من إعداد السرطانات البحرية قام بوضعها داخل الإناء الموجود

على الموقد . وغسل يديه ، وفى أثناء ذلك التفت إليها ليحدثها .

وقال : " هل ترغبين فى الجلوس فى الردهة لبضع دقائق ؟ فسوف أتركها داخل هذا الإناء لنصف ساعة " .

فقالت : " بكل تأكيد " .

وبعد أن جفف يديه ، ذهبا معاً للردهة الخلفية ونقر نوا زر الكهرباء وهما فى طريقهما للخارج ، وجلس على الكرسى الهزاز القديم ، وترك لها الكرسى الجديد لتجلس عليه ، وعندما رآها قد أفرغت فنجانها ، مضى إلى داخل المنزل للحظة وأتى ومعه فنجانان آخران لها وله ، وعندما قدم لها فنجانها تناولت منه رشفة قبل أن تضعه على الطاولة الموجودة وسط الكرسيين .

وقالت : " لقد كنت تجلس فى هذا المكان عندما جئت . أليس كذلك ؟ " .

فأجابها وهو يستريح فى جلسته على الكرسى : " نعم ، فأنا أجلس هنا كل ليلة . لقد أصبحت عادة لدىَّ " .

فقالت وهى تنظر حولها : " بإمكانى معرفة السبب ، ولكن ما الذى تقوم به فى هذه الأيام ؟ " .

قال : " فى الواقع ، أنا لا أقوم بشىء سوى العمل فى هذا المنزل ؛ فهو أمر يرضى ملكاتى الإبداعية " .

فقالت : " كيف أمكنك ... أقصد ... " .

فقال : " موريس جولدمان " .

فقالت : " معذرة ! " .

فابتسم وقال : " إنه رئيسى فى العمل . عندما كنت فى أقصى الشمال . كان اسمه موريس جولدمان وقد عرض على جزءاً من مشروعه قبل التحاقى بالجيش مباشرة ، وتوفى قبل رجوعى إلى مدينتى ، وعندما عدت إلى الولايات المتحدة ، أعطانى محاموه شيكاً بمبلغ كبير يكفى لشراء هذا المكان وإصلاحه " .

فضحكت بصوت خافت وقالت : " لقد كنت دوماً تخبرنى بأنك ستجد طريقة ! " .

وجلسا معاً فى صمت للحظة وهما يسترجعان ذكرياتهما وأخذت آلى رشفة أخرى من فنجان الشاى ، وقالت : " هل تذكر كيف تسللنا إلى هذا المكان فى أول ليلة أخبرتنى عنه ؟ " .

فهز رأسه وواصلت كلامها :

" لقد عدت إلى المنزل فى وقت متأخر من تلك الليلة ، وكان والداى غاضبين منى عندما عدت إليهم أخيراً . فلا أزال أتذكر والدى وهو يقف فى حجرة

المعيشة ، ووالدتى تجلس على الأريكة وتنظر أمامها ، أقسم أنهما كانا يبدوان كما لو أنهما فقدا واحداً من العائلة ، وكانت هذه أول مرة يعلم فيها والداى أنى جادة فى ارتباطى بك ، وتحدثت معى والدتى لفترة طويلة فى وقت لاحق من هذه الليلة . وقالت لى : أنا واثقة من اعتقادك بأنى لا أستطيع فهم ما أنت مقبلة عليه ، ولكنى أعلم جيداً ، ولكن المسألة ببساطة هى أن مستقبلنا يتحدد بما نحن عليه الآن ، وهو يختلف تماماً عما نريده ، وأتذكر كم جرحتنى كلماتها تلك ! " .

فقال : " وقد جرحت مشاعرى أنا أيضاً عندما أخبرتنى بها فى اليوم التالى ، فأنا أحب والديك ، ولم أكن أعلم بكراهيتهما لى " .

قالت : " إنهما لا يكرهانك ، ولكنهما يعتقدان أنك لا تناسبنى " .

فقال : " الأمر لا يختلف كثيراً " .

وكانت هناك نبرة حزينة فى صوته وهو يجيبها ، وكانت تعلم أن لديه الحق فى إحساسه بذلك ، فنظرت إلى النجوم وهى تمر بيدها فوق شعرها وتعيد خصلاته التى سقطت على وجهها إلى الوراء .

وقالت : " لقد كنت على علم بذلك ، وربما يكون ذلك السبب وراء المسافة التى أصبحت بينى وبين والدتى عندما نتحدث " .

فسألها : " ما هو إحساسك تجاه هذا الآن ؟ " .

فأجابته : " إحساسى كما هو لم يتغير منذ ذلك الوقت . فأنا أشعر بأن ذلك خطأ ، وليس عدلاً . لقد كان أمراً قاسياً على فتاة مثلى أن تعلم بأن الوضع الاجتماعى أمر أهم من المشاعر ! " .

فابتسم نوا برقة عندما سمع إجابتها ، ولكنه لم يقل شيئاً .

وقالت : " لقد كنت أفكر فيك منذ ذلك الصيف " .

قال : " حقاً ؟! " .

فقالت وقد ظهرت عليها الدهشة : " لماذا لا تصدقنى ؟ " .

فقال : " لم تردى على خطاباتى " .

فقالت : " هل كنت تكتب لى ؟ " .

فقال : " عشرات الخطابات ، لقد ظللت أكتب لك طوال عامين دون أن يصلنى رد واحد منك ! " .

فهزت رأسها ببطء قبل أن تنظر إلى أسفل .

ثم قالت أخيراً فى هدوء : " لم أعلم بذلك " ، وكان واثقاً من أن والدتها كانت تقوم بفحص البريد ،

واستبعاد الخطابات دون علمها ؛ فقد كان دائماً يشك فى ذلك ، وظل يراقب آلى حتى وصلت إلى نفس الإدراك .

ثم قالت : " لقد أخطأت عندما قامت بذلك يا نوا ، وأنا آسفة لما حدث ، ولكن حاول أن تفهم . لقد اعتقدت والدتى بأنى إذا رحلت من هنا ، سيسهل علىَّ نسيان الأمر برمته ؛ فهى لم تستطع فهم معنى وجودك فى حياتى ، ولكى أكون صادقة معك ، أنا لا أعلم ما إذا كانت والدتى قد أحبت والدى مثلما كنت أحبك ، فقد كانت تعتقد بأنها تحمينى من مشاعرى ، ورأت أن أفضل طريقة لذلك هى أن تخفى هذه الخطابات التى كنت ترسلها " .

فقال بصوت هادئ : " لم يكن هذا قرارها " .

قالت : " أعلم ذلك " .

قال : " فهل كان سيختلف الوضع إذا ما كنت قد حصلت عليها ؟ " .

قالت : " بالطبع ؛ فقد كنت دائماً أتطلع لمعرفة أخبارك " .

قال : " لا أقصد ذلك ، هل تظنين أن علاقتنا كانت ستنجح ؟ " .

فأخذت تفكر لدقيقة قبل أن تجيب .

ثم قالت : " لا أعلم يا نوا . لا أعلم حقاً ، ولا أنت كذلك ، فقد اختلفت شخصياتنا عن الماضى ، وتغيرنا وأصبحنا أكثر نضجاً " .

وتوقفت عن الحديث ، ولم يرد عليها ، وفى فترة صمتهما هذه أخذت تنظر إلى الغدير ، ثم أكملت ما كانت تقوله :

" ولكن أجل يا نوا ، أعتقد أننا كنا سننجح . على الأقل كنت أتمنى ذلك " .

فأومأ برأسه ، ونظر إلى أسفل ، ثم اتجه بنظره بعيداً .

وسألها : " كيف يبدو لون ؟ " .

فترددت قليلاً ، لأنها لم تتوقع السؤال ، فذكره لاسم " لون جعلها تشعر بالذنب ، وظلت لدقيقة كاملة لا تستطيع الإجابة ، فتناولت فنجانها ، وأخذت رشفة منه ، وسمعت صوت الضربات الخفيفة لنقار الخشب من على بعد ، وقالت بصوت هادئ :

" لون شخص وسيم وجذاب ، وناجح ، ومعظم صديقاتى يحسدننى بسبب ارتباطى به ، فهن يعتقدن أنه رجل مثالى ، وهو كذلك فى جوانب كثيرة . وهو يحسن معاملتى ، ويحاول إسعادى ، وأنا أعلم أنه يحبنى بطريقته الخاصة " . وهمهمت للحظة وهى

تحاول تجميع أفكارها ثم قالت : " ولكن هناك دائماً ما ينقص علاقتنا " .

واندهشت من إجابتها ، ولكنها تعلم بأنها الحقيقة على الرغم من كل شيء ! وكانت تعلم كذلك من النظر إليه أن نوا كان يتوقع منها هذه الإجابة .

وقال : " لماذا ؟ " .

فابتسمت ابتسامة خافتة وهزت كتفيها وهى تجيب عن سؤاله ، وكان صوتها يقارب الهمس :

" أعتقد أننى لازلت أبحث عن حب يشبه الحب الذى جمع بيننا فى ذلك الصيف " .

أخذ نوا يفكر طويلاً فيما قالته ، وهو يتذكر العلاقات التى مرت به منذ أن ابتعدت عنه .

وسألته : " ماذا عنك ؟ هل كنت تفكر فى علاقتنا ؟ " .

فقال : " كنت ولا أزال أفكر فيها طوال الوقت " .

وسألته : " هل تواعد أحداً الآن ؟ " .

فأجابها وهو يهز رأسه : " كلا " .

واستغرق كل منهما فى التفكير فى هذا الأمر ، وحاولا إبعاده عن تفكيرهما ، ولكنهما وجدا ذلك مستحيلاً . انتهى نوا من شرب فنجانه ، وقد فوجئ بأنه قد انتهى منه سريعاً ، وقال :

" أنا ذاهب لإشعال الموقد . هل يمكننى إحضار شيء لك ؟ " .

فهزت رأسها بالنفى ، وذهب نوا إلى المطبخ ووضع سرطانات البحر داخل إناء البخار ، ووضع الخبز داخل الفرن . وأحضر بعض دقيق القمح والذرة لتغطية الخضراوات ، ثم وضع بعض الزيت داخل المقلاة . وبعدما أشعل النار الهادئة ، ضبط ساعة التوقيت وصب فنجاناً آخر من الشاى قبل أن يخرج إلى الردهة . وفى أثناء قيامه بكل هذه الأشياء ظل يفكر فى آلى والحب المفقود من حياتهما .

وكانت آلى تفكر أيضاً ، فى نوا ، وفى نفسها ، وفى أشياء أخرى كثيرة . وتمنت للحظة ألا تكون مخطوبة ، ثم أسرعت بتأنيب نفسها ؛ فهى لا تحب نوا ؛ وإنما تحب ما قد كان بينهما . بالإضافة إلى أن إحساسها هذا طبيعى للغاية ، فقد كان حبها الأول ، وأول رجل ارتبطت به فى حياتها - فكيف يمكنها أن تتوقع نسيانه ؟

ولكن هل من الطبيعى أن تشعر باختلاجة صدرها كلما اقترب منها ؟ وهل من الطبيعى أن تعترف له بأشياء لم تخبر بها أحداً على الإطلاق ؟ وهل من

الطبيعى أن تأتى إلى هذا المكان قبل موعد زفافها بثلاثة أسابيع ؟

فهمست لنفسها أخيراً وهى تنظر إلى السماء المظلمة : " كلاً ، إنه ليس كذلك ، فلا يوجد شىء واحد طبيعى فى هذا كله " .

أتى نوا عند هذه اللحظة ، فقابلته بابتسامة ، وكانت سعيدة بقدومه من جديد حتى تتوقف عن التفكير فى هذا الموضوع ، وقال وهو يجلس مجدداً : " سينضج الطعام بعد دقائق معدودة " .

فقالت : " حسناً ، فأنا لا أشعر بالجوع إلى هذه الدرجة " .

فنظر إليها عند ذلك ، ورأت مشاعره الرقيقة بادية فى عينيه وهو يقول لها : " أنا سعيد بوجودك يا آلى " .

فقالت : " وأنا كذلك ، مع أنى ترددت فى ذلك " .

فسألها : " لماذا جئت ؟ " .

وكانت تريد أن تقول له إنها أُجبرت على ذلك ، ولكنها لم تفعل .

وقالت : " فقط من أجل رؤيتك ، ومعرفة أخبارك والاطمئنان عليك " .

وتساءل بينه وبين نفسه ما إذا كان هذا كل ما فى الأمر ؟ ولكنه لم يطل عليها بأسئلته ، وبدلاً من ذلك تحدث فى موضوع آخر .

وقال : " بالمناسبة ، كنت أود سؤالك ، هل مازلت ترسمين ؟ " .

فهزت رأسها وقالت : " كلا ، على الإطلاق " .

فدهش مما قالت وسألها : " ولماذا لا ؟ فأنت لديك موهبة حقيقية " .

فقالت : " لا أعرف ... " .

فقال : " بل تعرفين . لابد من وجود سبب جعلك تتوقفين عن الرسم " .

وقد كان محقاً ، فلديها سبب .

قالت : " إنها قصة طويلة " .

فقال : " إن لدى الوقت الكافى لسماعها " .

فسألته بهدوء : " هل كنت تظن أنى موهوبة حقاً ؟ " .

فقال لها وهو يمسك بيدها : " هيا تعالى معى ، أريد أن أريك شيئاً " .

فنهضت وسارت معه خلال الباب المؤدى إلى غرفة المعيشة ، ووقف أمام المدفأة وأشار إلى اللوحة المعلقة فوق إطار المدفأة ، فاندهشت لأنها لم ترها من قبل ،

والذى زاد من هذا الإحساس لديها وجودها فى هذا المكان .

وقالت : " مازلت تحتفظ بها ؟! " .

قال : " بالطبع فهى لوحة رائعة " .

فنظرت إليه نظرة يملؤها الشك ، فقال مفسراً :

" إنها تجعلنى أشعر بأنى مازلت حياً عندما أنظر إليها ، وأحياناً أشعر برغبة فى أن أصعد إليها وألمسها بيدى ؛ فأشكالها وظلالها وألوانها تبدو طبيعية للغاية . وأحياناً كنت أراها فى أحلامى . إنها لوحة رائعة يا آلى ، ولا أَمَلُّ النظر إليها لساعات طويلة " .

فقالت فى ذهول : " أحقاً ما تقوله ؟ " .

قال : " أنا جاد تماماً فى كل كلمة قلتها " .

فلم تقل شيئاً .

واستمر فى حديثه : " هل تقصدين إخبارى بأنك لم تسمعى هذا الكلام من أحد من قبل ؟ " .

فقالت أخيراً : " قالها لى أستاذى ذات مرة ، ولكننى لم أصدقه " .

فعلم أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، والتفتت آلى بنظرها بعيداً قبل أن تكمل حديثها ، ثم قالت :

" بدأت أرسم منذ أن كنت طفلة صغيرة ، وكلما كبر سنى ، كان يزداد اعتقادى بأنى متفوقة فيه . وأنا

أستمتع به أيضاً ، وأتذكر كيف كنت أعمل على الانتهاء من هذه اللوحة فى ذلك الصيف ، فكنت أضيف إليها شيئاً فى كل يوم ، وأغير فيها كلما تطورت علاقتنا وأخذت منحى جديداً ، ولكنى لا أذكر كيف بدأتها ، أو ما الذى كنت أريدها أن تكون عليه ، ولكنها تبلورت حتى أصبحت على هذه الصورة .

وأذكر أنى لم أستطع التوقف عن الرسم بعد عودتى إلى المنزل منذ ذلك الصيف ، وأعتقد أنها كانت طريقتى الخاصة لتجنب الألم الذى كنت أعيش فيه ، وعلى أية حال انتهى بى الأمر بالتخصص فى دراسة الفنون الجميلة فى الجامعة ؛ لأنه كان شيئاً ضرورياً بالنسبة لى ؛ وأذكر كيف كنت أقضى الساعات الطويلة فى المرسم بمفردى ، وأنا أستمتع بكل دقيقة تمر على ؛ فأنا أحب الحرية التى كنت أشعر بها عندما أبدع ، وهو الشعور الذى يدفعنى من داخلى بأن أصنع شيئاً جميلاً . قبل تخرجى أخبرنى أستاذى الذى تصادف أنه كان الناقد على ورقة امتحانى ، بأنى لدى موهبة حقيقية ، وقال لى إنه على أن أجرب حظى كفنانة محترفة ، ولكننى لم أحفل بكلامه " .

وتوقفت عند ذلك لتستجمع أفكارها ... .

ثم أضافت : " اعتقد والدى أنه ليس من اللائق لفتاة مثلى أن تحترف الرسم لكسب العيش ، فتوقفت بعد فترة وجيزة ، ولم أمسك بيدى فرشاة منذ سنوات عديدة " .

وأخذت تنظر إلى اللوحة .

فسألها : " هل تظنين أنك قادرة على الإمساك بالفرشاة من جديد ؟ " .

فأجابته : " لست متأكدة من قدرتى الآن ؛ فقد مر على ذلك زمن طويل " .

فقال : " بل مازلت تقدرين على ذلك يا آلى ؛ فأنا واثق مما أقول ، إنك تملكين موهبة تنبع من قلبك ووجدانك ، وليس من أصابعك وحدها ، فما لديك لن تفقديه مطلقاً ؛ فهذا ما يطمع الآخرون فى حدوثه . أنت فنانة موهوبة يا آلى " .

كان ينطق بهذه الكلمات فى صدق بالغ ؛ مما جعلها تعرف أنه لا يقولها على سبيل المجاملة فحسب ؛ فهو يؤمن بقوة فى قدرتها ، ولسبب غير واضح كان ذلك يعنى الكثير بالنسبة لها ، أكثر مما كانت تتوقع ، ولكنَّ هناك شيئاً آخر يفوق ذلك قوة .

لماذا حدث ، هى لا تعلم ، ولكن ذلك حدث عندما بدأت الهوة التى صنعتها آلى فى حياتها لتنفصل بين

الألم والسعادة تضيق عليها . وعند ذلك ساورها الشك ، ربما من دون وعى منها ، بأن ذلك له معنى أكبر مما تحرص على الاعتراف به .

ولكن حتى تلك اللحظة لم تكن واعية بذلك تمام الوعى ، فتحولت بنظرها إليه وهى تتعجب من أنه لا يزال يعرف تحديداً ما تريد سماعه ، حتى بعد مرور كل هذه السنوات ، وعندما تلاقت أعينهما أدركت كم أنه شخص فريد من نوعه !

وللحظة عابرة لا تعدو أن تكون خيطاً ضئيلاً من الزمن يحلق فى الهواء مثل ذبالة سراج الليل فى سماء الصيف ـ تساءلت بينها وبين نفسها إذا ما كانت قد وقعت فى حبه من جديد !

رن جرس ساعة التوقيت فى المطبخ بصوت خفيض فالتفت نوا بعيدًا لتنتهى عند ذلك هذه اللحظة ، وقد تأثر بشكل غريب بما حدث لهما ، فقد تحدثت إليه عيناها ، وهمست له بشىء كان يتمنى سماعه ، ولكنه لم يستطع إيقاف ذلك الصوت الذى يتردد داخل عقله ، إنه صوتها عندما قالت له إنها تحب شخصاً آخر . أخرج الخبز من الفرن ، وكاد أن يحرق إصبعه وهو يضع رغيف الخبز على الطاولة ، ورأى أن المقلاة

أصبحت جاهزة ، فأضاف إليها الخضر ، وسمع صوتها وهى تطقطق فى الزيت ، ثم أخذ يتمتم لنفسه بكلام غير مفهوم ، وأحضر بعض الزبد من المبرد ، ووضع بعضاً منه فوق الخبز ، وأذاب البعض الآخر من أجل السرطانات .

لحقت آلى به فى المطبخ وهى تتنحنح ، ثم قالت :

" هل يمكننى إعداد المائدة ؟ " .

فأشار نوا بالسكين الذى يقطع به الخبز وقال لها :

" بالتأكيد ، ستجدين الأطباق هناك ، أما باقى الأوانى والفوط فستجدينها هنا ، وتأكدى أنك تضعين المزيد منها ؛ فالسرطانات قد تتسبب فى المزيد من الفوضى ؛ ولذلك سوف نحتاج إليها " . ولم يستطع النظر إليها وهو يتحدث ؛ فهو لم يكن يريد أن يدرك أنه كان مخطئاً بشأن ما حدث بينهما منذ لحظات . لم يكن يريده أن يكون مجرد غلطة .

شعرت آلى كذلك بالحيرة مما حدث فى هذه اللحظة وكانت تشعر بالدفء كلما فكرت فيها ، وترددت الكلمات التى قالها كثيراً فى عقلها فى أثناء إعدادها للمائدة : الأطباق وأدوات المائدة المختلفة ، والملح والفلفل . وناولها نوا الخبز عندما انتهت من إعداد المائدة .

وعاد بانتباهه من جديد إلى المقلاة وأخذ يقلب الخضراوات ، ورفع غطاء إناء البخار ، فعرف أن السرطانات أمامها دقيقة واحدة لتنضج فتركها ، وقد استعاد هدوءه الآن ، وعاد إلى المحادثة الخفيفة وقال :

" هل سبق لك تناول السرطانات البحرية ؟ " .

فقالت : " مرتين فقط ، ولكن على صورة سلاطة " .

فضحك وقال : " إذن أنت على وشك الدخول فى مغامرة جديدة . انتظرى للحظة " ، فغاب فى الطابق العلوى لدقيقة ، ثم عاد ومعه قميص لونه أزرق قاتم ، وحمله لها لترتديه وقال :

" ارتدى هذا القميص ؛ فأنا لا أريد أن يتسخ ثوبك " .

فارتدته آلى وهى قلقة .

فقال لها عندما رأى تعبير وجهها : " لا تقلقى ؛ إنه نظيف " .

فضحكت وقالت : " أعرف ذلك . إنه فقط يذكرنى بموعدنا الأول عندما أعطيتنى سترتك ، هل تذكره ؟ " .

فأومأ برأسه وقال : " نعم أذكره ؛ فقد كان بصحبتنا فين ، وسارة " .

أصبحت الخضراوات والسرطانات البحرية تامة النضج فى هذه اللحظة ، وقال وهو يناولها الطعام : " احترسى ؛ فهو ساخن جداً " ، وجلسا يواجه كل منهما الآخر على مائدة خشبية صغيرة ، ولاحظت آلى أن إبريق الشاى لا يزال هناك على الطاولة ؛ فنهضت من مكانها لتحضره ، وبعدما وضع نوا بعض الخضراوات والخبز فى الأطباق ، أضاف السرطانات البحرية ، وجلست آلى للحظة تتأمل شكلها .

وقالت : " إنها تشبه البق " .

فقال : " فهى إذن بق من النوع اللذيذ ، هيا أريك كيف يمكنك تقشيرها " .

وأخذ يشرح لها بسرعة ؛ ليبدو الأمرُ سهلاً ، وينزع اللحم ويضعه فى طبقها . أخذت آلى تسحق أقدامها بعنف فى أول مرة ، وفى المرة الثانية ، وكانت تستخدم أصابعها لتفصل القشور عن اللحم ، وشعرت بالارتباك فى أول الأمر ، وشعرت بالقلق لأنه يرى كل أخطائها ، ولكنها أدركت بعد ذلك أنها فقدت الثقة فى نفسها ؛ فهو لم يكن يوماً يبالى بمثل هذه الأشياء .

وسألته : " ما الذى حدث لفين ؟ " .

فصمت للحظة قبل أن يجيبها .

ثم قال : " لقد مات فين فى الحرب بعدما تم خسف مدمرته بالتوربيد فى عام ثلاثة وأربعين " .

قالت : " أنا آسفة على ذلك ، فأنا أعلم أنه كان أعز صديق لديك " .

فتغير صوته قليلاً وأصبح منخفضاً .

وقال : " لقد كان كذلك بالفعل . إنى أذكره كثيراً فى هذه الأيام ، وأنا على الأخص أذكر آخر لقاء لى به . عندما عدت إلى بيتى لأودعه قبل التحاقى بالجيش ، ثم تقابلنا بعدُ ذلك . فقد كان يعمل كمحاسب فى بنك هنا ، مثلما كان والده ، وقضينا معاً وقتاً طويلاً طوال الأسبوع التالى لزيارتى . وأحياناً أظن أننى الذى أقنعته بالانضمام إلى الجيش . وأعتقد أنه لم يكن ليقدم على هذه الخطوة ، ما لم أكن هناك " .

قالت وهى نادمة لأنها فتحت معه هذا الموضوع : " إنك تظلم نفسك " .

قال : " معك حق فكل ما فى الأمر أنى أفتقده " .

وقالت : " وأنا أحببته كذلك ، فكثيراً ما كان يضحكنى " .

قال : " لقد كان بارعاً فى ذلك " .

نظرت إليه بطرف عينها وقالت : " هل كنت تعلم أنه كان مفتوناً بى ؟ " .

قال : " نعم كنت أعلم ؛ فقد أخبرنى بذلك " .

قالت : " هل فعل ذلك ؟ ما الذى قاله لك ؟ " .

فهز نوا كتفيه ثم قال : " مثلما اعتاد القول ، بأنه كان يضطر إلى الهرب منك ، وأنك كنت تطاردينه باستمرار ، ومثل ذلك القول " .

فضحكت فى هدوء وقالت : " وهل صدقته ؟ " .

فقال : " بالطبع ، ولم لا ؟ " .

فقالت : " أنتم الرجال دائماً ما تقفون فى صف واحد " ، وواصلت حديثها قائلة : " أخبرنى بكل شىء انشغلت به منذ أن رأيتك آخر مرة " .

وبدآ حينئذ فى حديثهما ليعوضا ما فاتهما فى الأعوام السابقة ، وتحدث نوا عن رحيله عن نيو بيرن ، وعمله فى السفن ، وفى ساحة الخردة فى نيو جيرسى . وتحدث فى شغف شديد عن موريس جولدمان وتحدث بإيجاز عن الحرب ، متجنباً الكثير من التفاصيل ، وأخبرها عن والده وكم يفتقده كثيراً . وتحدثت آلى عن التحاقها بالجامعة ، وعن الرسم ، والساعات التى قضتها فى العمل التطوعى فى المستشفى ، وتحدثت عن أسرتها وأصدقائها ، والأعمال الخيرية التى اشتركت فيها ، ولكن لم يذكر أحد منهما شيئاً عن أى شخص ارتبط أيهما به منذ آخر مرة رأى

كل منهما فيها الآخر . حتى إنها تجاهلت لون ، وعلى الرغم من أن كليهما قد لاحظ هذا التجاهل ، إلا أنهما لم يتحدثا عنه بأى شىء .

وبعد ذلك حاولت آلى أن تتذكر آخر مرة تحدثت فيها هى ولون بهذه الطريقة ، فعلى الرغم من أنه يحسن الاستماع إليها ونادراً ما يجادلها ، إلا أنه لا يحسن الحديث معها بهذه الطريقة ؛ فهو مثل والدها لا يشعر براحة فى التعبير عن أفكاره ومشاعره . حاولت أن تفسر له أنها بحاجة إلى أن تقترب منه أكثر ، ولكن ذلك لم يحدث أى فارق .

ولكنها عندما جاءت إلى هذا المكان عرفت ما هو الشىء الذى تفتقده .

وعندما أظلمت السماء ، وبدأ القمر يرتفع أعلى وأعلى كلما دخل المساء ، وبدون وعى منهما بدآ فى استعادة تقاربهما ، ورابطة الألفة التى جمعت بينهما فى يوم من الأيام .

• • •

بعد انتهائهما من العشاء الذى استمتعا به كثيراً ، لم يتحدثا كثيراً ، وأخذ ينظر نوا إلى ساعته ، وأحس أن الوقت قد تأخر ؛ فالنجوم تغطى السماء ، وصوت صرار الليل أمسى أقل ضجيجاً ، وقد استمتع بالحديث مع

آلى وتساءل بينه وبين نفسه ما إذا كان قد تحدث أكثر مما ينبغى ، وتساءل عن رأيها فى حياته ، أملاً أن يحدث ذلك فارقاً ، إن أمكن .

نهض نوا من مكانه ، وأعاد ملء إبريق الشاى . وقام الاثنان بإحضار الأطباق إلى الحوض وتنظيف المائدة ، وقام هو بصب فنجانين من الماء الساخن ، ووضع فيهما أكياس الشاى .

وقال لها وهو يناولها الفنجان : " ما رأيك فى الخروج إلى الردهة من جديد ؟ " ، فوافقت ، ثم سار معها إلى هناك ، وأحضر غطاء لها فى حالة ما إذا شعرت بالبرد ، وسرعان ما جلس كلاهما فى مكانه السابق . ووضعت آلى الغطاء فوق قدميها ، وبدأ فى هز الكرسيين ، وكان نوا يراقبها من طرف عينيه ، ويقول لنفسه إنها حقاً جميلة جداً ، وشعر بألم فى قلبه ؛ لأن شيئاً ما حدث فى أثناء تناولهما العشاء .

والأمر فى بساطة شديدة هو أنه وقع فى حبها من جديد ، وهو يعرف ذلك الآن وهما يجلسان جنباً إلى جنب . لقد وقع فى حب آلى الجديدة ، ولم يعد أسير ذكراها فحسب .

ولكنه لم يتوقف فى يوم من الأيام عن حبها ؛ فهو يدرك أنها قدره المحتوم .

وقال بصوت رقيق : " يا لها من ليلة " .

فقالت : " هى كذلك حقاً ، إنها ليلة مدهشة " .

واتجه نوا ببصره إلى النجوم ، وذكرته أضواؤها المتلألئة باقتراب موعد مغادرتها ، وشعر بفراغ يملأ صدره ؛ فهذه ليلة لم يكن يريد لها أن تنتهى ، فكيف يمكنه أن يخبرها بذلك ، وما الشىء الذى إن قاله سيجعلها تظل معه ؟

لم يكن يعرف ما يقول ، ولذلك اتخذ قراره بالصمت ، وشعر عندئذ بفشلة !

كانت الكراسى تتحرك بإيقاع هادئ منتظم ، والخفافيش تحلق فوق النهر ، وكانت الفراشات تطير صوب أضواء الردهة ، وعرف بداخله أن فى مكان ما ، فى نفس تلك اللحظة ، قد يكون هناك حبيبان يتبادلان مشاعر الود الحب .

وقالت له أخيراً بصوت مثير ـ أو خيل إليه أن عقله يصور له ذلك ـ : " هيا تحدث إلى " .

فقال لها : " ماذا يمكننى أن أقول ؟ " .

قالت : " تحدث إلىَّ كما كنت تفعل عندما كنا نجلس تحت شجرة البلوط " .

فأخذ يعيد على مسامعها مقتطفات متنوعة من الذاكرة ، زادت من دفء هذه الليلة ، من شعر وايتمان

وتوماس لأنه يحب صورهما البلاغية ، وصفحات أخرى من شعر تينيسون ، وبراوننج لأنه يشعر بأن موضوعاتهما مألوفة بالنسبة له .

أسندت رأسها على ظهر الكرسى الهزاز ، وأغمضت عينيها ، وشعرت بالدفء يسرى فى أوصالها فى الوقت الذى انتهى فيه من القراءة . لم يكن ذلك بسبب تأثير القصائد وحدها ولا تأثير صوته وحده ، بل السببين معاً ؛ فالكل أكبر من مجموع الأجزاء دائماً . ولم تحاول الخروج من هذا التأثير ، ولم ترد ذلك ؛ لأن الشعر ينبغى أن يُستَمَع إليه بهذه الطريقة . وكانت تعتقد بأن الشعر لم يكتب من أجل تحليله ودراسته ، بل من أجل أن يبعث الإلهام فى النفوس دون سببٍ واضح ، وأن يلمس الوجدان دون فهم واع .

وبسببه كانت تذهب لحضور بعض ندوات الشعر التى كان قسم اللغة الإنجليزية يشرف عليها خلال وجودها بالجامعة ، وكانت تجلس للاستماع إلى أشخاص يلقون بقصائد مختلفة ، ولكنها سرعان ما توقفت عن الذهاب ؛ لأنها أحست بأنها لم تجد من يلهمها ، أو من يبدو مُلمًا بالشعر مثلما هو الحال مع محبى الشعر الحقيقيين .

استمرا يتأرجحان لفترة قصيرة من الزمن وهما يشربان الشاى ، ثم جلسا فى هدوء ، وانساق كل منهما وراء أفكاره ، وأحست بأن الشىء الذى ساقها إلى هذا المكان قد تركها الآن ـ وكانت سعيدة بذلك ـ ولكن ساورها القلق من مشاعر أخرى بدأت تحل محله ، مشاعر بدأت تثور وتطفو وتخرج من مكانها كذرات الذهب الراقدة فى أعماق الأنهار والتى يثيرها التيار ويجعلها تطفو إلى صفحة الماء . حاولت فى البداية أن تتجاهلها ، أى أن تختبئ منها ، ولكنها أدركت الآن أنها لا تريد التوقف عنها ؛ فقد مرت عليها سنوات طويلة لم تشعر فيها بمثل هذه المشاعر .

لم يستطع لون أن يحرك هذه المشاعر بداخلها ، فهو لم يستطع ولن يستطيع فعل ذلك ، وكانت تتساءل أحياناً كيف سيكون شعوره إذا ما عرف شيئاً عن نوا .

ولكنَّ هناك شيئاً آخر جعلها ترغب فى الانتظار ، وهو أمر يرجع إلى لون نفسه ؛ فهو منساق فى عمله الذى يسيطر على معظم انتباهه ، فالعمل بالنسبة له يأتى أولاً ، فليس هناك وقت للشعر والأمسيات الضائعة فى الاسترخاء والجلوس على الكراسى الهزازة ، وكانت تعلم أن ذلك هو سبب نجاحه ، وهى تحترم فيه ذلك . ولكنها تشعر أيضاً بأن ذلك لا يكفى ؛ فقد كانت تريد

شيئاً آخر ، إنه شيء مختلف . ربما يكون العواطف والأحاسيس ، أو ربما يكون أحاديث هادئة فى غرف مضاءة بالشموع ، شيئاً أكثر بساطة من ذلك ، وهو شعورها بأنها لا تأتى فى المرتبة الثانية فى حياته .

ونوا ، كذلك كان منساقاً وراء أفكاره ، فهو سوف يذكر هذه الأمسية كواحدة من أفضل الأوقات الخاصة التى قضاها ، وأخذ يتذكرها بكل تفاصيلها وهو يتأرجح مرات عديدة ، فكل شيء كانت تقوم به يبدو مثيراً له .

والآن ، وهو يجلس إلى جوارها ، كان يسأل نفسه ما إذا كانت تحلم بالأشياء التى كان يحلم بها فى سنوات فراقهما . هل كانت تحلم بجلساتهما وأحاديثهما تحت ضوء القمر الخافت .

أخذ ينظر إلى النجوم ويتذكر آلاف الليالى التى قضاها وحيداً منذ آخر مرة رآها ، فقد استدعت رؤيتها كل هذه المشاعر من جديد ، وأصبح من المستحيل إخفاؤها ، وعرف عندئذ أنه وقع فى حبها من جديد وأنها تبادله هى الأخرى نفس المشاعر ، فكان ذلك أكثر شيء يريده فى هذه الدنيا .

ولكنه أدرك أن ذلك مستحيل أن يحدث ، وهى الآن مخطوبة لشخص آخر .

وعرفت آلى من صمته أنه يفكر فيها ، فأحست بالسعادة . لم تكن تعرف ما هى أفكاره على وجه التحديد ؛ فهى لا تبالى بما تكون ، ولكن المهم أنها عنها ، فهذا يكفيها .

وتذكرت محادثتهما أثناء تناول العشاء وتساءلت عن وحدته . فلسبب ما لا يمكنها أن تتخيله يقرأ الشعر لامراة أخرى غيرها ، أو يشارك أحلامه معها غيرها . إنها لم ترد تصديق حدوث شيء كهذا .

وضعت فنجان الشاى على الطاولة ، ثم أخذت تمرر يدها خلال خصلات شعرها ، وهى تغمض عينيها .

فسألها أخيراً بعد أن تحرر من أفكاره : " هل أنت متعبة ؟ " .

فأجابته : " قليلاً . علىَّ أن أذهب فى دقائق معدودة " .

فهز رأسه وقال بنبرة صوت محايدة : " أعرف ذلك " .

لم تنهض من مكانها على الفور ، ولكنها أمسكت بفنجان الشاى من جديد وشربت آخر رشفة منه ، وهى تشعر بالدفء فى حلقها ، فقد قضت معظم المساء هنا . والقمر يرتقى مكانه عالياً فى السماء ، والرياح تعبث بالأشجار وقد انخفضت درجة الحرارة .

نظرت إلى نوا وهو يجلس إلى جوارها ورأت الندبة الموجودة فى وجهه واضحة من الجانب . وتساءلت ما إذا كان أصيب بها فى أثناء الحرب ، ثم تساءلت إذا ما كان أصيب فى الحرب أم لا ؟ فهو لم يذكر شيئاً عن ذلك ، وهى لم تسأله ؛ لأنها لا تريد أن تتخيل تعرضه لأى أذى .

وقالت أخيراً وهى تناوله الغطاء : " علىَّ أن أذهب " .

فهز نوا رأسه ونهض من مكانه دون أن ينطق بكلمة وحمل الغطاء ، وسارا إلى سيارتها وهما يستمعان لأصوات أوراق الأشجار الساقطة وهى تسحق تحت أقدامهما ، وبدأت فى خلع القميص الذى أعطاه لها وهو يفتح لها الباب ، ولكنه أوقفها .

وقال : " كلا أريدك أن تحتفظى به " .

فلم تسأله لماذا ؛ لأنها أرادت أن تحتفظ به كذلك . فارتدته من جديد وعقدت ذراعيها لتشعر بالدفء .

قال : " لقد قضيت ليلة رائعة ، شكراً لقدومك " .

فقالت : " وأنا كذلك " .

فاستجمع شجاعته وسألها : " هل يمكننى أن أراك غداً " .

سؤال بسيط ، كانت تعلم كيف تكون الإجابة عليه ، على الأخص إذا كانت تريد أن تحتفظ بحياة هادئة . فكان عليها أن تجيبه بقولها : " لا أعتقد ذلك " ، وسوف ينتهى كل شىء عند ذلك ، ولكنها لم تقل شيئاً للحظة .

ووجدت نفسها فى مواجهة مع شيطان الاختيار ، الذى وضعها فى تحد صعب ليضايقها . لماذا لم تتمكن من قول ذلك ؟ لم تعرف . ولكنها عندما نظرت فى عينيه لتجد الإجابة التى تحتاج إليها ، رأت الرجل الذى أحبته فى يوم من الأيام ، وجاءتها الإجابة واضحة على الفور .

فقالت : " أود ذلك " .

اندهش نوا مما حدث ؛ فهو لم يتوقع منها أن تجيبه هكذا ، فقال لها :

" هل يمكنك أن تأتى إلى هنا قبل الظهر ؟ " .

فقالت : " بكل تأكيد ، ما الذى تريد فعله ؟ " .

فأجابها : " سوف ترين ، أنا أعرف المكان الذى سنذهب إليه " .

قالت : " هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟ " .

قال : " لا ، ولكنه مكان متميز جداً " .

فقالت : " أين هو ؟ " .

قال : " إنها مفاجأة ؟ " .

قالت : " هل سيعجبنى ؟ " .

قال : " بل ستفتنين به " .

وتحولت عنه ، وهى تتنفس الصعداء ، فأغلق لها باب السيارة ، وبدأت فى تشغيل المحرك . وعندما تحركت السيارة ببطء ، فتحت زجاج النافذة قليلاً .

وقالت وضوء القمر ينعكس فى عينيها : " أراك فى الغد " .

ولوّح لها نوا بيده وهى تسير بسيارتها إلى الخلف ، وأدارتها ، ثم اتجهت بها إلى الممر المتجه إلى المدينة . وأخذ يراقب السيارة إلى أن توارت أضواؤها خلف أشجار البلوط البعيدة ، وغاب صوت محركها ، وسارت نحوه كليم فجلس القرفصاء ليربتها ، وهو يولى اهتماماً خاصاً برقبتها ، والتى لم تعد تقدر على حكها ، وبعدما نظر إلى الطريق لمرة أخيرة ، عاد معها إلى الردهة الخلفية من جديد .

وجلس على كرسيه الهزاز من جديد ، ولكنه وحيد فى هذه المرة ، وهو يحاول أن يجد تفسيراً لما حدث فى هذه الليلة ، وجلس يفكر فيها ، ويتذكرها ، ويتأملها من جديد ، ويفكر فى كل الأحاديث التى دارت فيها ، ويعيدها بحركة بطيئة ، ولم يرغب فى القفز على

جيتاره الآن ، ولا فى القراءة ، ولكن فى معرفة حقيقة مشاعره .

وهمس أخيراً لنفسه : " إنها مخطوبة الآن " ، وظل صامتاً لساعات طويلة ، لم يسمع فيها سوى صوت كرسيه الهزاز ، وساد السكون ، إلا من بعض النشاط الذى كانت تقوم به كليم ، التى كانت تزوره من وقت لآخر كأنما أرادت أن تطمئن عليه .

وفى وقت ما بعد منتصف الليل فى هذه الليلة الصافية من شهر أكتوبر ، تزاحمت كل المشاعر بداخله وشعر نوا بأن الحنين قد غلبه ، ولو رآه أحد لظن أنه رجل عجوز ، رجل وصل إلى سن الشيخوخة فى ساعتين من الزمن ، فقد جلس محنى الظهر على كرسيه وأخفى وجهه بيديه ، وعيناه تذرفان بالدمع .

فلم يكن يعرف كيف يوقفهما !

مكالمات هاتفية

وضع " لون " سماعة الهاتف .

فقد اتصل فى الساعة السابعة ، ثم فى الثامنة والنصف ، والآن ينظر إلى ساعته من جديد ، وهى الآن التاسعة وخمس وأربعون دقيقة !

أين ذهبت ؟

فهو يعلم أنها موجودة فى المكان الذى قالت إنها ذاهبة إليه ؛ لأنه قد تحدث إلى مدير الفندق فى وقت مبكر ، فهى قد وصلت إلى الفندق وأكدت حجزها ، ورآها المدير فى حوالى الساعة السادسة ، وظن أنها ذهبت لتناول العشاء ، ولكنه لم يرها منذ ذلك الوقت !

هزَّ لون رأسه وأسند ظهره إلى الكرسى ، وكان آخر شخص موجود فى المكتب كعادته ، وكان الهدوء يخيم على المكان ، ولكن هذا شىء عادى مادامت هناك جلسة محكمة منعقدة ، وحتى لو كانت المحاكمة تسير على أفضل حال ، لقد كان مولعًا بالقانون ، وهذه

الساعات المتأخرة تعطيه فرصة سانحة لمواصلة عمله دون إزعاج .

وهو يعلم أنه سيكسب القضية لأنه بارع فى المحاماة وسحر ألباب هيئة المحكمين ، فغالباً ما كان يفعل ذلك ؛ فالقضايا الخاسرة شىء نادر الحدوث ، ويرجع ذلك إلى أنه يستطيع اختيار القضايا التى تدرب على كسبها ، وقد وصل إلى هذا المستوى بكثرة الممارسة ، فعدد قليل من الأشخاص فى المدينة هم الذين يتمتعون بهذا الوضع الاجتماعى الذى يعكسه حجم مكاسبه المادية .

ولكن أهم سبب فى نجاحه يرجع إلى اجتهاده فى العمل ؛ فهو غالباً ما يولى اهتماماً خاصاً بالتفاصيل ، خصوصاً عندما بدأ ممارسته العملية ، فالاهتمام بالأشياء الصغيرة والغامضة أصبح عادة لديه الآن . سواء كان الأمر يتعلق بالقانون أو المرافعات ، فهو يجتهد فى الدراسة ؛ مما جعله يكسب عددًا لا بأس به من القضايا التى كان يمكن أن يخسرها فى وقت مبكر من عمله .

أما الآن ، فهناك شىء صغير يشغل تفكيره . شىء لا يتعلق بالقضية ؛ فالقضية تسير على ما يرام ، ولكنَّ هناك شيئاً آخر .

شيئاً خاصًّا بآلى !

ولكن ما هو ، فهو لا يستطيع أن يضع يده عليه . لقد كان فى أحسن حال عندما غادرت هذا الصباح . على الأقل كان يظن ذلك ، ولكن فى وقت ما ، ربما يكون بعد اتصاله بها بساعة أو أكثر ، طرق شىء عقله . هذا الشىء الصغير .

شىء صغير .

شىء غير مهم ؟ شىء مهم ؟

شغل عقلك ... شغله ... اللعنة ، ما هو هذا الشىء ؟

وواصل هذا الشىء طرق عقله .

شىء ما .. شىء ما ... شىء ما قيل لى ؟

أجل هو شىء ما قد قيل لى ، هو يعرفه ! ولكن ماذا عساه أن يكون ؟ هل قالت له آلى شيئاً فى الهاتف ؟ لقد كان ذلك فى بداية المحادثة ، وأخذ يتذكر تفاصيلها . لا يوجد فيها شىء غير عادى بالمرة .

ولكنه ذلك الشىء ؛ فهو متأكد من ذلك الآن .

ما الذى قالته ؟

قالت إن رحلتها جميلة ، وقد وصلت إلى الفندق ، وقامت ببعض المشتريات ، وتركت رقم هاتفها . كان ذلك كل شىء .

وبدأ يفكر فيها عندئذ ، فهو يحبها ، وواثق من ذلك . ليس فقط لأنها جميلة وساحرة ، ولكن لأنها أصبحت مصدر استقرار له ، وأفضل صديق لديه ، فبعد انقضاء يوم شاق فى العمل ، كانت هى أول شخص يتصل به ، وكانت تستمع إليه ، وتضحك فى اللحظات المناسبة ، ولديها حاسة سادسة فيما يتعلق بما يريد سماعه منها .

ولكن الأهم من ذلك ، أنه معجب بالطريقة التى تعبر بها عن نفسها ، ويذكر أنه بعد خروجهما معاً عدة مرات ، قال لها مثلما يقول لمعظم الفتيات اللاتى واعدهن .. بأنه غير مستعد لإقامة علاقة مستقرة ، وعلى عكس ما صدر من الأخريات ، أومأت آلى برأسها وقالت : " حسناً " ، ولكن بطريقتها المميزة وهى فى طريقها إلى الخارج والتفتت إليه ثم قالت : " ولكن مشكلتك لا تنحصر فىَّ ، أو فى وظيفتك ، أو فى حريتك ، أو فى أى شىء آخر تظنه . إن مشكلتك فى وحدتك ؛ فوالدك صنع اسم عائلة هاموند وجعله ذائع الصيت ، والناس حتماً تقارنك به طوال حياتك ، فأنت لم تكن فى يوم من الأيام نفسك ، فحياة مثل حياتك جعلتك تشعر بفراغ فى داخلك ، وأنت تبحث عن

الشخص الذى يأتى فى غمضة عين ليملأ هذا الفراغ ، ولكن لن يستطيع أحد فعل ذلك سوى أنت " .

لقد ظلت هذه الكلمات تتردد معه طوال الليل فى ذلك اليوم وحتى صباح اليوم التالى ، فاتصل بها مرة أخرى ، ليطلب منها أن تمنحه فرصة ثانية ، وبعد بعض المقاومة والرفض ، قبلت عرضه بعد تردد .

ففى السنوات الأربع التى عرفته فيها ، ملأت عليه حياته حتى أصبحت كل شىء يريده فيها ، وكان يعرف أن عليه أن يفرغ نفسه لقضاء وقت أطول معها . ولكن العمل القانونى جعل تحديد عدد ساعاته أمرًا مستحيلاً ، ولكن آلى كانت دائماً متفهمة للأمر ، ولكنه لا يزال يؤنب نفسه لأنه لم يستطع توفير الوقت ، وتعهد أمام نفسه بأنه ما إن يتزوج فسوف يقلل من ساعات عمله ، وسيطلب من سكرتيرته مراجعة جدول مواعيده حتى يتأكد من أنه لا يرهق نفسه فى العمل أكثر مما ينبغى ...

مراجعة ...

طرق عقله خاطر جديد .

مراجعة ... مراجعة ... مراجعة الحجز ؟

نظر إلى سقف الغرفة .. وقال مراجعة الحجز ؟

نعم ، هو كذلك ، وأغمض عينيه وأخذ يفكر لدقيقة .

لا ، لا يعنى شيئاً ، إذن فما هو هذا الشيء ؟

هيا لا تفلت منى الآن . فكر فكر ، اللعنة .

نيو بيرن .

وعند ذلك طرق عقله هذا الاسم . نعم إنه نيو بيرن . هذا كل ما فى الأمر ، وهذا هو الشيء الصغير ، أو جزء منه ، ولكن ماذا وراءه ؟

وأخذ يفكر من جديد فى نيو بيرن ، فهو يعرف ذلك الاسم . يعرف هذه المدينة الصغيرة فى الأساس بسبب بعض المحاكمات القليلة التى حضرها هناك . وتوقف فى بعض المرات القليلة فى الطريق المؤدى إلى الساحل ؛ فلم يكن هناك شيء مميز فى كل ذلك ، فلم يذهب هو وآلى إلى هناك من قبل .

ولكن آلى ذهبت إلى هناك ...

وبدأت الأمور تتضح أمامه ، وهو يتذكر تفاصيل أخرى كثيرة .

أحد التفاصيل الأخرى ... ولكن لا يزال هناك المزيد ... .

آلى ، ونيو بيرن ... و ... وشيء ما فى حفلة . تعليق سمعه بشكل عارض على لسان والدة آلى ، ولم يلتفت إليه ، ولكن ما الذى قالته ؟

وعند ذلك ، شحب وجه لون وهو يتذكر ما سمعه منذ زمن طويل ، وهو ما قالته والدة آلى .

إن هذا الشيء يخص علاقة عاطفية جمعت فى يوم من الأيام بين آلى وشاب يعيش فى نيو بيرن ، ووصفته بأنه حب صبيانى ، ولكنه لم يهتم عندما سمع ذلك وقتها ، ونظر ساعتها إلى آلى وابتسم لها .

ولكنها لم تبادله الابتسامة ؛ فقد كانت غاضبة . وعند ذلك ظن لون أنها كانت تحب ذلك الشخص بصورة أكبر مما قالت والدتها ، وربما أكثر بكثير من حبها له .

وهى الآن فى ذلك المكان ، أليس ذلك شيئاً يثير الاهتمام ؟

فضم لون كفيه معاً ، كما لو كان يدعو ، ووضعهما أسفل شفتيه ، وقال : " ربما تكون صدفة ، ولا شيء فى ذلك على الإطلاق ، ويمكن أن يكون كل ما قالته صحيحًا ! ومن الممكن ، بل من المرجح أن يكون السبب هو التوتر والرغبة فى شراء بعض التحف .

ولكن ... ولكن ... ماذا لو ؟ " .

أخذ لون يفكر فى الاحتمال الآخر ، ولأول مرة منذ فترة طويلة ، شعر بالفزع .

ماذا لو ؟ ماذا لو كانت معه ؟

وأخذ يلعن المحاكمة ، ويتمنى لو أنها انتهت ، ويتمنى لو سافر معها ، ويُسائل نفسه ما إذا كانت قد قالت له الحقيقة ، ويأمل أنها فعلت ذلك .

وعندئذ عزم على ألا يتركها تضيع من بين يديه ، وسوف يبذل قصارى جهده حتى تظل معه ؛ فهى تعنى بالنسبة له كل ما يحتاج إليها ، ولن يجد مَنْ تعوضه عنها .

ولهذا السبب قام من جديد - ويداه ترتعشان - بالاتصال بها للمرة الرابعة والأخيرة فى هذه الليلة .

ومرة أخرى لم يجد رداً على مكالمته !

زوارق وأحلام ضائعة

استيقظت آلى مبكراً فى صباح اليوم التالى ، وساعدها على ذلك أصوات شقشقة عصافير الزرزور التى لا تنقطع ، وبعدما حكّت عينيها شعرت بتيبس فى جسدها ؛ فهى لم تنم بشكل جيد ، وكانت تستيقظ بعد كل حلم تراه ، وتذكرت أنها كانت تشاهد عقارب الساعة فى أوضاع مختلفة خلال الليل ، كأنما تحاول أن تثبت لها مرور الوقت .

وكانت تنام وهى مرتدية القميص ذا الملمس الناعم الذى أهداه لها نوا ، وأخذت تشم رائحته مرة أخرى وهى تفكر فى الليلة التى قضتها بصحبته ، وضحكهما وحواراتهما المسترسلة ، وتذكرت على الأخص الطريقة التى تحدث بها عن لوحاتها ، ومع أنه لم يكن شيئاً متوقعًا إلا أنه رفع من معنوياتها ، وكلما تردد صدى كلماته فى عقلها ، أدركت أنها كانت ستخسر الكثير إذا ما اتخذت القرار بعدم رؤيته من جديد .

نظرت إلى خارج النافذة ، ورأت الطيور وهى تخرج فى الصباح الباكر للبحث عن الطعام ، وكانت تعلم بأن نوا يحب الاستيقاظ مبكراً ليستقبل الفجر بطريقته الخاصة ، وكانت تعلم أنه يحب الذهاب للتجديف فى زورق الكياك أو الكانو ، وتذكرت الصباح الذى قضته معه فى زورق الكانو ، وهما يشاهدان الشمس وهى تشرق ، وكانت تحب أن تتسلل من النافذة لأن والديها لم يكونا يسمحان لها بذلك ، ولم يضبطها أحد عندئذ ، وعند ذلك رأت لأول مرة فى حياتها الشمس وهى تشرق .

وعندما نهضت من سريرها لتغتسل ، أحست ببرودة الأرض من تحت قدميها ، وتساءلت ما إذا كان نوا يقضى هذا الصباح أمام الغدير ليشاهد بداية يوم جديد ؟ وأحست بأنه يفعل ذلك حتماً .

وكانت محقة فى ذلك .

فقد استيقظ نوا قبل شروق الشمس ، وارتدى ملابسه بسرعة : البنطال الجينز الذى كان يرتديه فى الليلة السابقة ، وقميصًا نظيفًا آخر ، ومعطفًا أزرق ، وحذاءً ، ونظف أسنانه قبل أن ينزل من الطابق العلوى ، وشرب كوبًا من اللبن ، وتناول قطعتين من البسكويت وهو فى

طريقه إلى خارج الباب ، وبعدما حيته كليم بلسانها ، سار فى طريقه إلى الرصيف الصغير ؛ حيث يخزن زورقه ؛ فهو يحب أن يسمح للنهر أن يقوم بمفعوله الساحر فى تليين عضلاته ، وتدفئة جسده ، وإراحة عقله .

وكان الزورق القديم ـ الذى خضبته مياه النهر ـ فى حالة جيدة ، ومعلقًا فى خطافين يعلوهما الصدأ مثبتين فى الرصيف الصغير فوق سطح الماء مباشرة حتى لا تعلق به القشريات . رفعه نوا بعيدًا عن الخطافين ، ووضعه عند قدميه ، وفحصه سريعاً ، ثم أخذه إلى الضفة ، وبحركتين ماهرتين اكتسبهما بحكم التعود ، استطاع أن يضعه فى المياه ليسير به فى أعلى الغدير ، ويقوم بدور الربان والمحرك فى نفس الوقت .

كان الهواء بارداً ومنعشاً على بشرته ، وكانت السماء تختفى وراء سديم من ألوان مختلفة ، فكان اللون الأسود يعلو رأسه مباشرة مثل قمة الجبل ، ثم تليه درجات لا نهائية من اللون الأزرق ، التى تخف تدريجياً حتى تقابل الأفق ؛ حيث يحل محلها اللون الرمادى . أخذ نوا بضعة أنفاس عميقة ، وهو يشم رائحة أشجار الصنوبر ، ورائحة المياه المالحة ، وبدأ فى التأمل ؛ فقد كان هذا بعضًا مما افتقده كثيراً عندما

سافر إلى أقصى الشمال ، وبسبب الساعات الطويلة التى كان يقضيها فى العمل ، لم يكن لديه الوقت الكافى ليقضيه فى وسط المياه ، فقد مضى عليه زمن طويل انقطع فيه عن الذهاب فى رحلات خلوية ، والسير لمسافات طويلة ، والتجديف فى النهر ، أو مواعدة الأصدقاء ، والعمل اليدوى ، وفى معظم الأوقات كان يذهب للتنزه واستكشاف الريف فى نيوجيرسى سيراً على الأقدام كلما تيسر متسع من الوقت ، ولكنه لم يذهب فى رحلة بزورقى الكانو ، أو الكياك ولو لمرة واحدة منذ أربعة عشر عاماً ، وكانت هذه أول الأشياء التى فعلها عندما عاد إلى مدينته .

وكان يقول لنفسه إن هناك شيئاً مميزاً وغامضًا بعض الشىء فى الاستمتاع ببزوغ الفجر فى وسط المياه ، وهو يقوم بذلك فى كل يوم تقريباً سواء كان الطقس مشمسًا وصافيًا أم قارس البرودة ، فلا شىء يهم مادام أنه يجدف فى المياه بإيقاع منتظم يساير الموسيقى التى يعزف بها عقله ، وهو يسير فوق المياه الفضية اللون . رأى عائلة من ترسة الماء وهى تستريح فوق جذع شجرة مغمور بعض الشىء فى المياه ، ورأى طائر مالك الحزين وهو يستعد للطيران ، ويسير بسرعة مذهلة فوق سطح

المياه قبل أن يختفى فى ضوء الشفق الفضى الذى يسبق شروق الشمس .

وأخذ يجدف حتى وصل إلى منتصف الغدير ؛ حيث شاهد الوهج البرتقالى للشمس وهو يمتد ليخترق المياه ، وتوقف عن التجديف بقوة ، وظل يجدف بجهد منخفض ليظل واقفاً فى مكان ؛ ليشاهد الضوء وهو يخترق أغصان الأشجار ، فهو يحب التوقف لمشاهدة لحظات شروق الشمس ، فهناك لحظة يكون فيها المنظر بديعاً ، وهى التى يبدو فيها الكون وكأنه يولد من جديد ، وبعد ذلك بدأ يجدف بنشاط مرة أخرى ليتخلص من شد عضلاته ؛ وليستعد لليوم الجديد .

وفى أثناء قيامه بذلك بدأت التساؤلات تتراقص أمام عقله مثل قطرات المياه فى مقلاة ساخنة ، وأخذ يُسائل نفسه عن لون ، وأى صنف من الرجال هو ؟ وعن علاقتهما ، وأهم من ذلك كله عن آلى ، وعن السبب وراء قدومها إلى هنا ؟!

ومع مرور الوقت ووصوله إلى المنزل أحس بالحيوية والنشاط يسريان فيه من جديد ونظر إلى ساعته ، وتعجب من أن رحلته استغرقت ساعتين ، فالوقت غالباً ما يخادعه .

علق نوا زورق الكياك ليجف ، واستلقى على ظهره لدقيقتين ، ثم ذهب إلى السقيفة حيث يحتفظ بزورق الكانو ، وحمله إلى الضفة ، وتركه على بعد عدة أقدام من المياه ، وفى أثناء توجهه للمنزل ، لاحظ أن عضلات قدميه لا تزال مشدودة قليلاً .

كان غيام الصباح لم يتبدد بعد ، وكان نوا يعلم أن الشد فى قدميه علامة تنذر عادة بسقوط الأمطار ! فنظر إلى السماء ناحية الغرب ورأى سحابًا ينذر بعاصفة ممطرة ؛ فقد كان سميكاً ومثقلاً بالأمطار ، لكنه مع بعده وشيك القدوم بكل تأكيد . لم تكن الرياح تهب بحدة حتى الآن ، ولكنها ستأتى بالسحب حتماً إلى هنا ، وعندما رآها لم يشعر بالرغبة فى أن يكون خارج المنزل . اللعنة ! كم من الوقت يبقى أمامه ؟ ساعات قليلة لا أكثر ولا أقل من ذلك .

فأخذ حماماً ، وارتدى بنطالاً آخر من الجينز ، وقميصًا أحمر ، وحذاء رعاة البقر الأسود ، ومشّط شعره ، ونزل من الطابق العلوى إلى المطبخ ، ونظّف الصحون المتبقية من الليلة السابقة ، ورتب بعض الأشياء داخل المنزل ، وأعد لنفسه فنجانًا من القهوة ، وذهب إلى الردهة ، وكانت السماء مظلمة ، ونظر إلى جهاز قياس الضغط الجوى ، فوجده مستقرًا ، ولكن

السماء توشك أن تمطر ؛ فالسماء من ناحية الغرب تنذر بذلك .

وقد تعلم منذ زمن بعيد ألا يسىء تقدير حالة الطقس ، وتساءل ما إذا كانت فكرة الخروج من المنزل جيدة أم لا ؛ فهو يمكنه التعامل مع المطر ، ولكن البرق شىء مختلف بالمرة ، وخصوصاً إذا ما كان موجوداً وسط المياه ، فزورق الكانو ليس مكاناً آمناً للاختباء عندما يضرب البرق فى الهواء الرطب .

وعندما انتهى من شرب قهوته ، أرجأ هذا القرار إلى وقت آخر ، وذهب إلى مخزن الأدوات والعدد ، وبحث عن فأسه ، وبعدما فحص نصله بضغط إصبع إبهامه عليه ، قام بشحذه بحجر المسن حتى أصبح جاهزاً . وتذكر مقولة طالما سمعها من والده وهى " الفأس الكليل أشد خطورة من الفأس الحاد " .

وقضى الدقائق العشرين التالية فى قطع وتكديس القطع الخشبية . كان يقوم بذلك بمنتهى السهولة ؛ فقد كانت ضرباته قوية ولم يبلل جبينه العرق ، ووضع بعض القطع الخشبية فى جانب ، وعندما انتهى أدخلها إلى المنزل ووضعها بجانب المدفأة .

ثم نظر إلى لوحة آلى مرة أخرى ومد يده ليلمسها ، فعاد إليه الإحساس بعدم تصديق رؤيتها من جديد .

وتعجب وتساءل عن السر وراء انجذابه لها ، حتى بعد مرور كل هذه السنوات ؛ وما هو سر القوة التى تملكها وتؤثر فيه ؟

وأخيراً التفت بعيداً ، وهزَّ رأسه ، وعاد إلى الردهة ونظر مجدداً إلى جهاز قياس الضغط الجوى ، ووجده لم يتغير ، ثم نظر إلى ساعته .

يجب أن تأتى آلى سريعاً !

انتهت آلى من حمامها وارتداء ملابسها ، وقبل ذلك كانت قد فتحت النافذة لتتأكد من درجة الحرارة . لم يكن الجو باردًا فى الخارج ، وقررت ارتداء ثوب ربيعى فاتح اللون له أكمام طويلة ورقبة عالية ، فهو ناعم ومريح ، ومع ذلك فهو يبدو جميلاً ، وقد اختارت صندلاً أبيض يلائمه .

قضت آلى الصباح فى التجول فى وسط البلد ، وقد لاحظت التأثير السيئ للكساد الاقتصادى ، ومع ذلك فهى لا تزال ترى بعض مظاهر الرخاء بادية فى الظهور ، فالمسرح الكبير ـ وهو أقدم مسرح نشط فى المدينة ـ قد خفض من أنشطته ، ولكنه لا يزال يعرض روايتين حديثتين ، أما منتزه فورت توتين فلم تتغير صورته التى كان عليها منذ أربعة عشر عاماً ، وقد

اعتقدت أن الأطفال الذين يتأرجحون هناك بعد انتهائهم من اليوم الدراسى هم هؤلاء الذين كانت تراهم من قبل ، وابتسمت عندما تذكرتهم ، وعادت بأفكارها إلى الأشياء التى كانت بسيطة فى الماضى ، أو على الأقل كانت تبدو لها كذلك .

والآن ، لم يعد يبدو لها أن هناك شيئاً بسيطًا ، فمن المحال أن يوضع كل شىء فى نصابه الصحيح مثلما كان يحدث فى الماضى ، وتساءلت عن الأشياء التى كانت ستفعلها الآن ، إذا لم تقع عيناها على ذلك المقال فى الجريدة ، لم يكن ذلك مما يصعب تخيله ؛ لأن روتين حياتها اليومى نادراً ما يتغير ، فاليوم هو الأربعاء ، وهو يعنى الذهاب للعب البريدج فى نادى المدينة ، ثم الذهاب إلى رابطة النساء الشابات ؛ حيث سيعملن حتماً على التنظيم لفتح باب التبرع لإنشاء مدرسة أو مستشفى خاص ، وبعد ذلك ، تذهب فى زيارة مع والدتها ، ثم العودة إلى المنزل للاستعداد لتناول العشاء مع لون ؛ لأنه لم يكن يغادر المكتب قبل الساعة السابعة مساءً ، وكانت تلك هى الليلة الوحيدة فى الأسبوع التى تراه فيها بشكل منتظم .

وكتمت بداخلها شعورها بالحزن إزاء ذلك ، أملاً فى أن يتغير فى يوم من الأيام ؛ فقد وعدها كثيراً بذلك ،

والتزم بوعده لبضعة أسابيع قبل أن ينساق من جديد وراء جدوله السابق ، ودائماً ما كان يقول لها معللاً ذلك : " لا أستطيع الليلة يا عزيزتى ، أنا آسف لذلك ! دعينى أعوضك عن ذلك لاحقاً " .

لم تكن تحب أن تجادله كثيراً فى ذلك ؛ وغالباً لأنها كانت تعلم أنه يقول الصدق ، فالعمل فى المحاماة يتطلب مجهوداً شاقاً ، سواء قبل المحاكمة أو خلالها ، ومع ذلك فهى لم تستطع التوقف أحياناً عن التساؤل ، لماذا كان يقضى كل ذلك الوقت فى التقرب إليها مادام أنه لم يكن ينوى قضاء الوقت معها الآن ؟

مرت من أمام قاعدة لعرض اللوحات ، وكادت ألا تلاحظها بسبب استغراقها فى التفكير ، ثم التفتت وعادت بظهرها إلى الوراء ، وتوقفت عند الباب لبرهة ، وهى تتعجب من مرور زمن طويل على آخر مرة ذهبت فيها لزيارة قاعة كهذه ، على الأقل ثلاث سنوات ، وربما أطول من ذلك ! فلماذا كانت تتجنب ذلك ؟

دخلت إلى القاعة ـ فقد تم افتتاحها مع باقى المتاجر الموجودة فى شارع فرونت ـ وأخذت تتطلع إلى اللوحات المعلقة . كان معظم الفنانين محليين ، فهناك ميل سائد لرسم البحر فى لوحاتهم ، والكثير من مشاهد المحيطات ، والشواطئ الرملية ، والبجع ، وقوارب

الإبحار القديمة ، والزوارق ، وأرصفة الموانئ ، وطيور النورس ، ولكن يغلب على معظمها الأمواج بمختلف أشكالها وأحجامها وألوانها التى يمكن تخيلها ، وبعد فترة يشعر المرء أنها جميعاً متشابهة ، واعتقدت آلى أن الفنانين إما إنهم لا يجدون ما يلهمهم ، أو يتكاسلون عن التجديد !

وعلى الرغم من ذلك فهناك على حائط واحد مجموعة من اللوحات راقت لها ، وجميعها ينتمى إلى فنان لم تسمع عنه من قبل اسمه إلاين ، وهى تبدو مستوحاة من فن العمارة لجزر اليونان ، ولاحظت فى اللوحة التى أعجبتها كثيراً ، أن الفنان حاول عن عمد المبالغة فى المشهد عن طريق رسم صور لأشكال تبدو أصغر من حجمها الطبيعى ، والاهتمام بالخطوط العريضة ، وبالحركات الثقيلة للألوان ، كما لو كانت لا تركز على شىء بعينه ، إلا أن الألوان كانت تتسم بالحيوية وتسير فى حركة دائرية لتجذب العين للنظر فى منتصفها ، وتقودها لما ينبغى أن تراه بعد ذلك ، فهى لوحة مفعمة بالحركة ومثيرة ، وكلما دققت فيها ، زاد إعجابها بها ، وفكرت فى اقتنائها قبل أن تدرك أن سبب ذلك يرجع إلى أنها تذكرها بلوحاتها ،

وتفحصتها عن قرب وقالت لنفسها ربما يكون نوا محقاً ، ربما يجب أن أبدأ الرسم من جديد .

غادرت آلى صالة العرض فى الساعة التاسعة والنصف وذهبت إلى متجر اسمه هوفمان ــ لين ، واستغرقت بضع دقائق حتى وجدت ما كانت تبحث عنه ، ولكنه كان موجودًا هناك ، عند القسم الخاص بالأدوات المدرسية ، فوجدت الأوراق ، والألوان ، والأقلام الرصاص ، التى لم تكن ذات جودة عالية ، ولكنها تفى بالغرض ؛ لأن ما ستقوم به ليس رسماً ، ولكنه مجرد بداية ، وشعرت بالفرح يغمرها عندما عادت إلى غرفتها وجلست على المقعد وبدأت العمل : لم يكن هناك شىء محدد فى ذهنها ؛ ولكن لتستعيد الإحساس به من جديد ، وتركت الأشكال والألوان تتدفق من ذكريات صباها ، وبعد دقائق قليلة من الرسم التجريدى ، وجدت نفسها ترسم لوحة أولية لمشهد الشارع ، كما تراه من غرفتها ، واندهشت من سهولة التعبير ، كما لو كانت لم تنقطع مطلقاً عن الرسم .

وعندما انتهت منه أخذت تفحصه وهى سعيدة ، بالجهد الذى بذلته ، وتساءلت ما الذى يمكنها أن ترسمه بعد ذلك ؟ إلى أن توصلت أخيراً إلى قرار ، ولأنها لم يكن لديها نموذج لتقلده ، فقد بدأت تتخيله

فى عقلها قبل أن تبدأ ، وعلى الرغم من أنه كان أصعب من مشهد الشارع ، إلا أنه تجسد أمامها بصورة طبيعية وبدأت تتضح ملامحه .

مرت الدقائق سريعاً ، وكانت تعمل دون توقف ، ولكنها كانت تراقب الوقت بين حين وآخر حتى لا تتأخر عن موعدها ، وانتهت من لوحاتها قبل الظهر بقليل ، واستغرق العمل منها ساعتين ، ولكن النتيجة النهائية أدهشتها كثيراً ، فهى تبدو كما لو كانت قد استغرقت فترة أطول من الوقت ، وبعدما طوت اللوحة وضعتها فى حقيبة وجمعت باقى أغراضها ، وفى طريقها إلى الباب ، تذكرت أن تنظر إلى نفسها فى المرآة ، وشعرت بإحساس غريب بالراحة لم تعرف له سببًا واضحًا .

وسمعت وهى تنزل على السلم وتخرج من الباب لتغادر الفندق صوت شخص يناديها :

" آنسة ؟ " .

فالتفتت إليه ، كان ذلك الشخص هو مدير الفندق ، وهو نفس الرجل الذى رأته بالأمس ، والآن كان ينظر لها بفضول .

وقالت له : " نعم ؟ " .

قال : " جاءتك عدة اتصالات هاتفية ليلة أمس " .

فقالت فى دهشة : " حقًا ؟! " .

قال ; " نعم ، وكلها من السيد هاموند " .

قالت : " يا إلهى ، هل اتصل بى لون ؟! " .

قال : " نعم يا سيدتى ، اتصل بك أربع مرات ، وتحدثت معه فى المكالمة الثانية ؛ فقد كان قلقًا عليك ، وقال إنه خطيبك " .

فابتسمت ابتسامة شاحبة ، وكانها تحاول ان تخفى ما تفكر فيه . أربع مرات ؟ ما معنى ذلك ؟ ماذا لو حدث شىء فى البيت ؟

وقالت : " هل قال شيئاً ؟ هل وقع حدث طارئ ؟ " .

فهز رأسه بسرعة وقال : " فى حقيقة الأمر إنه لم يقل شيئاً ، وهو يبدو قلقاً عليك " .

فطمأنت نفسها ، واعتبرت أن هذا شىء طيب ، وعند ذلك أحست بألم فى صدرها ، ولكن لماذا كل ذلك الإلحاح ؟ ما سبب كل هذه المكالمات ؟ ولماذا كل ذلك الإصرار من جانبه ، إنه أمر غريب عليه .

هل هناك سبيل جعله يكتشف الأمر ؟ كلا ... فهذا مستحيل ، إلا إذا رآها أحد بالأمس واتصل به ... ولكن إذا حدث ذلك كان سيتبعها إلى منزل نوا ، ولن يقوم أحد بذلك .

يجب عليها أن تتصل به الآن ؛ فلا مفر من المواجهة ، ولكن الغريب أنها لم ترد ذلك ؛ فهذا وقتها الخاص بها ، وكانت ترغب فى قضائه فيما تريد ، ولم تفكر فى الاتصال به إلا فى وقت لاحق ، ولسبب ما كانت تشعر بأن التحدث إليه فى هذا التوقيت سوف يفسد عليها يومها ، بالإضافة إلى أنها لا تعرف ما الذى ستقوله ! وكيف ستفسر له سبب تأخرها ، هل ستقول له إنها ذهبت لتناول العشاء فى وقت متأخر وذهبت للتمشية بعدها ؟ ربما ، أو ربما تقول له إنها ذهبت لدار العرض السينمائى لرؤية أحد الأفلام ؟ أم ...

فكرت وقالت لنفسها نحن الآن فى الظهيرة فأين سيكون ؟ من المحتمل أن يكون فى مكتبه ... وعندما أدركت فجأة أنه سيكون فى المحكمة ، وشعرت على الفور بأنها تحررت من كل القيود ، فلن يمكنها التحدث إليه حتى إن أرادت ذلك ، ولكنها كانت مندهشة من مشاعرها ! وكانت تعلم أنه لا ينبغى عليها أن تشعر بهذه المشاعر ، ومع ذلك فهى لم تتضايق منها ، ونظرت إلى ساعتها ، وهى تهم بالخروج .

وسألت المدير : " هل الساعة قاربت على الثانية عشرة ظهراً ؟ " .

أجابها المدير وهو يومئ برأسه بالإيجاب بعدما نظر إلى الساعة : " نعم ، الثانية عشرة إلا الربع " .

فقالت : " لسوء الحظ هو الآن فى المحكمة ، ولن يمكننى الاتصال به ، إذا اتصل مرة أخرى ، فهل يمكنك أن تخبره بأنى ذاهبة إلى التسوق وسأحاول الاتصال به فيما بعد ؟ " .

فأجابها : " بكل تأكيد " ، وهى تكاد أن ترى فى عينيه سؤالاً وهو : ولكن أين كنت ليلة أمس ؟ فهو يعرف تماماً الوقت الذى عادت فيه إلى هنا ؛ فهى متأكدة من أنها قد عادت فى وقت متأخر بالنسبة لامرأة وحيدة فى هذه المدينة الصغيرة .

ثم قالت له وهى تبتسم : " شكراً لك ، وأقدر لك اهتمامك " .

وفى أقل من دقيقتين كانت داخل سيارتها ؛ لتذهب إلى نوا ، وهى تتطلع إلى هذا اليوم ، ولم تشغلها كثيراً تلك الاتصالات الهاتفية ، وتساءلت عن معنى غياب إحساسها بالقلق الذى كانت تعانى منه بالأمس .

وفى أثناء ما كانت تقود سيارتها من فوق الجسر المتحرك الذى يبعد عن الفندق بمسافة لا تتجاوز أربع دقائق ، اتصل لون من المحكمة .

استيقاظ المشاعر

جلس نوا على الكرسى الهزاز وهو يشرب الشاى ، وينتظر سماع صوت السيارة ، وعندما سمع صوتها أخيراً وهى تسير فوق الممر ، سار إلى الأمام قليلاً وهو يشاهد السيارة وهى تقف تحت شجرة البلوط من جديد ، فى نفس الموضع الذى وقفت به فى الأمس . أما كليم فراحت تنبح أمام باب السيارة لتحييها ، وهى تهز ذيلها ، ورأى آلى وهى تلوح بيدها وهى لا تزال داخل السيارة .

خرجت آلى من السيارة وربتت رأس كليم التى راحت تعوى لها بصوت منخفض ، ثم التفتت لتبتسم إلى نوا وهو يسير نحوها ، وهى تبدو اليوم أكثر طمأنينة وثقة من الأمس ، وشعر نوا بالدهشة قليلاً عند رؤيتها من جديد ، فهى تختلف عما كانت عليه بالأمس ، ولكن اليوم تولدت لديه مشاعر جديدة ، ولم يعد هناك مكان للذكريات ؛ فقد زاد انجذابه إليها بين يوم

وليلة ، وأصبح أكبر قوة ؛ مما جعله يشعر ببعض التوتر فى وجودها .

قابلته آلى فى منتصف الطريق ، تحمل حقيبة صغيرة فى يدها ، وهى تبتسم ابتسامة رقيقة تنم عن سعادة غامرة وكأنها عادت طفلة بريئة .

سألته وفى عينيها بريق : " أين المفاجأة ؟ " .

شعر نوا بأن توتره قد زال عنه قليلاً ، فشكر الله على ذلك وقال : " لم أسمع منك حتى مساء الخير أو كيف كانت ليلتك ؟ " .

فابتسمت لأن الصبر لم يكن فى يوم من الأيام من أقوى طبائعها .

وقالت : " حسناً ، مساء الخير ، كيف كانت ليلتك ؟ وأين المفاجأة ؟ " .

فابتسم إليها ، وانتظر قليلاً ثم قال : " آلى ، لدىَّ خبر غير سار لك " .

فقالت : " ماذا ؟ " .

قال : " كنت أنوى اصطحابك إلى مكان ما ، ولكن مع وجود كل هذه السحب ، لست متأكداً من إمكانية ذلك " .

قالت : " لماذا ؟ " .

قال : " ستهب عاصفة ونحن بالخارج وستبللنا مياه الأمطار ، وربما يكون هناك برق " .

قالت : " لكنها لا تمطر الآن . كم تبعد المسافة من هنا ؟ " .

قال : " هى هناك أعلى الغدير وهو على بعد ميل تقريباً " .

قالت : " أولم نذهب هناك من قبل ؟! " .

قال : " نعم ، ولكن ليس فى مثل ذلك الطقس السيئ " .

ففكرت للحظة وهى تنظر حولها ، وعندما تحدثت كان صوتها ينم عن إصرار شديد وقالت :

" إذن سوف نذهب ؛ فأنا لا أبالى إذا أمطرت " .

قال : " هل أنت متأكدة ؟ " .

قالت : " تماماً " .

فنظر إلى السحب من جديد ، ولاحظ اقترابها ثم قال : " من الأفضل أن نذهب الآن ، هل يمكننى أن أضع حقيبتك بالداخل ؟ " .

فأومأت برأسها وهى تناوله الحقيبة ، وذهب مسرعاً إلى داخل المنزل ووضعها على كرسى موجود فى غرفة المعيشة ، ثم أمسك ببعض الخبز ووضعه فى كيس ، وأخذه معه وهو يغادر المنزل .

www.rewity.com ^RAYAHEENA^

كانت آلى تسير إلى جواره وهما يتوجهان إلى القارب .

قالت : " صِف لى هذا المكان تحديداً " .

قال : " انتظرى حتى تريه " .

قالت : " ألا يمكنك أن تعطينى ولو لمحة عنه ؟ " .

قال : " حسناً ، هل تذكرين عندما خرجنا فى نزهة بالقارب ورأينا الشمس وهى تشرق ؟ " .

قالت : " لقد فكرت فى ذلك هذا الصباح حتى دمعت عيناى " .

قال : " ما سترينه اليوم سيجعل من ذلك المشهد شيئاً عاديًا " .

قالت : " أعتقد أننى ينبغى أن أشعر بأنى عزيزة عليك " .

فتحرك لبضع خطوات قبل أن يجيب .

ثم قال أخيراً : " أنت كذلك بالفعل " ، وأحست من طريقته فى الحديث بأنه أراد أن يضيف شيئاً ، ولكنه لم يفعل ، فابتسمت آلى قليلاً قبل أن تتحول بنظرها بعيداً ، وفى أثناء قيامها بذلك ، أحست بالرياح وهى تصطدم بوجهها ، ولاحظت زيادة سرعتها عمَّا كانت عليه فى الصباح .

وصلا إلى الرصيف الصغير بعد ذلك بدقيقة وقام نوا - بعدما وضع كيس الخبز فى القارب - بمراجعة سريعة حتى يتأكد من أنه لم ينس شيئاً ، ثم دفع القارب إلى المياه .

قالت " آلى " : " هل يمكننى القيام بشىء ؟ " .

قال : " لا ، فقط تعالى واجلسى " .

وبعدما قفزت داخله ، دفع بالقارب لمسافة أبعد داخل المياه بالقرب من الرصيف ، ثم قفز من الرصيف إلى داخله بحركة رشيقة ، وهو يضع قدمه بحرص حتى لا ينقلب . أعجبت آلى كثيراً بخفة حركته ؛ لأنها تعلم أن ما قام به فى سرعة وسهولة أصعب بكثير مما يبدو عليه !

جلست آلى فى مقدمة القارب ، وهى تنظر إلى الاتجاه العكسى ، وسمعت نوا وهو يقول لها شيئاً عن إمكانية عدم رؤيتها لجمال المنظر من موقعها هذا وهو يبدأ التجديف ، ولكنها هزت رأسها ، وقالت إنها تستمتع بالنظر من هذا المكان .

وكانت محقة فى ذلك .

فهى تستطيع أن ترى كل ما تريد إذا أدارت رأسها ، ولكن أهم ما فى الأمر أن تشاهد نوا ؛ فلقد أتت إلى ذلك المكان خصيصاً لكى تراه هو وليس

الغدير ! كان قميصه مفتوحًا من الأعلى . وكان بإمكانها أن ترى عضلات صدره وهى تنقبض مع كل ضربة من ضرباته ، وكانت أكمامه مطوية لأعلى كذلك ، واستطاعت أن ترى عضلات ذراعه وهى تنقبض هى الأخرى ، والتى أصبحت بارزة وقوية بممارسة التجديف فى كل صباح .

وقالت لنفسها كم هو ساحر . إنه يسحرنى عندما يقوم بذلك ، إنه شىء طبيعى ، وكأنما بقاؤه فى الماء شىء لا يمكنه السيطرة عليه ، شىء توارثه من جين انتقل إليه من سلسلة وراثية مجهولة ، وتخيلت عندما شاهدت الصورة التى كان عليها المكتشفون الأوائل عندما جاءوا لاستطلاع هذه المنطقة .

لم تكن تستطيع التفكير فى شخص آخر يشبهه ولو من بعيد ؛ فهو يمثل تركيبة معقدة ، ومتناقضة كذلك من جوانب كثيرة ، ومع ذلك فهو شخص بسيط ، فيالها من تركيبة مثيرة ! فهو فى ظاهره يبدو شابًا ريفيًا ، عاد إلى الوطن بعد الحرب ، ومن الأرجح أنه يرى نفسه على هذه الصورة ، ومع ذلك فحقيقته أكبر من ذلك بكثير ، وربما الشعر أو القيم التى غرسها فيه والده منذ الصغر هى التى جعلت منه شخصاً مختلفاً ، وعلى أية حال فهو يعرف جيداً كيف يستمتع بالحياة

أكثر من أى شخص آخر ، وكان ذلك السبب الأول وراء انجذابها له .

سألها : " ما الذى يشغل تفكيرك ؟ " .

فشعرت أن هناك شيئاً ارتعد بداخلها عندما سمعت صوت نوا وهو يعيدها من جديد إلى الزمن الحاضر . وأدركت أنها لم تتحدث كثيراً منذ بداية النزهة ، وأحست بالامتنان له لأنه سمح لها بفترة من الصمت ؛ فهو دائماً يراعى مشاعر الآخرين .

وأجابته بصوت هادئ : " أشياء جميلة " ، وأحست من عينيه أنه علم أنها كانت تفكر فيه ، وفرحت لأنه توصل إلى هذه الحقيقة ، وتمنت لو كان هو الآخر يفكر فيها .

وعندئذ أحست بأن شيئاً ما قد تحرك بداخلها ، مثلما كان يحدث معها منذ سنوات عديدة مضت . فرؤيتها له أيقظت بداخلها هذه المشاعر ، وعندما تقابلت عيناهما أحست بالدفء يسرى فى أوصالها ، واحمرت وجنتاها ، فتحولت بوجهها بعيداً قبل أن يلحظها .

ثم سألته : " كم تبلغ المسافة التى سنقطعها ؟ " .

فأجاب : " نصف ميل تقريباً . ليس أكثر من ذلك " .

وصمتت للحظة ثم قالت : " إن المكان هنا رائع الجمال ، ونظيف وهادئ ، ويجعلنى أشعر كأننى أعود بالزمن إلى الوراء " .

قال : " أعتقد أنه كذلك ؛ فهذا الغدير ينبع من الغابة ، ولا توجد أية مزرعة تتخلله من هنا وحتى منبعه ، ومياهه نقية مثل مياه الأمطار ، وهى أنقى مياه رأيتها فى حياتى " .

مالت آلى نحوه ثم قالت : " قل لى يا نوا ما هو أكثر شىء تذكره فى ذلك الصيف الذى قضيناه معاً ؟ " .

قال : " أذكر كل ما فيه " .

قالت : " أى شىء تحديداً ؟ " .

قال : " كل شىء " .

قالت : " ألا تذكر شيئاً بعينه ؟ " .

سكت للحظة ، ثم أجابها بنبرة هادئة وجادة .

وقال : " لا ، فالأمر يختلف عن ذلك ، وليس كما تظنين ؛ فقد كنت جاداً عندما قلت لك إنى أذكر كل ما فيه ، وأستطيع أن أتذكر كل لحظة قضيناها معاً ، ففى كل منها حدث شىء رائع ، ولا أستطيع أن أختار واحدة منها تحديداً لأقول إنها تعنى شيئاً خاصًا لى أكثر من الأخرى ، فكل ما فى ذلك الصيف كان رائعاً ؛ فهو يمثل لى وقتًا يحلم بقضائه كلّ شخص ،

فكيف يمكننى أن أنحاز للحظة معينة وأترك الأخرى ؟

يصف الشعراء الحب دائماً على أنه عاطفة لا يمكننا التحكم فيها ، وهى عاطفة تطغى على قوانين العقل والمنطق ، فالمسألة كانت تعنى كذلك بالنسبة لى ، فأنا لم أخطط للوقوع فى حبك ، وليس عندى شك فى أنك لم تخططى للوقوع فى حبى ، ولكن ما إن تقابلنا كان كل شىء واضحًا ، ولم يستطع أحد منا السيطرة على ما يحدث ، ووقعنا فى الحب ، على الرغم من اختلافنا ! وما إن حدث ذلك تولد معه إحساس نادر وجميل ، فالحب بالنسبة لى لا يحدث للإنسان إلا مرة واحدة فى حياته ؛ ولذلك فأنا أشعر بأن كل لحظة قضيناها معاً محفورة فى ذاكرتى ، ولا أستطيع نسيان لحظة واحدة منها " .

نظرت آلى إليه طويلاً ؛ فهى لم تسمع أحدًا يقول مثل هذا الكلام من قبل ، ولم تعرف ما الذى تقوله ، وظلت صامتة وهى تشعر بحرارة تسرى فى وجهها .

قال : " أنا آسف لأنى سببت لك بعض الحرج يا آلى لم أكن أقصد ذلك ، ولكن ذلك الصيف لن يغيب عن ذاكرتى إلى الأبد ، وأعرف أنه من المستحيل أن

يتكرر ما كان بيننا ، ولكن ذلك لم يغير ولن يغير من مشاعرى تجاهك " .

فقالت فى هدوء وهى تشعر بالدفء :

" إن كلامك لم يضايقنى يا نوا ، ... إننى فقط لم أسمع مثل ذلك الكلام من قبل . إن ما قلته رائع جداً ، وينبغى لمن يتحدث بمثل ذلك الكلام أن يكون شاعراً ، وكما قلت لك من قبل ، أنت الشاعر الوحيد الذى قابلته فى حياتى " .

هبطت عليهم فترة من الصمت والطمأنينة ، وسُمع من بعيد صوت عُقاب يصيح ، وأصوات أسماك البورى وهى تضرب المياه بالقرب من الضفة ، وحركة المجداف المنتظمة صنعت بعض الحواجز التى كانت تهز القارب من وقت لآخر قليلاً ، توقف النسيم ، وأصبحت السحب قاتمة اللون ، بينما تحرك القارب تجاه مكان غير معلوم .

لاحظت آلى كل الأشياء والأصوات والأفكار ، فقد استيقظت كل حواسها واستعادت حيويتها ونشاطها من جديد ، وأحست بأن عقلها يشرد فى الأسابيع القليلة الماضية ، وتذكرت معاناتها من القلق قبل أن تأتى إلى هنا ، وصدمتها عندما رأت المقال ، والليالى التى لم تذق فيها طعم النوم ، وعصبيتها خلال النهار ، وحتى

الأمس كانت لا تزال تشعر بالخوف وأرادت الهرب . أما الآن فقد زال عنها كل ذلك التوتر ، بكل ما فيه ، وحل محله شىء آخر ، وشعرت بسعادة غامرة لذلك وهى تجلس فى صمت داخل القارب الأحمر القديم .

وشعرت بإحساس غريب بالرضا لأنها جاءت إلى هنا ، وأسعدها كثيراً أن نوا أثبت أنه رجل بحق ولم يخذلها ، وأنها سوف تحيا إلى الأبد سعيدة بهذه المعرفة ، فقد رأت العديد من الرجال الذين حطمتهم الحرب أو حطمهم المال ، وغيرهم على مرور الزمن ؛ لأن التشبث بالمشاعر الحقيقية يتطلب المزيد من القوة ، ونوا نجح فى ذلك .

فهذا العالم لا يليق بشاعر ، وإنما بالشخص العملى الذى يهتم بالأمور المادية المعاصرة ، وسيجد الناس صعوبة بالغة فى فهم رجل مثل نوا ، فأمريكا الآن تعيش فى أوج ازدهارها ، كما تزعم جميع الصحف ، والناس يتدافعون نحو القمة ، ويتركون وراءهم ويلات الحرب ، فهى تستوعب جيداً هذه الأسباب ، ولكنهم يتدافعون ، تماماً مثل لون نحو العمل لساعات طويلة وتحقيق المكاسب المادية ، ويهملون الأشياء التى تضفى على الدنيا جمالاً .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

فمن هو الشخص الذى تعرفه فى رالى والذى يمكنه أن يأخذ إجازة طويلة من عمله لإصلاح منزل ؟ أو يقتطع جزءاً من وقته ليقرأ قصيدة لويتمان ، أو إليوت ، ويبحث عن صور بلاغية فى عقله ، أو أفكار تخاطب الوجدان ؟ أو يستقل زورقاً ليتابع بزوغ الخيط الأول من الفجر ؟ فمثل هذه الأشياء لا تدفع المجتمع إلى التقدم ، ولكنها تَشعر بأنها لا يجب أن تُعتبر أشياء غير مهمة ؛ فهذه الأشياء هى التى تجعل للحياة معنى .

ولا يختلف الأمر بالنسبة لها كثيراً فيما يتعلق بالرسم ، مع أنها لم تدرك ذلك إلا عندما جاءت إلى هنا ، أو بالأحرى ، تذكرته ، فهى كانت على علم بذلك من قبل ، ولامت نفسها من جديد لأنها تناست شيئاً فى غاية الأهمية ، مثل إيجاد الجمال حولنا . فالرسم هو الطريق الذى اختارته فى الحياة ، وهى واثقة من ذلك الآن ؛ فمشاعرها فى هذا الصباح أكدت لها ذلك ، وكانت تعلم أنه مهما حدث فسوف تحاول من جديد مهما كان رد فعل الآخرين .

فهل سيشجعها لون على الرسم ؟ وتذكرت كيف أطلعته على إحدى لوحاتها بعد مرور شهرين على صداقتهما ، وقد كانت لوحة تجريدية تهدف إلى الحث

على التفكير ، وهى تشبه فى جانب منها اللوحة التى يعلقها نوا فوق المدفأة ، والتى استطاع نوا فهمها بشكل تام ، مع أنها أقل تأثيراً ، فقد نظر إليها لون ودرس تفاصيلها ، وبعد ذلك سألها ما الذى تقصده من ورائها ، فلم تكترث بالرد عليه .

وعند ذلك هزت رأسها ؛ لأنها عرفت أنها ظلمت لون ، فهى تحبه لأسباب أخرى عديدة ، فعلى الرغم من أنه يختلف كثيراً عن نوا ، إلا أنه رجل طيب القلب ، وهو يمثل لها نموذج الرجل الذى كانت تعرف دوماً أنها ستتزوجه ، فمع لون لن تكون هناك أية مفاجآت ، وستكون مطمئنة لما سيأتى به المستقبل ، وسيكون زوجًا صالحاً لها ، وستكون هى كذلك وستحظى بمنزل بالقرب من أصدقائها وعائلتها ، وبالأطفال ، وبمكانة تليق بها فى المجتمع . فهذه هى نوعية الحياة التى يُتوَقع لها أن تحياها ، وهى كذلك الحياة التى كانت تريدها ، وعلى الرغم من أنها لا تستطيع أن تصف علاقتهما بأنها عاطفية ، إلا أنها قد أقنعت نفسها منذ زمن بعيد بأن ذلك لا يمثل شيئاً ضرورياً فى هذه العلاقة ، فالعاطفة ستزول مع الوقت ، وستحل محلها أشياء أخرى مثل العشرة الطيبة

والتوافق ، وهما يتوافران فى علاقتهما ، واعتقدت بأنها لن تحتاج إلى أكثر من ذلك .

ولكن الآن ، وهى ترى نوا وهو يتحرك بمجدافيه أمامها ، تشككت فى أساس هذه القناعات ، فهى تشعر بجاذبيته فى كل شىء يقوم به ، ووجدت نفسها تفكر فيه بطريقة لا ينبغى لامرأة مرتبطة بشخص آخر أن تفكر بها ، فحاولت ألا تنظر إليه وأن تصرف نظرها بعيداً ، ولكن مرونة حركاته جعلت من إبعاد نظرها عنه شيئاً صعبًا .

وقال نوا وهو يتجه بالقارب إلى بعض الأشجار القريبة من الشاطئ : " ها قد وصلنا " .

فنظرت آلى حولها وهى لا ترى شيئاً ، وقالت : " أين هو ؟ " .

فقال من جديد هنا ، وهو يسير بالقارب تجاه شجرة معمرة منحنية تختفى وراءها فتحة لا تظهر تماماً .

سار بالقارب حول الشجرة ، وأحنى كل منهما رأسه حتى لا يصطدما بها .

وهمس لها قائلاً : " أغمضى عينيك " ففعلت وهى تقرب كلتا يديها من وجهها ، وسمعت أصوات ارتطام الزورق بالحواجز التى صنعتها المياه ، وشعرت بحركته

بينما كان نوا يدفعه إلى الأمام فى الاتجاه المعاكس لتيار الغدير .

وقال بعدما توقف أخيراً عن التجديف : " حسناً ، يمكنك أن تفتحيهما الآن " .

بجع وعواصف

جلسا عند منتصف بحيرة صغيرة تغذيها مياه خليج برايسز . لم يكن عرضها كبيراً ؛ وتعجبت آلى من اختفائها عن الأنظار منذ دقائق معدودة .

فقد كان منظرها رائعاً ؛ حيث كانت تطوقها الآلاف من بجع التندرا والإوز الكندى ، وكانت الطيور تسبح فى بعض الأماكن وهى قريبة من بعضها ، حتى إنها لم تستطع رؤية صفحة المياه ، وبدت مجموعات البجع من بعيد وكأنها جبال من الثلج .

قالت أخيراً بصوت رقيق : " كم هى جميلة يا نوا ! " .

وجلسا فى صمت لفترة طويلة من الوقت وهما يراقبان الطيور ، وأشار نوا بإصبعه إلى مجموعة من الفراخ الصغيرة ، حديثة الفقس ، وهى تتبع سربًا من الإوز بالقرب من الشاطئ ، وتحاول جاهدة أن تطفو فوق سطح المياه .

وكان الهواء يضج بأصوات الصياح والشقشقة . عندما كان نوا يتحرك بالقارب وسط المياه تجاهلت معظم الطيور وجودهما ، ولم يبال بوجودهما سوى الطيور التى أجبرت على الحركة عندما اقترب القارب منهم . مدت آلى يدها لتلمس القريبات منها وتشعر برعشة أجنحتها تحت أصابعها .

أمسك نوا بكيس الخبز الذى أحضره وأعطاه لآلى فأخذت تنثر فتات الخبز فوق سطح الماء ، مفضلة الصغار ، وهى تضحك وتتبسم وهى تسبح فى حلقات مستديرة بحثاً عن الطعام .

ظلا هناك حتى سمعا دَوِىَّ الرعد من بعد ـ غير واضح قليلاً ، ولكنه قوى ـ وعلم كل منهما أنه قد حان وقت العودة .

عاد تيار الغدير فى اتجاه نوا ، وهو يجدف بسرعة أقوى من السابق ، وكانت آلى لا تزال مندهشة من جمال ما شاهدت فسألته قائلة :

" ما سبب وجود كل هذا البجع فى هذا المكان يا نوا ؟ " .

فأجابها : " لا أعرف ! كل ما أعرفه هو أن البجع يأتى من أقصى الشمال ليهاجر إلى بحيرة " ماتا موسكيت " كل شتاء ، فأنا أعرف أن هذه الأسراب

تأتى إلى هنا فى هذا الوقت ، ولكن أعرف سبب ذلك . وربما يكون السبب هو وجود عواصف ثلجية مبكرة . وربما ضلت طريقها ، ولكنها ستجده لا محالة " .

قالت : " هل سترحل تلك الطيور من هنا ؟ " .

قال : " أظن ذلك ؛ فالفطرة هى التى تدفعها إلى ذلك ، وهذا المكان ليس مكانها ، وربما تقضى بعض طيور الإوز فصل الشتاء هنا ، ولكن البجع سوف يعود إلى بحيرة ماتا موسكيت " .

وفى أثناء ما كان نوا يسارع فى التجديف كانت الغيوم تتحرك مباشرة فوق رأسيهما ، وسرعان ما بدأ نزول المطر ، وكان يسقط علي هيئة رذاذ خفيف فى البداية ، ثم بدأ يشتد تدريجياً . وكان البرق يظهر فى السماء ... وبعد فترة سكون سمعا دَوِىَّ الرعد من جديد ، ولكن دَوِيّه ازداد قوة ، وكان ذلك على بعد من ستة إلى سبعة أميال ، وكلما زادت شدة المطر ، زاد نوا من سرعة تجديفه ، واشتدت قوة عضلاته مع كل ضربة .

حتى أصبحت قطرات المطر أكثر كثافة .

وأخذت تسقط .....

تسقط وسط هبوب الرياح ....

تسقط أكثر حدة وكثافة ... ونوا مستمر فى تجديفه ... يحاول أن يسابق السماء ... ولكن المطر يزداد غزارة ...

ثم أصبح هطول المطر منتظمًا ، وشاهدت آلى المطر وهو يسقط فى أعمدة مائلة من السماء ، وكأنه يحاول أن يتحدى الجاذبية ؛ حيث كانت تحمله الرياح الغربية التى يعلو صفيرها فوق الأشجار ، وأظلمت السماء قليلاً ، وبدأت قطرات المطر الكثيفة تتساقط من السحب ، وكانت تشبه أمطار الأعاصير .

استمتعت آلى بالمطر ، وكانت تميل برأسها إلى الوراء للحظة حتى تسمح لقطرات المطر أن تسقط على وجهها .

وأخذت تمرر يدها فوق شعرها حتى تشعر بالماء وهو يتخلله ، وأحست بأن كل شىء يبدو رائعاً ، وعلى الرغم من شدة المطر إلا أنها استطاعت أن تسمع صوت أنفاسه المتسارعة التى حركت لديها مشاعر كانت كامنة بداخلها لسنوات عديدة .

وتدافعت مياه الأمطار من سحابة كانت تمر من فوقهم مباشرة ، واشتد سقوط المطر بصورة لم ترها من قبل ، فنظرت آلى إلى أعلى وضحكت ، ولم تحاول الاختباء من الأمطار ؛ مما جعل نوا يشعر بالراحة ؛

فهو لم يتوقع رد فعلها لما حدث ، فعلى الرغم من أنها هى التى اتخذت القرار بالخروج ، إلا أنه شك فى أنها تتوقع أن تجد نفسها وسط عاصفة مثل هذه .

وصلا إلى الرصيف الصغير بعد دقيقتين تقريباً ، واقترب نوا من الرصيف بمسافة كافية حتى يسهل على آلى القفز إليه ، وساعدها فى الخروج من القارب ، ثم تبعها هو الآخر ، وقام بعد ذلك بسحبه إلى أعلى الشاطئ بمسافة كافية حتى لا تجرفه المياه بعيداً ، ثم ربطه فى الرصيف وهو يعلم أن دقيقة أخرى تحت المطر لن تغير فى الأمر شيئاً .

وبينما كان يربط القارب ، كان ينظر إلى آلى ، وحبس أنفاسه للحظة ؛ فقد كانت رائعة الجمال وهى تقف فى طمأنينة تامة تحت المطر وتشاهده ، ولم تحاول أن تختبئ من المطر ، ولم تكن قطرات المطر باردة ، وعندما انتهى من ربط القارب وقف فى مكانه وجاءت آلى إليه ، وعلى الرغم من شدة نزول المطر لم يسارعا إلى الدخول إلى المنزل ، وتمنى نوا لو أنها تقضى معه هذه الأمسية .

كانت آلى تفكر فيه أيضاً ، وعند ذلك أدركت أن هناك شيئاً قد تغير منذ قدومها إلى هنا ، وعلى الرغم من أنها لم تستطع تحديد الوقت تماماً - بالأمس بعد

العشاء ، أو بعد الظهيرة عندما كانا فى الزورق ، أو عندما رأت البجع ، أو ربما الآن وهما يسيران معًا ـ وعلمت أنها قد وقعت فى حب نوا من جديد ! وربما ، ربما لم تكن قد توقفت عن حبه مطلقاً .

لم يشعر أى منهما باضطراب عندما وصلا إلى الباب ودخلا إلى المنزل ، فتوقفا عند الردهة ، وكانت ملابسهما مبتلة .

سألها نوا : " هل أحضرت معك ملابس أخرى ؟ " .

فهزت رأسها بالنفى ، وكانت لا تزال المشاعر تختلج بداخلها ، وتساءلت ما إذا كان ذلك بادياً على وجهها ؟!

قال نوا : " أعتقد أنه يمكننى أن أجد لك شيئاً من ملابسى ، ربما تكون كبيرة عليك ، ولكنك سوف تشعرين بالدفء " .

قالت : " أى شىء ؟! " .

قال : " انتظرينى لحظة " .

خلع نوا حذاءه ، ثم صعد الدرج وعاد بعد دقيقة واحدة ، وقد وضع تحت ذراعه سروالاً من القطن

وقميصًا طويل الأكمام ، وتحت الذراع الأخرى بنطالاً من الجينز ، وقميصًا أزرق اللون .

وقال وهو يناولها السروال القطنى والقميص : " تفضلى ، يمكنك أن تغيرى ملابسك فى الطابق العلوى ؛ فهناك حمام ومنشفة إذا أردتِ الاغتسال " .

فشكرته بابتسامة وصعدت إلى الطابق العلوى ، وأحست بنظراته وهى تتبعها . دخلت إلى غرفة نومه وأغلقت الباب ، ثم وضعت السروال والقميص على السرير ، وخلعت ملابسها وبحثت عن حمالة ثياب لتعلق عليها ملابسها ، ثم ذهبت لتعلقها فى الحمام حتى لا تبلل الأرضية الخشبية للغرفة ، وشعرت بسعادة غريبة لأنها رأت غرفة نومه .

لم تكن تريد أن تغتسل بعدما ابتلت بالمطر ، فقد كانت تحب هذا الإحساس الرقيق على بشرتها ؛ فهو يذكرها بالطريقة التى كان يعيش بها الإنسان منذ قديم الأزل ، وتماماً مثل نوا ، ثم ارتدت ملابسها قبل أن تنظر إلى نفسها فى المرآة ، وكان السروال كبيرًا ، ولكنها ملأت ذلك الفراغ بأن دسَّت القميص بداخله ، وطوت أقدامه الطويلة حتى لا يصل إلى الأرض . كانت رقبة القميص ممزقة قليلاً ، ولكنها أحبت منظره عليها على أية حال ، وشمرت أكمامه حتى مرفقيها ،

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

وذهبت إلى خزانة بها مرآة ، وارتدت جوربًا ، ثم ذهبت إلى الحمام لتبحث عن فرشاة للشعر .

ومشطت شعرها المبتل حتى تخلصت من تشابكه ، وتركته منسدلاً على كتفيها ، ونظرت إلى المرآة ، وتمنت لو كانت قد أحضرت معها مشبكًا أو مشبكين للشعر .

وتمنت لو أنها كانت قد أحضرت معها زينة للعين ، ولكن ماذا يمكنها فعله ؟ فعيناها لا تزال تحتفظ بقليل من الزينة التى وضعتها من قبل ؛ فقامت بتسويتها بقطعة من القماش ، وكان ذلك أفضل ما يمكنها فعله .

وعندما انتهت نظرت إلى نفسها فى المرآة ، وشعرت بأنها جميلة برغم كل شىء ، ونزلت من الطابق العلوى .

كان نوا يجلس أمام المدفأة فى غرفة المعيشة ، يقوم بكل ما فى وسعه ليعيد إليها الحياة ، ولم يرها وهى قادمة ، فظلت تراقبه وهو يعمل ، وقد بدا فى أحسن مظهر بعدما استبدل ملابسه هو الآخر ، كانت كتفاه عريضتين ، وشعره المبلل يتدلى فوق ياقة قميصه ويرتدى بنطالاً ضيقًا من الجينز .

كان يذكى النار ، ويحرك قطع الخشب ، وأضاف بعضًا منها ليزيد من الاشتعال ، وقفت آلى وهى تضع ساقًا فوق أخرى ، وتسند رأسها على الباب ، واستمرت فى مشاهدته ، وتحولت النار فى دقائق معدودة إلى ألسنة متساوية ومنتظمة من اللهب وتحول نوا إلى جانب المدفأة ليسوى قطع الخشب التى لم يستخدمها بعد ، ولمحها واقفة من طرف عينه فالتفت إليها بسرعة .

كانت تبدو جميلة حتى وهى ترتدى ملابسه ، وبعد لحظة التفت بعيداً عنها فى خجل وعاد إلى ترتيب قطع الخشب .

وقال وهو يحاول أن يظهر عدم اكتراثه : " لم أشعر بك عندما جئت إلى هنا " .

قالت : " أعلم ذلك ، فليس من المفترض أن تفعل " ، وكانت تعلم أنه كان يفكر فيها ، وأحست بشىء من السرور لأنه يتصرف مثل الصغار .

قال : " منذ متى وأنت تقفين هنا ؟ " .

قالت : " منذ دقيقتين " .

مسح " نوا " يديه فى بنطاله ، ثم أشار إلى المطبخ وقال : " هل ترغبين فى شرب كوب من الشاى ؟ فقد وضعت إبريق الشاى على الموقد وأنت فى الطابق

العلوى " ، وقد كان يحاول إيقاظ عقله بهذه المحادثة الصغيرة ، ولكنه لم يكن ليستطيع مقاومتها ؛ فهى تبدو جميلة جداً .

فكرت آلى للحظة عندما رأته ينظر إليها بهذه الطريقة ، وشعرت بأن الأحاسيس القديمة بدأت تطفو .

ثم قالت : " هل لديك شىء آخر بدلاً من الشاى ؟ " .

فابتسم وقال : " لدىَّ بعض العصائر المعلبة ، فهل تعجبك ؟ " .

قالت : " عظيم جداً " .

فذهب إلى المطبخ ، ورأته آلى وهو يمرر يده على شعره المبتل ويتوارى داخله .

ثم سُمع دوى الرعد الشديد ، وبدأ هطول الأمطار من جديد ، وكانت آلى تسمع صوت المطر المنهمر فوق سطح المنزل ، وصوت طقطقة قطع الخشب كلما أضاءت الغرفة ألسنة اللهب المتراقصة ، فتحولت إلى النافذة ورأت البرق يومض فى السماء الرمادية فى لحظة ثم يختفى ، وسمعت بعد دقائق معدودة دويًّا آخر للرعد ، ولكنه قريب فى هذه المرة .

تناولت غطاءً كان موجودًا على الأريكة ، وجلست على السجادة أمام المدفأة ، وقامت وهى تضع رجلاً فوق

أخرى بتسوية الغطاء حتى جلست مستريحة وهى تراقب ألسنة اللهب المتراقصة ، وعندما عاد نوا ورأى ما فعلته جلس إلى جانبها ، ووضع كوبين صب فى كل منهما بعض العصير ، أما فى خارج المنزل فقد أصبحت السماء مظلمة .

وسمع صوت الرعد من جديد ، ولكنه كان أكثر حدة ؛ فالعاصفة كانت فى أوجها ، والرياح كانت تسوق الأمطار فى حركات مستديرة .

قال نوا وهو يراقب تدفق قُطرات المطر فى تيارات متعامدة على النوافذ : " إنها عاصفة مروعة " ، وكان يجلس بالقرب من آلى ، ولكنه لم يكن ملاصقًا لها .

قالت وهى تأخذ رشفة من الكوب : " دائماً ما كنت أحب العواصف الرعدية حتى وأنا فتاة صغيرة " .

فقال : " لماذا ؟ " ، فى محاولة لأن يقول أى شىء كى يحفظ اتزانه .

قالت : " لا أعرف ؛ فهى تبدو لى شيئاً رومانسياً " .

وظلت صامتة للحظة ، وكان نوا يشاهد النار ترتجف داخل عينيها ذات اللون الزمردى ، ثم قالت : " هل تذكر عندما جلسنا معاً لنراقب العاصفة فى الليلة السابقة لرحيلى ؟ " .

فقال : " بالطبع " .

قالت : " كثيراً ما كنت أذكرها بعدما عدت إلى منزلى . كنت دائماً أفكر فى الصورة التى كنت عليها فى تلك الليلة ، وهى الصورة التى انطبعت عنك فى ذاكرتى " .

فسألها : " هل تغيرت كثيراً ؟ " .

تناولت رشفة أخرى من العصير ، وهى تجيبه :

" ليس تماماً . ليس فى الأشياء التى أذكرها عنك . لقد أصبحت بالطبع شخصًا ناضجًا ولديك خبرات فى الحياة ، ولكنك لا تزال تحتفظ بذلك البريق فى عينيك ، ولا تزال تقرأ الشعر وتسبح فى النهر بالقارب ، وتحتفظ برقة قلبك التى لم تستطع الحرب أن تنتزعها منك " .

استمر يفكر فيما قالته ، ثم قال : " آلى لقد سألتنى مرة من قبل عن أكثر شىء أذكره فى ذلك الصيف ، فما هو أكثر شىء تذكرينه ؟ " .

صمتت آلى برهة قبل أن تجيبه ، وكان صوتها عندئذ يبدو وكأنه آتٍ من مكان آخر ، وقالت :

" أذكر مشاعر حبنا ؛ فهذا أكثر شىء انطبع فى ذاكرتى ، فأنت كنت أول شخص أحببته فى حياتى ، وكان إحساسى بذلك الحب أروع مما كنت أتخيل " .

تناول نوا بعضاً من العصير ، وهو يسترجع ذكرياته ومشاعره من جديد ، ثم هز رأسه فجأة ؛ فقد كان ذلك شيئاً قاسيًا بالنسبة له ، وأكملت آلى حديثها وقالت :

" أتذكر كم كنت خائفة عندما تقابلنا فى أول مرة لدرجة أنى كنت أرتعد من الخوف ، وفى الوقت نفسه كنت فى غاية السعادة ، فأنا سعيدة لأنك كنت حبًا حقيقيًا فى حياتى ، وبأننا تبادلنا ذلك الإحساس الرائع " .

قال : " وأنا كذلك ! " .

وسألته : " هل كنت خائفاً مثلى ؟ " .

فهز نوا رأسه بالإيجاب دون أن يتحدث ، وابتسمت لأنه لم يخف عنها الحقيقة .

قالت : " كنت أعرف ذلك ؛ لأنى كنت أجد فيك دائماً الشخص الخجول ، وخصوصاً فى بداية علاقتنا " .

ثم قالت بصوت هادئ : " هل تذكر سيرك معى إلى المنزل بعد انتهاء المهرجان ؟ عندما سألتك إذا ما كنت

ترغب فى رؤيتى من جديد ، عندها هززت رأسك ولم تنطق بكلمة واحدة ، فلم يكن جوابك قاطعاً " .

وصمتت للحظة ، ثم نظرت فى عينيه مباشرة ، وعندما واصلت حديثها كان صوتها أقرب إلى الهمس ؛ حيث قالت : " أعتقد أنى أحببتك فى ذلك الصيف أكثر من حبى لأى شخص آخر " .

ظهرت فى السماء شرارة برق أخرى . وفى اللحظات الهادئة قبل دوى الرعد ، تقابلت أعينهما وهما يحاولان خرق الحواجز التى وضعها فراق دام أربعة عشر عاماً ، وشعر كل منهما بتغيير حدث له منذ ليلة أمس ، وعندما سمع دوى الرعد ، تنهد نوا ، وتحول بعيداً عنها وذهب إلى النافذة .

ثم قال : " كنت أتمنى لو أنك قرأت الخطابات التى كتبتها إليك " .

فتوقفت عن الكلام لفترة طويلة من الوقت .

ثم قالت : " لم تكن أنت وحدك من فعل يا نوا ، فأنا لم أقل لك أنى كتبت لك عشرات الخطابات عندما عدت إلى منزلى ، ولكننى لم أرسلها " .

قال نوا فى دهشة : " لماذا ؟ " .

قالت : " أظن أنى كنت خائفة " .

قال : " من ماذا ؟ " .

قالت : " ربما من أن تكون مشاعرى ليست حقيقية كما اعتقدتها ، أو ربما لأنك قد تكون نسيتنى " .

قال : " لا أستطيع فعل ذلك ، بل لا أستطيع حتى التفكير فيه " .

قالت : " لقد عرفت ذلك الآن ، وبإمكانى رؤيته كلما نظرت إليك ، ولكن فى ذلك الوقت كان كل شىء مختلفاً ؛ فقد كانت هناك أشياء كثيرة غامضة يصعب على عقل فتاة فى سنى وقتها استيعابها " .

فسألها : " ماذا تقصدين ؟ " .

فسكتت قليلا لتستجمع أفكارها ، ثم قالت :

" عندما لم تصلنى خطاباتك ، لم أكن أعرف كيف أفكر ، وأذكر أنى تحدثت مع واحدة من أفضل صديقاتى عما حدث بيننا فى ذلك الصيف ، فقالت لى إنك قد حصلت على ما كنت تريده ، ولم تفاجأ بأنك لم تكتب لى ، لم أكن أصدق أنك كنت تفكر بهذا الأسلوب ، ولا يمكننى تصور ذلك ، ولكن سماعى له وتفكيرى فى الاختلافات الموجودة بيننا جعلنى أتساءل عمَّا إذا كان ذلك الصيف يعنى بالنسبة لى أكثر مما يعنى بالنسبة لك ... وعندئذ ، وفى أثناء ما كانت كل هذه الأفكار تشغل عقلى ، عرفت من سارة أنك قد غادرت نيو بيرن " .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

قال : " فين وسارة كانا دائماً على علم بمكان وجودى " .

فرفعت يدها وهى تحاول منعه من أن يكمل حديثه وقالت : " أعرف ذلك ، ولكنى لم أحاول سؤالهما ؛ لأنى توقعت أنك قد غادرت نيو بيرن ، لتبدأ حياة جديدة بعيدة عنى ، فلماذا لم تكتب لى ؟ أو تحاول الاتصال بى ؟ أو أن تأتى لرؤيتى ؟ " .

فنظر نوا بعيداً ولم يجبها ، واستمرت فى حديثها :

" لم أكن أعرف ، وفى ذلك الوقت كان جرحى فى طريقه إلى الشفاء ، وكان من السهل عَلَىَّ أن أنسى كل ذلك الأمر ، على الأقل ظننت ذلك ، ولكن فى السنوات التالية وجدت نفسى أبحث عنك فى كل من قابلتهم ، وعندما كان ذلك الشعور يغلبنى كنت أكتب لك خطابًا آخر ، ولكننى خشيت مما قد يحدث عندما أرسلها لك ، وفى أثناء ذلك كنت تمضى فى حياتك ، ولم أكن أستطيع التفكير فى أنك تحب امرأة أخرى غيرى ، وكنت أريد أن أذكر علاقتنا كما كانت عليه فى ذلك الصيف ، ولم أرد أن أفقدك إلى الأبد " .

قالت ذلك فى عذوبة وبراءة بالغتين ، ثم أردفت قائلة :

" كان آخر خطاب كتبته منذ سنتين ، فعندما قابلت لون كتبت خطابًا إلى والدك حتى أعرف مكانك ، ولكن قد مضى وقت طويل على آخر لقاء لى بك ، ولم أكن متأكدة من أنه لا يزال موجوداً هناك ، ومع بداية الحرب .. " .

خَفَتَ صوتها ، وظلا صامتين للحظة انساق كل منهما فيها وراء أفكاره ، أضاءت شرارة البرق السماء من جديد قبل أن يخترق " نوا " أخيراً حاجز الصمت قائلاً : " كنت أتمنى لو أنكِ أرسلته على أية حال " .

قالت : " لماذا ؟ " .

قال : " فقط لأعرف أخبارك ، وأطمئن عليك " .

قالت : " ربما كنت ستصاب بخيبة أمل ؛ فحياتى لم تكن سعيدة ، بالإضافة إلى أننى قد تغيرت عما كنت تذكرنى عليه " .

فقال : " أنتِ أفضل مما كنت عليه سابقاً " .

قالت : " كم أنت رقيق يا " نوا " ! " .

وتوقف عند ذلك الحد ؛ لأنه عرف أنه مادام قد احتفظ بالكلمات داخله ، فسيمكنه السيطرة على نفسه ، تماماً مثلما كان يفعل منذ أربعة عشر عاماً ، ولكنَّ هناك شيئًا ما قد أصابه الآن ، واستسلم له ،

وتمنى لو استطاع السيطرة عليه من جديد وإعادته إلى ما كان عليه منذ زمن بعيد .

قال : " أنا لم أقل ذلك لأنى شخص رقيق ؛ لقد قلته لأنى أحبك الآن كما كنت دائماً أفعل ، أكثر مما يمكنك أن تتخيلى " .

ثم سمع صوت طقطقة قطعة من الخشب فى النار ، وارتفعت شرارتها عالياً فى المدخنة ، ولاحظ كل منهما بقاياها المحترقة تماماً ، ثم احتاجت المدفأة إلى قطعة خشب أخرى ، ولكن لم يتحرك أحد منهما .

تناولت آلى رشفة أخرى من العصير ، وكانت تشعر بدوار ، فعندما نظرت من النافذة رأت الغيوم وقد تحول لونها إلى اللون الأسود تقريباً .

قال نوا وهو يحاول التفكير فيما يحدث : " سأذهب لأذكى النار فى المدفأة من جديد " ، فتركته ليذهب إلى المدفأة ، وفتح الحاجز الذى أمامها ، وأضاف بعض القطع الخشبية ، واستعان بقضيب من الحديد ليعيد توزيع القطع الخشبية المشتعلة ؛ وليتأكد من أن القطع الخشبية التى أضافها ستشتعل بسهولة .

وبدأت تنتشر ألسنة اللهب من جديد ، وعاد نوا ليجلس إلى جوارها .

واستمرا يشاهدان النار والدخان ، ثم قالت : " أنت لم تسألنى من قبل يا نوا ، ولكننى أريد أن أخبرك بشىء " .

قال : " ما هو ؟ " .

فقالت بصوت رقيق :

" لم يكن فى حياتى شخص غيرك يا نوا ؛ فأنت لم تكن فقط الأول ، بل الرجل الوحيد الذى أحببته ، ولا أتوقع منك أن تقول نفس الشىء ، ولكنى أردتك أن تعرف " .

التفت نوا بعيداً فى صمت وأحست بالدفء وهى تراقب نار المدفأة ، وتذكرت عندما كانا يجلسان عند السد الذى تم تصميمه لحجز مياه نهر نيوز ، وكانت تبكى لأنهما سيفترقان ، وتساءلت هل يمكنها أن تشعر بالسعادة من جديد ، وبدلاً من أن يجيبها أعطاها ورقة صغيرة فى يدها لتقرأها وهى فى طريقها إلى المنزل ، واحتفظت بها ، وكانت تقرؤها كلها أو بعضًا منها من حين لآخر ، وهناك جزء كانت تقرؤه لمئات المرات ، ولسبب ما خطر على بالها الآن وكان يقول :

" إن السبب الذى يجعلنا نتألم كثيراً لفراقنا هو لأن أرواحنا متصلة ببعضها البعض ، وربما كانت

كذلك منذ زمن بعيد ، وستظل على ذلك فى المستقبل . وربما قد عشنا ألف حياة قبل حياتنا هذه ، وفى كل واحدة منها كان كل منا يبحث عن الآخر حتى يجده . وربما كنا نُجبر فى كل مرة على أن نفترق لنفس الأسباب ، ويعنى ذلك أن هذا الوداع هو وداع لعشرة آلاف عام مضت ، وبداية لأعوام أخرى سوف تأتى .

وعندما أنظر إليك ، أرى جمالك وجاذبيتك ، وأعرف أنهما يتضاعفان فى كل حياة جديدة تحييانها ، وأعرف أنى قضيت كل حياة لى من قبل فى البحث عنك ، ولم أكن أبحث عن شخص يشبهك ، بل عنك وحدك ؛ لأن روحى وروحك ، قدر لهما أن يتقابلا ، وعندئذ ـ يُجَبر كل منا على أن يفارق الآخر لسبب لا نعلمه .

أود أن أخبرك بأن كل شىء سوف يعمل لصالحنا ، وأعدك بأنى سأعمل كل ما فى وسعى حتى أتأكد من ذلك ، ولكن إذا لم نلتق من جديد ، وكان هذا هو وداعنا الأخير ، فإنى واثق من أننا سنتقابل فى الحياة الأخرى ، وسيبحث كل منا عن الآخر إلى أن يجده ، وربما تتغير أقدارنا ، ولن يتوقف حبنا عند حدود هذا الزمان فقط ، بل سيتجاوز كل الأزمنة التى عشناها من قبل " .

وتساءلت هل يمكن أن يتحقق ذلك ؟ وهل يمكن أن يكون على صواب ؟

وهى لم تحاول قط الاستهانة بما قال ، وأرادت أن تتشبث بذلك الوعد إن كان حقيقيًا ، وقد ساعدتها هذه الفكرة على تجاوز العديد من الأوقات الصعبة ، ولكن الجلوس فى هذا المكان الآن يمثل اختبارًا لنظرية أنه مقدر عليهما أن يفترقا ، إلا إذا تغيرت أقدارهما منذ آخر مرة تقابلا فيها .

وربما تكون أقدارهما قد تغيرت ، ولكنها لم تكن ترغب فى النظر إلى النجوم ، وبدلاً من ذلك ظلت تفكر وهى تشعر أن أفضل شىء فعلته هو أنها جاءت إلى هنا ، فكل شىء هنا يبدو مثالياً جداً حتى المدفأة ، والعاصفة ! ومن الغريب أن سنوات الفراق الطويلة لم يكن لها تأثير على الإطلاق .

كان وميض البرق يخترق السماء بالخارج ، وألسنة اللهب فى المدفأة تتراقص فوق الجمرات وتبث حرارتها فى المكان ، وأمطار أكتوبر تكسر سطح النوافذ ، وتختفى مع أصواتها كل الأصوات الأخرى .

وبعد قليل توقف نزول المطر ، وسطع ضوء الشمس من جديد ، وظلا طوال ذلك اليوم يتبادلان مشاعرهما الرقيقة وهما يجلسان أمام المدفأة ويشاهدان ألسنة اللهب

وهى تلتف حول قطع الخشب ، وأحياناً كان يتغنى لها ببعض القصائد المفضلة لديه وهى تجلس إلى جواره وتستمع إلى كلماتها وهى تغمض عينيها حتى تستشعرها .

ثم همس لها قائلاً : " أنت هبة أعطاها لى الله بعد طول دعاء . أنت أنشودتى ، وحلمى ، وهمس كلماتى ، ولا أعرف كيف استطعت أن أعيش بعيداً عنك طوال كل هذه السنوات . أنا أحببتك يا آلى أكثر مما يمكنك أن تتخيلى . كنت دوماً أحبك ، وسأظل أحبك إلى الأبد " .

فقالت له : " عزيزى نوا . إننى أحتاج إليك الآن أكثر من أى وقت مضى ، وأكثر من أى شىء آخر تعرفه " .

قاعة المحكمة

فى وقت متأخر من ذلك الصباح جلس ثلاثة رجال ـ محاميان وقاض ـ فى مكتب القاضى ، بينما انتهى لون من حديثه ، صمت القاضى لدقيقة قبل أن يجيبه .

وقال وهو يحاول تقييم الموقف : " إن ذلك طلب غير معتاد ، وتوقعت أن تنتهى المحاكمة اليوم ، فهل تقول إنها مسألة عاجلة لا تحتمل التأجيل إلى وقت لاحق هذا المساء أو الغد ؟ " .

فأجابه لون على الفور : " نعم يا سيدى ، لا يمكن تأجيلها " . وقال لنفسه : " احتفظ بهدوئك " . وأخذ نفساً عميقاً .

سأله القاضى : " هل الأمر يتعلق بالقضية ؟ " .

فأجابه : " لا يا سيدى ، إنها مسألة شخصية ، أعرف أن ذلك شىء غير معتاد ، ولكنى بحاجة إلى متابعة الأمر بنفسى " ، ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه " حسناً هذا أفضل " .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

أسند القاضى ظهره إلى كرسيه ، وهو يتفحصه لدقيقة ثم قال : " ما رأيك يا سيد بيتس فى هذه المسألة ؟ " .

فتنحنح ثم قال : " لقد اتصل بى السيد هاموند صباحاً وتحدثت مع عملائى بالفعل ، وهم موافقون على تأجيل القضية حتى يوم الاثنين " .

قال القاضى : " حسناً ، وهل تعتقد أن القيام بمثل ذلك فى صالح عملائك ؟ " .

قال : " أعتقد ذلك ؛ فقد وافق السيد هاموند على إعادة فتح النقاش فى موضوعات لم تغطها هذه المرافعة " .

فنظر القاضى إليهما بحدة وهو يفكر فى الأمر .

ثم قال أخيراً : " لا أظن ذلك مطلقاً ، ولكن السيد هاموند لم يسبق له القيام بطلب كهذا ، ولهذا أفترض أنها مسألة فى غاية الأهمية بالنسبة له " .

وانتظر قليلاً حتى يرى تأثير ما قاله ، ثم نظر إلى بعض الأوراق على مكتبه وقال : " أوافق على التأجيل حتى يوم الاثنين فى تمام الساعة التاسعة " .

قال لون : " شكراً لك يا سيدى " .

وبعد دقيقتين غادر المحكمة ، واتجه إلى سيارته التى تركها بجوار الرصيف المقابل مباشرة ، وجلس بداخلها ، وشرع فى رحلته إلى نيو بيرن ويداه ترتجفان .

زائر غير متوقع

أعد نوا طعام الإفطار لآلى بينما كانت لا تزال فى غرفة المعيشة ، وكان إفطارًا عاديًا مكونًا من لحم مدخن ، وبعض قطع البسكويت والقهوة ، ووضع الصينية بجوارها ، وتناولا معاً الإفطار .

وبعدما أخذت آلى حماماً ارتدت رداءها التى تركته ليجف طوال الليل ، وقضت ذلك الصباح مع نوا وهما يطعمان كليم ويفحصان النوافذ ليتأكدا من عدم وجود أضرار بها بعد العاصفة التى اقتلعت شجرتى صنوبر ، ولكن لم تكن هناك أضرار جسيمة ، وسقطت بعض الألواح الخشبية من السقيفة ، وفيما عدا ذلك نجت الضيعة من الإصابة بأضرار كبيرة .

وظل معظم النهار ينظر إليها ، وكانت تتمنى فى أثناء ذلك أن تقول أى شىء ، ولكنها لم تكن تجد شيئًا ذا معنى خاص لتقوله ، وكانت تجد نفسها حائرة فى التفكير .

وبعد فترة وجيزة من الظهيرة ، ذهب كل من نوا وآلى لإعداد الغداء ، وكان كل منهما يشعر بالجوع الشديد ؛ لأنهما لم يتناولا طعامًا كافيًا فى اليوم السابق ، وأعد نوا كل ما توفر لديه من طعام ، فقاما بطهى بعض الدجاج ، وخبز بعض من الكعك ، وجلسا لتناول الطعام فى الشرفة ، وهما يستمعان لغناء طائر الحاكى .

وبينما كانا فى الداخل لغسل الصحون ، سمعا صوت قرع الباب ، فترك نوا آلى فى المطبخ .

وسمع صوت نقرة أخرى .

قال نوا : " أنا قادم " .

أصبح صوت قرع الباب عالياً .

واقترب من الباب .

وسمع صوت نقرتين أخريين .

فقال من جديد وهو يهم بفتح الباب : " أنا قادم " .

ثم : " يا إلهى ! " .

ووجد أمامه امرأة جميلة فى أوائل الخمسينيات من عمرها ، وهى امرأة لا يمكنه أن يخطئ مطلقاً فى معرفتها فى أى مكان وجدت .

لم يستطع نوا التحدث .

وقالت المرأة أخيراً : " مرحباً يا نوا " .

ولم يجبها .

فسألته بصوت هادئ لا يكشف عن شىء : " هل يمكننى الدخول ؟ " .

وتلعثم فى جوابه بينما كانت المرأة تسير خلفه ، وتوقفت أمام السلم تقريباً .

صاحت آلى من داخل المطبخ : " من بالباب ؟ " ، والتفتت المرأة تجاه صوتها .

ورد نوا أخيراً : " إنها والدتك " ، وسمع صوت زجاج يتكسر بعدما قال ذلك مباشرة !

قالت آن نيلسون لابنتها بعدما جلس ثلاثتهم حول طاولة القهوة فى غرفة المعيشة : " كنت واثقة من وجودك هنا " .

قالت : " وما الشىء الذى جعلك واثقة من ذلك ؟ " .

قالت : " لأنك ابنتى ، فعندما يكون لك أطفال فى يوم من الأيام ، ستعرفين الإجابة عن سؤالك " . كانت تبتسم ، ولكن أسلوبها كان جافاً ! وشعر نوا بصعوبة الموقف عليها ، ثم قالت : " لقد رأيت المقالة مثلك تماماً ، ولاحظت رد فعلك ، ولاحظت كذلك العصبية التى كنت عليها خلال الأسبوعين الماضيين ، وعندما

قلت إنك ذاهبة للتسوق بالقرب من الساحل ، عرفت تحديداً مغزى كلامك " .

فسألتها آلى : " وماذا عن والدى ؟ " .

هزت رأسها وقالت : " لا لم أخبر والدك ، أو أى شخص آخر عن هذا الموضوع ، ولم أخبر أحداً مطلقاً عن المكان الذى نويت الذهاب إليه اليوم " .

مرت فترة من الصمت تساءل فيها الجميع عما سيقال بعد ذلك ، ولكن " آن " ظلت صامتة .

فسألتها آلى أخيراً : " ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ " .

فرفعت والدتها حاجبها وقالت : " أعتقد أنه من المفترض أن أسألك أنت هذا السؤال " .

فشحب وجه آلى .

ثم قالت والدتها : " لقد أتيت لأنه يتحتم علىَّ فعل ذلك ، وأنا واثقة من أنه نفس السبب الذى جعلك تأتين إلى هنا ، فهل أنا محقة فى ذلك ؟ " .

فهزت آلى رأسها بالإيجاب .

فتحولت آن إلى نوا ثم قالت : " لابد أن اليومين السابقين كانا يحملان الكثير من المفاجآت " .

فأجابها ببساطة : " نعم " ، وابتسمت له .

وقالت : " أنا متأكدة من أنك تعتقد أنى لا أحبك يا نوا ، ولكن هذا ليس صحيحًا . أنا فقط لا أعتقد أنك الشخص المناسب لابنتى ، فهل تستوعب ذلك ؟ " .

فهز رأسه وهو يجيبها بنبرة صوت جادة : " هذا ليس صحيحاً ، أنت تظلمينني ، وتظلمين آلى معى ، وإلا ما كانت قد جاءت إلى هنا " .

ظلت آن تراقبه وهو يتحدث ، ولكنها لم تقل شيئاً ، وأحست آلى أن النقاش سيحتدم فقاطعتهما قائلة : " ماذا تعنين بقولك إنه تحتم عليك أن تأتى ؟ ألا تثقين فىَّ ؟ " .

فتحولت آن من جديد إلى ابنتها وقالت : " إن هذا الأمر لا يتعلق بالثقة فقط ، إن له أيضًا علاقة بلون ؛ فقد اتصل بى فى المنزل ليلة أمس ليتحدث معى عن نوا ، وهو فى طريقه إلى هنا الآن ، ويبدو أنه قلق للغاية ، واعتقدت أنه ينبغى علىَّ إبلاغك بما حدث " .

أخذت آلى نفساً عميقاً وهى تقول : " هو فى طريقه إلى هنا ؟! " .

قالت آن : " عرفت من حديثه معى أنه قام بتأجيل المحاكمة إلى الأسبوع القادم ، وإذا لم يكن قد وصل بعد إلى نيو بيرن ، فهو على أقل تقدير قريب من هنا " .

فسألتها : " ماذا قلت له ؟ " .

قالت : " لم أقل له شيئاً ، ولكنه يعلم ؛ فقد استطاع أن يكتشف الأمر بنفسه ، ولا يزال يذكر حديثي معه عن نوا منذ وقت طويل مضى " .

ازدردت آلي لعابها بصعوبة وهي تسألها : " هل أخبرته بأني هنا ؟ " .

قالت : " كلا ، لا يمكنني أن أفعل ذلك ؛ فهذا الأمر يخصك أنت وهو ، ولكن لأني أعرفه ، فإنا واثقة من أنه سيجدك إذا ما بقيت في هذا المكان ، فالأمر لم يتطلب مني أكثر من مكالمتين للأشخاص المناسبين ، وبعد ذلك استطعت العثور عليك " .

وعلى الرغم من القلق الذي بدا واضحاً على وجه آلي ، إلا أنها ابتسمت لوالدتها وقالت لها : " شكراً لك " .

أمسكت والدتها بيدها ثم قالت : " أعلم أننا نختلف كثيراً يا آلي وأن كلاً منا ينظر بطريقة مختلفة إلى الأشياء ، وأنا لست إنسانة مثالية ، ولكني بذلت كل ما في وسعي لتربيتك ؛ فأنا والدتك وسأظل هكذا إلى آخر العمر ، ومعنى ذلك أن حبي لك لن يتغير مطلقاً " .

ظلت آلي صامتة للحظة ثم سألتها : " وما الذي ينبغي عليَّ فعله ؟ " .

قالت : " لا أعرف يا آلي فالأمر يخصك أنت وحدك ، ولكني سأفكر فيه معك ، وعليك أن تفكري فيما تريدينه حقاً " .

تحولت آلي بنظرها بعيداً ، وكانت عيناها مخضبة بالحمرة ، وبعد لحظة سالت دمعة من فوق وجنتها .

وكان صوتها ضعيفاً وهي تقول : " لا أعرف ... " ، فشددت والدتها على يدها ، ونظرت آن إلى نوا ، وهو يجلس ورأسه منحنٍ إلى أسفل ، ويستمع لما يقال بحرص شديد ، ونظر إليها في نفس اللحظة ، ثم هز رأسه وغادر الغرفة .

وبعدما خرج ، همست آن إليها قائلة : " هل تحبينه ؟ " .

ردت آلي بصوت رقيق : " نعم أحبه كثيراً " .

فسألتها : " هل تحبين لون ؟ " .

فقالت : " نعم أحبه كثيراً أيضاً ، ولكن بطريقة مختلفة ؛ فأنا لا أشعر معه بنفس الإحساس الذي أشعر به مع نوا " .

قالت والدتها : " لا يستطيع أحد فعل ذلك " .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

ثم تركت يدها وقالت : " لن يمكننى أخذ هذا القرار بدلاً منك يا آلى ؛ فهو قرار يخصك وحدك ، وأريدك أن تعرفى على الرغم من كل شىء أنى أحبك ، وسأظل أحبك ، وأعرف أن ذلك لن يفيدك فى شىء ، ولكن ذلك هو كل ما يمكننى فعله " .

وأمسكت بحقيبة يدها وأخرجت منها حزمة من الخطابات ملفوفة بخيط ، وكانت أظرفها قديمة ويميل لونها إلى الصفرة قليلاً .

وقالت : " هذه هى الخطابات التى أرسلها نوا إليك ، لم أتخلص من أى منها ، ولم أحاول حتى قراءتها ، ولكنى كنت فقط أحاول حمايتك . ولم أدرك ... " .

أمسكت آلى بالخطابات وأخذت تمرر يدها فوقها وهى فى حالة من الذهول !!

قالت الأم : " علىَّ أن أذهب يا آلى ؛ فأنت بحاجة إلى اتخاذ القرار السليم ، ولم يعد أمامك الوقت الكافى ، فهل تريدين منى البقاء فى المدينة ؟ " .

هزت آلى رأسها بالنفى وقالت : " كلا ؛ فهذا الأمر أريد أن أفكر فيه وحدى " .

هزت آن رأسها ، ثم ظلت لبعض الوقت تنظر إلى ابنتها بنظرة تحمل الكثير من التساؤلات ، وأخيراً ،

هبت واقفة ، وسارت حول الطاولة ، واستطاعت أن ترى فى عين آلى وهى تهم بالوقوف من أمام الطاولة لتعانقها سؤالاً حائرًا .

وسألتها والدتها بعدما عانقتها : " ما الذى تنوين فعله ؟ " .

وبعدما مرت لحظة طويلة من الصمت . أجابتها آلى أخيراً : " لا أعرف ! " ، واستمرتا فى الوقوف لدقيقة أخرى تعانق كل منهما الأخرى .

وقالت آلى : " شكراً لقدومك . أحبك كثيراً يا أمى " .

قالت الأم : " وأنا أيضاً أحبك " .

وفى أثناء خروجها من الباب ، ظنت آلى أنها سمعت والدتها تهمس إليها قائلة : " اتبعى قلبك " ، ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك .

عند مفترق الطرق

فتح نوا الباب لآن نيلسون وهى تغادر المكان .

قالت له بصوت هادئ : " وداعاً يا نوا " . هز رأسه دون أن يتحدث ، فكل منهما يعرف أنه ليس هناك شيء آخر يمكن قوله ، والتفتت من أمامه وغادرت المكان . ظل نوا يشاهدها وهى تتجه إلى سيارتها لتركبها ، وتقودها دون أن تنظر وراءها ، وقال لنفسه إنها امرأة قوية حقاً ، وعرف من أين اكتسبت آلى كل هذه القوة .

نظر نوا خلسة إلى غرفة المعيشة ، فرأى آلى تجلس وهى تحنى رأسها إلى أسفل ، ثم ذهب إلى الشرفة الخلفية ؛ لأنه شعر بأنها فى حاجة لأن تظل وحدها . وجلس فى هدوء على الكرسى الهزاز وهو يشاهد المياه تنساق مع التيار بمرور الوقت .

وبعدما مضى بعض الوقت بدا له وكأنه دهر من الزمن . سمع صوت الباب الخلفى وهو يفتح ، فلم

يلتفت لينظر إليها على الفور - ولسبب ما لم يستطع - وسمعها وهى تجلس على المقعد إلى جواره .

قالت : " أنا آسفة لم تكن لدى أدنى فكرة أن ذلك كان سيحدث " .

هز نوا رأسه وقال : " لا تأسفى على شىء ؛ فكل منا يعرف أنه كان سيحدث لا محالة " .

قالت : " ولكنه لا يزال صعباً " .

فالتفت أخيراً لها وأمسك بيدها وقال : " أعرف ذلك ، هل هناك شىء بإمكانى فعله لأسهل عليك الأمر ؟ " .

فهزت رأسها وقالت : " كلا ، ليس تماماً ، فعلىَّ القيام به وحدى ، بالإضافة إلى أننى لست متأكدة مما سأقوله له حتى الآن " ، ثم نظرت إلى أسفل وقد أصبح صوتها هادئًا وأكثر عمقاً ، وكأنها تتحدث إلى نفسها وقالت : " أعتقد أن المسألة تتوقف على قدر ما عرفه . إذا كانت والدتى على حق ، فربما تكون لديه بعض الشكوك ، ولكنه غير متأكد من شىء " .

أحس نوا بألم فى معدته ، وعندما تحدث فى آخر الأمر كان صوته هادئًا ، ولكنها أحست بأنه يتألم .

وقال : " لن تقولى له شيئاً عنا ، أليس كذلك ؟ " .

قالت : " لا أعرف ! لا أعرف حقاً ! فبينما كنت جالسة فى غرفة المعيشة ، أخذت أسأل نفسى عن الشىء الذى أريده حقاً فى حياتى " ، ثم أردفت قائلة : " وهل عرفت ماذا كانت الإجابة ؟ الإجابة هى أنى أريد أمرين فى حياتى : الأول ، أريدك أنت . أريد أن تستمر علاقتنا ؛ فأنا أحبك وسأظل دوماً أحبك " .

ثم أخذت نفساً عميقاً قبل أن تكمل حديثها :

" ولكنى أريد نهاية سعيدة دون أن أؤذى مشاعر أحد ، وأعرف أنى إذا ظللت هنا ، فهناك أشخاص سيتألمون لذلك ، وعلى الأخص لون ، فأنا لم أخدعك عندما قلت لك إنى أحبه ، ولكنى لا أشعر معه بنفس الإحساس وأنا معك ، ولكنى أهتم به ، وسيكون ذلك ظلمًا له ، ولكن البقاء هنا سوف يجرح عائلتى وأصدقائى ، وأعرف أن الجميع سيعتبر ذلك خيانة منى لهم ... ولا أعرف إذا ما كنت أقدر على التعايش مع ذلك أم لا ؟! " .

قال : " لا ينبغى لك أن تعيشى حياتك من أجل الآخرين ، وعليك أن تتصرفى حسبما ترين أنه الأنسب لك " .

قالت : " أعرف ذلك ، ولكن مهما كان اختيارى فعلىَّ أن أتحمل النتائج إلى الأبد ، وأن أمضى إلى الأمام ، ولا أنظر إلى الوراء مطلقاً . هل تفهم ذلك ؟ " .

فهز رأسه وقال وهو يحاول أن يحتفظ بهدوء صوته : " ليس تماماً . لا أفهمه إذا كان ذلك يعنى خسارتك ؛ فلن يمكننى تحمل ذلك من جديد " .

فلم تقل شيئاً ولكنها أحنت رأسها .

وأكمل نوا حديثه :

" هل يمكنك حقًّا أن تتركينى دون أن تنظرى إلى الوراء ؟ " .

فعضت على شفتيها وهى تجيبه ، وكان صوتها قد بدأ يضعف : " لا أعرف ! ربما لا " .

وسألها : " هل يستحق لون منك ذلك ؟ " .

فلم تجبه على الفور ، وقامت من مكانها ، بدلاً من ذلك ، ومسحت وجهها ، ثم سارت إلى طرف الشرفة واستندت إلى عارضة موجودة هناك وظلت تشاهد المياه وهى عاقدة ذراعيها قبل أن تجيب فى هدوء قائلة :

" كلا " .

قال : " الأمر ليس كذلك يا آلى ؛ فنحن شخصان ناضجان الآن ، ولدينا حق الاختيار الذى حرمنا منه من قبل ، ومن المفترض أن نظل معاً كما كنا من قبل " .

وسار متجهاً إليها وقال : " لا أستطيع أن أعيش بقية حياتى أفكر فيك وأحلم بما يمكن أن يحدث ، ابقى معى يا آلى " .

وبدأت الدموع تنهمر من عينها وهمست له أخيراً : " لا أعرف إذا كان بإمكانى ذلك " .

فقال : " يمكنك يا آلى ... فلن أستطيع العيش فى سعادة وأنا أعلم أنك مع شخص آخر ؛ فهذا سوف يقتل جزءًا منى . إن الذى جمع بيننا شىء نادر وجميل ولا يمكننا أن نتخلص منه "

فلم تجبه ، وبعد لحظة اغرورقت عيناها بالدموع ، وبعد فترة صمت طويلة ، نظر نوا إلى وجهها نظرة حانية ، واختنق صوته عندما رأى دموعها .

وابتسم لها قليلاً وقال : " سترحلين من هنا ، أليس كذلك ؟ أنت ترغبين فى البقاء ، ولكنك لن تستطيعى " .

قالت والدموع لا تزال تنهمر من عينيها : " آه يا نوا ، أرجوك حاول أن تفهمنى ... " .

فهز رأسه ليوقفها عن الكلام .

وقال : " أنا أفهم ما تحاولين قوله ، وأستطيع أن أرى ذلك فى عينيك ، ولكنى لا أحب أن أتفهمه ، ولا أريد أن تنتهى علاقتنا بهذه الطريقة ، بل أريدها أن

تنتهى على الإطلاق ، ولكنك إن تركتنى فكلانا يعرف أننا لن نتقابل من جديد " .

فبدأت تبكى بشدة بينما حاول " نوا " أن يحبس دموعه .

وقال :

" لا يمكننى إجبارك على البقاء معى يا آلى ، ولكن مهما يحدث فى حياتى ، فلن أنسى هذين اليومين اللذين قضيتهما معك ؛ فقد ظللت أحلم بهما طوال حياتى " .

قالت آلى : " علىَّ أن أذهب لأرتب أشيائى " .

لم يصحبها إلى الداخل ، ولكنه بدلاً من ذلك جلس على الكرسى الهزاز وهو خائر القوى ، وظل يراقبها وهى تدخل المنزل ويستمع لأصوات حركتها حتى اختفت تماماً ، وخرجت من المنزل بعد لحظات وهى تحمل معها كل ما جاءت به ، وسارت تجاهه وهى تحنى رأسها إلى أسفل ، وأعطته اللوحة التى رسمتها فى صباح الأمس ، وبينما كان يمد يده ليأخذها ، لاحظ أنها لم تتوقف عن البكاء .

قالت : " تفضل يا نوا ؛ لقد رسمتها من أجلك " .

أمسك نوا باللوحة وفتحها ببطء وبحرص شديدين حتى لا يمزقها .

وكانت تتألف من صورتين متداخلتين . فالصورة الأمامية التى تشغل معظم اللوحة كانت صورة شخصية بشكله الآن ، وليس من أربعة عشر عاماً ، ولاحظ نوا أنها وضعت كل تفاصيل وجهه ، ومن بينها الندبة ، وكأنها قد نقلتها عن صورة حديثة له .

أما الصورة الثانية فكانت لواجهة المنزل ، وكانت التفاصيل هنا كذلك مذهلة ، وكأنها رسمتها وهى جالسة تحت شجرة البلوط .

فقال وهو يحاول أن يبتسم : " كم هى جميلة يا آلى ! شكراً لك ، لقد قلت لك من قبل إنك فنانة حقيقية " ، فهزت رأسها ، وكان وجهها لا يزال مطرقاً إلى أسفل ، وشفتاها مضمومتين ؛ فقد حان وقت رحيلها .

وسار كل منهما إلى السيارة فى بطء شديد دون التحدث بأية كلمة ، وعندما وصلا إلى هناك أحس بأن عينيه قد اغرورقتا بالدموع .

قال وهو يبكى : " أحبك يا آلى " .

قالت : " وأنا أحبك أيضاً " .

وفتح نوا باب السيارة لها فجلست وراء عجلة القيادة ، وهى لا تلتفت بنظرها بعيداً عنه ، ووضعت على المقعد المجاور لها مجموعة الخطابات وحقيبة

يدها ، وتحسست بيدها موضع المفاتيح ، ثم بدأت تشغيل السيارة ، فتحركت على الفور ، وبدأ يدور المحرك بلا هوادة ، وكان ذلك هو موعد الرحيل المناسب .

أغلق نوا باب السيارة بكلتا يديه ، وفتحت آلى النافذة ، واستطاعت أن ترى عضلات ذراعيه ، وابتسامته العذبة ، ووجهه المخضب بالسمرة .

حرك نوا شفاهه لها دون أن يصدر أى صوت قائلاً : " ابقى معى " ، وسبب ذلك لآلى شعوراً بالألم لم تكن تتوقعه ، فبدأت الدموع تنهمر من عينيها ، ولكنها لم تستطع أن تتحدث ، وبعد تردد التفتت أخيراً بعيداً عنه ، واستعدت للتحرك بالسيارة ، وخففت من ضغطها على البدال ، وعاد نوا بظهره قليلاً عندما بدأت السيارة فى التحرك .

وسقط فى حالة أشبه بالغيبوبة عندما أدرك حقيقة الموقف ، وظل يشاهد السيارة وهى تتحرك إلى الأمام ببطء ؛ وسمع أصوات الحصى وهى تسحق أسفل عجلاتها ، وفى بطء شديد بدأت السيارة تتحول من أمامه لتتجه إلى الشارع المؤدى إلى المدينة . لقد رحلت ! وهى تمضى فى طريق العودة ! وأحس نوا بدوار عندما رأى ذلك المنظر .

استمرت فى تحركها إلى الأمام ... وقد تجاوزته الآن ... ولوحت بيدها للمرة الأخيرة من غير أن تبتسم قبل أن تزيد من سرعتها ، فلوَّح لها بيده فى وهن شديد ، وأراد أن يصيح بأعلى صوته بينما كانت السيارة تتحرك لمسافة أبعد " لا ترحلى ! " ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ومضت السيارة بعد لحظة قصيرة ، ولم تترك وراءها سوى الآثار التى طبعتها على الأرض .

وقف نوا فى مكانه وظل هكذا دون أن يتحرك لفترة طويلة من الوقت ، فكما جاءت إليه سريعاً ، رحلت عنه بنفس السرعة ، ولكنها رحلت إلى الأبد فى هذه المرة .

وعند ذلك أغمض عينيه وتخيلها وهى ترحل مرة أخرى ، وسيارتها تمضى فى ثبات بعيداً عنه ، وقد أخذت قلبه معها .

ولكنه شعر بحزن عندما أدرك أنها لم تلتفت وراءها مطلقاً ، تماماً مثلما فعلت والدتها .

خطاب من الأمس

كانت القيادة صعبة عليها بكل تلك الدموع التى اغرورقت بها عيناها ، ولكنها مضت فى طريقها على أية حال ، على أمل أن تعيدها فطرتها السليمة إلى الفندق ، وقد تركت النافذة مفتوحة لأنها حسبت أن الهواء العليل يمكنه أن يصفى ذهنها ، ولكنه لم يكن مسعفاً لها ، ولم يكن ليسعفها أى شىء آخر .

فقد كانت متعبة ، وتساءلت عما إذا كانت تمتلك القوة اللازمة للتحدث إلى لون ، وما الذى ستقوله ؟ فهى لا تزال تبحث عن شىء تقوله ، وتأمل أن تجده عندما يحين الوقت .

فلابد أن يحدث ذلك .

وعند ذلك كانت قد وصلت إلى الجسر المتحرك المؤدى إلى الشارع الأمامى ، وظنت أنها الآن تسيطر على نفسها أفضل من السابق . ليس بشكل تام ، ولكنه

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

كافٍ للتحدث إلى لون ، أو على الأقل كانت تتمنى ذلك .

لم يكن الطريق مزدحماً ، فوجدت لديها الوقت وهى تقود سيارتها فى شوارع نيو بيرن لمراقبة المارة وهم ذاهبون إلى أعمالهم ، وعند محطة البنزين ، شاهدت ميكانيكيًا وهو ينظر أسفل غطاء المحرك لسيارة جديدة ، بينما يقف إلى جواره رجل ، من المحتمل أن يكون صاحبها ، كما شاهدت امرأتين تدفعان عربتى أطفال أمام متجر هوفمان ـ لان ، وتتحدثان معاً فى أثناء مشاهدتهما لواجهات المتاجر ، ومن أمام متجر مجوهرات هيرنز ، كان هناك رجل أنيق الملبس يسير بنشاط ويحمل فى يده حقيبة .

واتخذت منعطفاً آخر فرأت شابًا يعمل على تفريغ حمولة من البقالة من شاحنة تسد جزءًا من الشارع ، وكان هناك شىء فى طريقة سيرة ، أو فى حركاته ، يذكرها بنوا وهو يصطاد السرطانات البحرية عند مؤخرة رصيف الميناء .

ورأت الفندق عند أول الشارع بينما كانت لا تزال واقفة فى الإشارة الحمراء ، وتنفست بعمق عندما تحول لونها إلى اللون الأخضر ، وقادت السيارة ببطء حتى وصلت إلى ساحة الانتظار التى يشترك فيها الفندق مع

بعض المؤسسات التجارية الأخرى ، فتحولت إليها ورأت سيارة لون واقفة فى الصف الأول . وعلى الرغم من أن المكان المجاور لها كان شاغراً ، إلا أنها تخطتها واختارت مكانًا آخر بعيدًا عن المدخل .

أدارت المفتاح ، فتوقف المحرك على الفور ، وبعد ذلك مدت يدها إلى داخل صندوق القفازات لتبحث عن مرآة وفرشاة للشعر ، ووجدتها فوق خريطة لشمال كارولينا ، وعندما نظرت إلى نفسها فى المرآة ، وجدت أن عينيها لا تزال حمراوين ومنتفختين ، وكما حدث معها بالأمس بعد المطر ، شعرت بالأسى عندما رأت صورتها فى المرآة لأنها لم تحضر معها أيًا من أدوات الزينة ، على الرغم من أنها لا تظن أنها قد تنفعها كثيراً فى ذلك الوقت ! وحاولت تصفيف شعرها إلى الوراء ، ثم على جانب وجهها ، ثم حاولت تصفيفه على الجانب الآخر ، ولكنها توقفت عن ذلك فى النهاية .

وأمسكت بحقيبتها ، وفتحتها ، ومن جديد نظرت إلى المقالة التى جاءت بها إلى هنا ، فهناك أحداث كثيرة قد وقعت منذ ذلك الحين ؛ ولا يمكن لأحد أن يصدق أنها ثلاثة أسابيع فقط ، فهى لا تستطيع أن تصدق أنها وصلت إلى هنا منذ يومين فقط ، فقد أحست

أنها عاشت عمراً بأكمله منذ الأمسية الأولى التى قضتها مع نوا .

سمعت صوت شقشقة طيور الزرزور من فوق الأشجار المحيطة بها ، وبدأت السحب تتفرق الآن ، وتمكنت آلى من رؤية السماء الزرقاء من بين قطع السحب البيضاء ، وكانت الشمس لاتزال مختبئة قليلا ، ولكنها كانت تعلم أن هذا اليوم سيكون جميلاً ، والأمر لن يتطلب سوى بعض الوقت .

فقد كانت تحب أن تقضى يومًا مثل هذا مع نوا ، وعندما فكرت فى نوا ، تذكرت الخطابات التى أعطتها لها والدتها ومدت يدها لتحضرها .

فتحت الشريط الذى لُفت به مجموعة الخطابات ، ووجدت الخطاب الأول الذى أرسله لها ، وبدأت فى فتحه ، ثم توقفت لأنها استطاعت أن تتخيل ما بداخله ؛ فهى بلا شك أشياء بسيطة قام بها ، ذكريات لصيف مضى ، وربما بعض التساؤلات . بالإضافة إلى أنه كان يتوقع منها الإجابة عليها ، وقامت بدلاً من ذلك بفتح آخر خطاب له ، وهو الخطاب الموجود فى أسفل الحزمة ، وهو أيضاً خطاب الوداع ، فهذا الخطاب له أهمية كبرى لديها أكثر من باقى

الخطابات . فكيف استطاع أن يقول كلمة الوداع ؟ وكيف كان يمكنها هى أيضًا أن تقولها ؟

لم يكن الظرف سميكاً ، ربما كان الخطاب مكونًا من صفحة أو صفحتين . إذن فهو لم يكتب خطابًا طويلاً . فنظرت أولاً إلى ظهر الخطاب فوجدته لا يحمل اسمًا ، بل مجرد عنوان شارع فى نيو جيرسى ، فحبست أنفاسها وهى تحاول فتحه بظفرها .

وعندما فتحته وجدت تاريخه يرجع إلى مارس من عام ١٩٣٥ .

عامان ونصف عام من غير أن يحصل على رد .

وتخيلته وهو جالس على مكتبه القديم ، وينحت على الورق كلمات هذا الخطاب ، وهو يعرف أنها النهاية ، ورأت ما تخيلته آثار دموع على الورقة ، وربما يكون ذلك ما صوره لها خيالها .

فتحت الورقة وبدأت فى القراءة على ضوء الشمس الخافت الذى يأتيها من النافذة .

عزيزتى " آلى "

لا أعرف ما الذى أقول بعد كل ذلك سوى أننى لم أستطع النوم ليلة أمس لأنى أدركت أن ما بيننا قد انتهى ؛ فهو شعور مختلف بالنسبة لى ، لم أكن أتوقعه مطلقاً ، ولكن عندما أعود بذاكرتى إلى الوراء ،

أتصور أنه كان لابد أن ينتهى على هذه الصورة . فأنت وأنا مختلفان ، وكل منا له عالمه المختلف ، ومع ذلك فأنت الشخص الوحيد الذى تعلمت منه قيمة الحب . وأنت من علمتنى معنى أن أكون حريصاً على شخص آخر ، وهى الصفة التى جعلت منى إنسانًا بمعنى الكلمة ، فلا أريدك أن تنسى ذلك مطلقاً .

أنا لست حزينًا بسبب ما حدث ، فعلى العكس تماماً ، أنا مرتاح البال لأنى عرفت أن ما كان بيننا هو إحساس صادق ، وسعيد لأننا تقابلنا حتى ولو لفترة قصيرة من الوقت ، وإذا حدث ، فى مكان ما فى المستقبل ، أن تقابلنا مرة أخرى فى حياتنا الجديدة ، فسوف أبتسم لك فى فرح ، وأتذكر كيف قضينا ذلك الصيف تحت الأشجار ، يتعلم كلانا من الآخر ، ويزداد حبنا ، وربما تشعرين أنت بذلك أيضا ، ولو للحظات قصيرة ، بمثل هذا الشعور ، وتبتسمين لى ، وتبتهجين بذكريات ستظل تجمع بيننا إلى الأبد .

أحبك يا آلى

نوا

قرأت الخطاب من جديد ، ولكن ببطء فى هذه المرة ، ثم قرأته لمرة ثالثة قبل أن تعيده إلى المظروف . ومرة أخرى ، تخيلته وهو يكتبه ، وفكرت للحظة أن

تقرأه للمرة الرابعة ، ولكنها أدركت أنها لا يمكنها أن تتأخر أكثر من ذلك ؛ لأن لون ينتظرها .

وشعرت بأن قدميها تعجزان عن حملها وهى تخرج من السيارة ، فتوقفت للحظة وتنفست بعمق ، وعندما بدأت فى السير وسط ساحة الانتظار ، تذكرت أنها حتى هذه اللحظة لا تعرف ماذا ستقول !

ولم تأت لها الإجابة أخيراً إلا عندما وصلت إلى باب الفندق وفتحته ورأت لون واقفاً فى الردهة .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

شتاء لاثنين

انتهت القصة عند هذا الحد ، ولهذا أغلقت المفكرة ، ورفعت النظارة من على وجهى لأمسح عيناى ، فقد كانتا مرهقتين ومحتقنتين بالدم ، ولكنهما لم يخذلانى حتى الآن ، مع أنى متأكد من أن ذلك على وشك أن يحدث . فليس مقدراً لى ، ولا لها أن نظل فى أحسن حال إلى الأبد ، ونظرت إليها الآن عندما انتهيت ، ولكنها لم تكن تنظر إلىّ ، وكانت بدلاً من ذلك تنظر من خلال النافذة إلى ساحة الدار ؛ حيث يلتقى الأهل والأصدقاء .

وتبعتها عيناى ، وجلسنا نراقب الساحة معاً ؛ ففى خلال كل تلك السنوات لم يتغير نمط الحياة اليومى فى هذا المكان ، فهناك ساعة مخصصة فى الصباح للإفطار ، وبعدها يبدأ الزوار فى التوافد : شباب صغير يأتى بمفرده ، أو عائلة بأكملها تأتى لزيارة من يعيشون هنا ، وغالباً ما يأتون ومعهم صور فوتوغرافية وهدايا ،

ويجلسون على المقاعد ، أو يتنزهون على طول الطريق المصفوف بالأشجار الذى صمم خصيصًا ليضفى على المكان روح الطبيعة . البعض منهم يظل هنا طوال اليوم ، ولكن معظمهم يغادر بعد ساعات قليلة ، وعندما يرحلون ، أشعر دائماً بالحزن على هؤلاء الذين تركوهم وراءهم ، وأتساءل أحياناً عما يشعر به أصدقائى عندما يرون أحباءهم وهم يغادرون ، ولكنى أعلم أن هذا الأمر لا يخصنى ، ولم أجرؤ يوماً على سؤالهم ؛ لأنى أعلم أن لكل منا الحق فى الاحتفاظ بأسراره .

ولكنى سأخبركم ببعض من أسرارى بعد قليل .

وضعت المفكرة والعدسة المكبرة على الطاولة التى إلى جوارى ، وأنا أشعر بالألم ينخر عظامى ، ولاحظت مرة أخرى أن جسدى يرتعد من شدة البرد ، فحتى القراءة تحت أشعة الشمس فى الصباح لم تمنع ذلك . وعلى الرغم من كل شىء لم يدهشنى ذلك ؛ لأن جسدى أصبح الآن تحكمه قوانينه الخاصة فى هذه الأيام .

ومع ذلك فأنا لست سيئ الحظ تماماً ؛ فمن يعملون فى هذا المكان يعرفوننى ، ويعرفون علاّتى ، ويبذلون كل ما فى طاقتهم لراحتى ، وهم يضعون لى إبريقاً من الشاى الساخن على الطاولة الصغيرة أحمله بكلتا يدى .

لقد أصبحت أبذل مجهوداً كبيراً لأصب فنجاناً من الشاى ، ولكنى أقوم بذلك لأنه يساعدنى على الشعور بالدفء ، هذا المجهود يساعدنى على أن أتجنب الإحساس بالوهن ، ولكنى من غير شك أشعر به الآن فقد أصيب جسدى بالعطب مثل سيارة خردة ظلت عشرين عاماً داخل مستنقع .

كنت أقرأ لها فى هذا الصباح ، تماماً مثلما أفعل فى كل صباح لأن ذلك شىء لابد أن أفعله ، ليس لأنه واجب فُرِضَ علىَّ ، علىَّ الرغم من تصورى أن حالتها تستدعى ذلك ، ولكن لسبب آخر أكثر رومانسية ، وأتمنى لو أستطيع توضيحه لكم الآن ، ولكن لم يحن الوقت بعد ! والحديث عن المشاعر لم يعد ممكنًا قبل الغداء ، على الأقل بالنسبة لى ، بالإضافة إلى أننى ليس لدى أية فكرة عما يمكن أن يحدث بعد ذلك ، ولكى أكون أميناً معكم ، لم أعد أعلّق آمالاً عريضة على شىء .

نحن نقضى كل يوم معاً ، ولكن كل منا يقضى فترة الليل وحيداً ؛ فقد أخبرنى الأطباء بأنه لن يُسمَح لى برؤيتها فى المساء ، وعلى الرغم من أنى أتفهم هذه الأسباب تماماً ، وأوافقهم الرأى ، إلا أننى لا ألتزم أحياناً بهذه القواعد ؛ ففى وقت متأخر من

الليل ـ عندما تتحسن حالتى المزاجية ـ أخرج خلسة من غرفتى لأذهب إليها وأراقبها وهى نائمة ، وهى لا تعلم شيئاً عن ذلك ، وكنت أدخل إلى الغرفة وأراها وهى تتنفس فى هدوء ، وأعلم أنه لولاها لما تزوجت مطلقاً . وعندما كنت أنظر إلى وجهها ـ الذى أعرفه أكثر من وجهى ـ أدرك أننى أعنى لها مثلما تعنى هى لى وأكثر ، وهذا الإحساس يعنى لى الكثير حتى إننى لا أستطيع وصفه .

وأحياناً أفكر وأنا واقف هنا ، بأنى شخص محظوظ لأنى تزوجتها منذ سنوات طوال ، فسوف تتم العام التاسع والأربعين فى الشهر القادم ، لقد كانت تسمعنى وأنا أغط فى النوم لخمسة وأربعين عاماً ، ولكن منذ ذلك الحين ينام كل منا فى غرفتين منفصلتين . لا أستطيع النوم جيداً وأنا بعيد عنها ، وأظل أتقلب يميناً ويساراً وأنا أشتاق إلى دفئها طوال الليل ، وعيناى مفتوحتان ، وأراقب الظل وهو يرقص فى سقف الغرفة مثل النباتات الشوكية التى تتدحرج عبر الصحراء . وأنام لساعتين إذا حالفنى الحظ ، ولكنى ما أزال أصحو قبل الفجر ، ولا أجد تفسيراً لذلك !

وأعرف أن ذلك سينتهى قريباً ، ولكنها لا تدرك هذا الأمر ، فقد أصبح ما أدونه فى مفكرتى قليلاً جداً ،

ولا يتطلب منى سوى القليل من الوقت ؛ فمذكراتى أصبحت بسيطة الآن لأن روتين حياتى اليومية لا يختلف كثيراً ، ولكنى أظن أننى سأدون الليلة قصيدة أعطتها لى واحدة من المرضات اعتقدتْ أنها ستعجبنى . كلماتها تقول :

لم يحدث أن صادفنى حب عذب من قبل
فوجهها الناضر الذى يشبه الزهرة الجميلة
سلب منّى قلبى ورحل بعيداً .

ولأن المساء هو الوقت الذى أملكه ، فقد طُلب منى القيام بزيارة الآخرين ، وعادة ما كنت أفعل ذلك ، فقد أخبرونى بأننى الشخص الوحيد الذى يقرأ لهم ، ويرغب الجميع فى صحبتى . فكنت أسير فى الطرقات وأختار المكان الذى سأذهب إليه لأننى لا أستطيع وأنا فى هذه السن أن أخصص لنفسى جدولاً ، ولكننى أعرف من تلقاء نفسى من هم بحاجة إلىَّ . فهؤلاء أصدقائى ، وعندما كنت أطرق أبواب حجراتهم ، أراها مثل حجرتى ؛ فهى دائماً شبه مظلمة ، لا يشع فيها سوى ضوء شاشة التلفاز ، والأثاث هو نفسه فى كل

www.rewity.com ^RAYAHEEN^ RAYAHEEN

الحجرات ، وصوت التلفاز العالى لأن الجميع يعانى من ضعف السمع .

وعندما كنت أدخل إليهم كانوا جميعاً - رجالاً ونساءً - يبتسمون ويتحدثون إلىَّ بصوت منخفض وهم يغلقون التلفاز ويقولون : " سعدنا بقدومك " . ويسألوننى عن زوجتى ، وكنت أتحدث عنها أحياناً أمامهم ، فكنت أحدثهم عن عذوبتها وسحرها ، وأصف لهم كيف تعلمت منها أن ألاحظ الجمال فى الطبيعة . أو أحدثهم عن سنوات حبنا الأولى وأصف لهم إحساسنا بأننا نملك الدنيا بأسرها عندما كنا نجلس جنباً إلى جنب ، ومن فوقنا النجوم فى سماء الشمال ، وفى بعض الأحيان كنت أحدثهم عن مغامراتنا ، ومعارض الفنون التى زرناها فى " نيويورك " ، و " باريس " ، أو النقاد الذين يكتبون بلغة مبالغ فيها لم أكن أفهمها ، وفى معظم الأوقات كنت أبتسم لهم وأخبرهم بأنها أيضاً لم تكن تفهم شيئاً ، فكانوا يلتفتون بعيداً عنى ، وكنت أعلم أنهم يخفون وجوههم عنى ؛ لأنى أذكرهم بفنائهم ، ولهذا كنت أجلس معهم ، وأقرأ لهم حتى تزول عنهم مخاوفهم :

كن مطمئناً ، ولا تخش منى ...

فلن أحرمك طالما لم تحرمك الشمس ، ومياه الأنهار لم ترفض بعد أن تتلألأ من أجلك ، وأوراق الأشجار لم تكف عن حفيفها من أجلك ، فلن تتوقف كلماتى على أن تتلألأ أو تتمايل من أجلك .

وقرأت لهم ، حتى يعرفوا من أكون .

إنى أهيم طوال الليل فى أحلامى ، ....
وأميل برأسى ، وعيناى اليقظتان تراقبان العيون المغمضة للنائمين .
أهيم وأنا ضائع ومضطرب ،
ونفسى حائرة بين المتناقضات ،
فأتوقف ، وأتأمل ، وأحنى رأسى ، ثم أتوقف من جديد .

وتصاحبنى زوجتى حينما تكون فى حالة جيدة فى نزهاتى المسائية ، فالشعر واحد من الأشياء التى تعشقها ، وعندما أعود بذاكرتى إلى بعض عشاق الكلمة وصانعى اللغة من أمثال : توماس ، وويتمان ، واليوت ، وشكسبير ، والنبى داود صاحب المزامير ،

أشعر بالدهشة من ولعى بهم ، وأحياناً ما أشعر بالندم الآن على تعلقى بهم ؛ فالشعر يمنح الحياة جمالاً فريداً ، ولكنه يجلب لها أيضاً التعاسة ، وأظن أن هذه المبادلة ليست عادلة لشخص فى سنى ، فعلى الإنسان أن يستمتع بأشياء أخرى كثيرة ؛ وأن يقضى أيامه الأخيرة تحت ضوء الشمس ، أما من هم مثلى فيقضونها بجوار مصباح القراءة .

سرت متثاقلاً إليها وجلست على المقعد بجوار سريرها ، وأحسست بالألم فى ظهرى وأنا جالس . وتذكرت للمرة المائة أن أحضر وسادة جديدة لهذا المقعد ، ومددت يدى نحوها لأمسك يدها النحيلة التى لا تزال تحتفظ بجمالها . وعرفت من رعشة جسمها أنها قد أحست بوجودى ، وبدأت أحس بإصبعها يحك يدى بنعومة ، فقد تعلمت ألا أنطق بكلمة إلا عندما تفعل ذلك ، وفى معظم الأيام أظل جالساً أمامها فى صمت حتى تغرب الشمس ، ولا يتسنى لى معرفة شىء عنها .

مرت دقائق قبل أن تنظر إلى فى آخر الأمر ، وكانت تبكى ، فابتسمت لها وتركت يدها ؛ لأفتح حقيبتى

وأخرج منها منديلاً لأمسح به دموعها . ظلت تنظر إلىَّ بينما أقوم بذلك ، وتساءلت فى أى شىء كانت تفكر ؟

وقالت : " إنها قصة جميلة حقاً " .

بدأت قطرات مطر خفيفة تسقط على النافذة ، فأمسكت بيدها من جديد ، فهذا اليوم سيكون فى غاية الروعة والسحر ، ولم أستطع إخفاء ابتسامتى .

وقلت : " نعم ، هى كذلك " .

وسألتنى : " هل أنت كاتبها ؟ " . وكان صوتها الخافت يشبه صوت النسيم وهو يداعب أوراق الأشجار .

فأجبتها : " نعم " .

التفت ناحية الطاولة المجاورة لسريرها والتى وضع عليها كوب صغير به دواؤها ، وكوب آخر لى ، وأقراص صغيرة ملونة مثل قوس قزح حتى لا ننسى تناولها ؛ فقد أحضروا دوائى إلى غرفتها ، مع أن ذلك غير مفترض الحدوث .

قالت : " لقد سمعتها من قبل ، أليس كذلك ؟ " .

فقلت من جديد : " نعم " ، كما اعتدت أن أفعل فى مثل هذه الأيام ، وتعلمت أن أكون صبوراً .

كانت تحملق فى وجهى بعينيها الخضراوين اللتين تشبهان أمواج المحيط .

قالت إنها تخفف عنى شعورى بالخوف .

قلت وأنا أهز رأسى قليلاً : " أعرف ذلك " .

التفتت بنظرها بعيداً عنى ، وجلست أنتظرها مرة أخرى ، وتركت يدى ومدتها لتتناول كوب الماء الذى وضع على طاولة بجوار الدواء ، وتناولت منه رشفة واحدة .

اعتدلت قليلاً فى جلستها على السرير وتناولت رشفة أخرى ، وكان جسدها لا يزال قوياً ، وقالت : " هل هى قصة حقيقية ؟ أعنى ، هل تعرف هؤلاء الأشخاص ؟ " .

فقلت مرة أخرى : " نعم " ، ومع أنى أستطيع أن أقول المزيد - ولكنى لا أفعل عادة - فهى لا تزال جميلة ، وسألتنى فى وضوح : " حسناً ، فمن الذى تزوجته فى النهاية ؟ " .

فأجبتها : " تزوجت الشخص المناسب لها " .

قالت : " أى منهما ؟ " .

فابتسمت وقلت لها فى هدوء : " ستعرفينه فى نهاية اليوم " .

لم تكن قادرة على أن تستشف شيئاً من كلامى ، ولكنها لم تسألنى عن شىء بعد ذلك ، وبدأت تشعر بالملل وتفكر فى طريقة أخرى تسألنى بها ، ولكنها

لم تكن متأكدة ، وفضلت أن تؤجل هذا السؤال لدقيقة أخرى وتناولت واحداً من أكواب الدواء وقالت :

" هل هذا لى ؟ " .

ومددت يدى لأقرب كوب الدواء الآخر منها ، وقلت : " لا ، هذا لك " . فأنا لا أستطيع أن أحمله بيدى ، فتناولته ونظرت إلى أقراص الدواء ، وشعرت من الطريقة التى كانت تنظر بها بأنها لا تعرف السبب الذى تتناوله من أجله ، واستعنت بكلتا يدى حتى أمسك بالكوب الخاص بى وألقيت بأقراص الدواء دفعة واحدة فى فمى ، ففعلت مثلى تماماً وقد تم ذلك فى سهولة لأننا لم نتعارك اليوم . ابتلعت أقراص الدواء وشربت كوباً من الشاى بعدها على الفور لأخفف من مذاقه المر ، وأحسست بأن الجو قد أصبح بارداً . أما هى فقد ابتلعت أقراص الدواء فى طمأنينة تامة ، وشربت بعدها كوباً آخر من الماء .

سمعنا صوت طائر يشدو بغنائه خارج النافذة ، فالتفتنا نحوه ، وجلسنا فى صمت لفترة من الوقت ، لنستمتع بسماع صوته الجميل حتى اختفى صوته تماماً ، فتنهدت وقالت :

" كنت أود سؤالك عن شىء آخر " .

قلت : " سأحاول الإجابة عن سؤالك مهما كان " .

www.rewity.com ^RAYAHEENA^

قالت : " إنه سؤال صعب " .

لم تنظر إلى ، ولم أستطع رؤية عينيها ؛ فهذه هى الطريقة التى تستخدمها لتخفى أفكارها ، فبعض الطباع لا تتغير مهما حدث .

فقلت : " خذى وقتك كاملاً " ، فقد كنت أعرف سؤالها .

وأخيراً التفتت نحوى وقالت وهى تنظر فى عينى وتبتسم ابتسامة رقيقة ، مثل التى تتبادلها مع طفل صغير لا مع من تحب :

" لا أحب أن أجرح مشاعرك ؛ لأنك تعاملنى بكل لطف ، ولكن ... " .

وانتظرت ، وأنا أعرف أن كلماتها ستسبب لى جرحاً ، وتمزق قطعة من قلبى ، وتترك أثراً لن يزول إلى الأبد .

سألتنى : " من أنت ؟ " .

• • •

لقد عشنا فى دار كريكساید للرعاية المتكاملة للمسنين لمدة ثلاث سنوات حتى الآن ؛ فقد كان قرارها بأن نأتى إلى هنا يرجع فى بعض منه إلى قرب هذا المكان من منزلنا ، ولكن أيضاً لأنها اعتقدت أن ذلك سيكون أيسر بالنسبة لى ، فأغلقنا منزلنا لأن أحداً منا لن يتحمل قرار

بيعه ، ووضعنا توقيعاتنا على بعض الأوراق ، وحصلنا على هذا المكان لنعيش ونموت فيه مقابل التنازل عن جزء من حريتنا التى تمتعنا بها طوال حياتنا .

لقد كان قرارها فى الانتقال إلى هنا صائباً بالطبع ، ولم يكن بوسعى القيام به وحدى ؛ لأن المرض قد هاجمنا ، ونحن نعيش الآن الساعات الأخيرة من رحلة حياتنا ، وعقارب الساعة مستمرة فى دقاتها العالية ، وكنت دائماً أتساءل هل أنا الشخص الوحيد الذى يتسنى له سماعها ؟

سرى ألم شديد فى أصابعى ، وذكرنى فى هذا بأن أيدينا لم تتشابك منذ أتينا إلى هنا ، فأنا حزين لذلك . ولكن السبب يرجع إلىّ وحدى ؛ لأنى أعانى من التهاب المفاصل فى أسوأ حالاته ، ومن " الروماتويد " . فقد أصبح شكل يدىّ غريبًا ومشوهًا الآن ، وهما يرتجفان خلال معظم ساعات استيقاظى ، وعندما أنظر إليهما أتمنى لو أستطيع بترهما ! ولكنى أخشى ألا أقدر على القيام بالأشياء البسيطة التى ينبغى علىَّ القيام بها ، ولهذا أستخدم مخالبى ؛ فهذه هى التسمية التى أطلقها عليهما أحيانا ، وأمسك بيدها على الرغم من الألم ، وأبذل كل ما فى وسعى لأنها تنتظر منى ذلك .

وعلى الرغم من أن هناك بعض الكتب التى تقول إن الإنسان يمكنه أن يعيش مائة وعشرين عاماً ، إلا أننى لا أرغب فى ذلك ، ولا أعتقد أن جسدى يمكنه أن يصمد كل هذه السنوات ؛ فهو يضعف شيئاً فشيئاً ، ويموت كل عضو منه منفرداً ، والتآكل مستمر فى الداخل وفى المفاصل ؛ فقد أصبحت يداى عاجزتين ، والكليتان تعانيان من عجز فى بعض الوظائف ، ومعدل ضربات القلب يقل شهراً بعد شهر ، والأسوأ من ذلك ، أنى قد أصبت من جديد بالسرطان ، ولكنه فى هذه المرة أصابنى فى البروستاتا ، فهذه هى النوبة الثالثة لإصابتى بهذا العدو الخفى ، الذى سينال منى لا محالة ، ولكن ليس قبل أن أعلن استسلامى . الأطباء قلقون بشأنى ، ولكنى لا أبالى بشىء ، فقد أصبحت لا أجد وقتاً للقلق ، وأنا فى خريف العمر .

أما بالنسبة لأولادنا الخمسة ، فأربعة منهم على قيد الحياة ، وهم يأتون لزيارتنا كثيراً ، على الرغم من مشقة ذلك عليهم ، وهذا يجعلنى أشعر بكثير من الامتنان لهم ، ولكن حتى وإن تأخروا فى زيارتنا ، فذكرى كل واحد منهم تتجدد فى عقلى فى كل يوم ، وتأتى معها دموع وأفراح مرت علينا ونحن ننشئ هذه الأسرة ، فهناك عشرات الصور تزين جدران غرفتى .

فهى تمثل لى ميراثى ، ومساهمتى التى قدمتها إلى الدنيا ، وأنا فخور بها . أحياناً كنت أتساءل إذا ما كانت زوجتى تراهم فى أحلامها ؟ أو تفكر فيهم ؟ أو إذا كانت تحلم من الأساس ؛ فهناك أشياء كثيرة أصبحت لا أعرفها عنها !

وتساءلت عما كان سيتصوره والدى عن حياتى وماذا يمكنه أن يفعل لو كان مكانى ، فأنا لم أره منذ خمسين عاماً ، وهو الآن مجرد طيف عابر يزور أفكارى . ولم أعد أستطيع تخيل صورته بوضوح ؛ فوجهه يظهر لى مظلماً وكأن هناك ضوءاً يشع من خلفه ، ولا أعرف إذا كان ذلك يعود إلى ضعف فى ذاكرتى أو ببساطة بفعل مرور الزمن ، ولا أمتلك إلا صورة واحدة له ، وهى الأخرى أصبحت باهتة المعالم ، وفى غضون عشرة أعوام أخرى ستكون قد تلاشت تماماً ، كما سيكون حالى أنا الآخر ، وستنمحى ذكراه من هذا الوجود تماماً مثلما يمحو الموج رسالة نقشت على الرمال ، ولولا وجود مذكراتى ، لكنت أقسمت أنى لم أعش سوى نصف حياتى . فهناك فترات طويلة من عمرى اختفت تماماً من ذاكرتى ، وحتى وأنا أقرأ بعض الصفحات من مفكرتى أتعجب مما كانت عليه حالتى ؛ لأننى لا أستطيع أن أتذكر أحداثاً كثيرة من حياتى ، وتمر علىَّ

بعض الأوقات أتساءل فيها إلى أين ذهبت كل هذه الذكريات ؟

أجبتها قائلاً : " إن اسمى ديوك " ؛ فقد كنت واحداً من المعجبين بالممثل جون وين واسم ديوك هو أحد الشخصيات التى قدمها .

فهمست لنفسها ديوك ، ديوك . وجلست تفكر للحظة وهى مقطبة الجبين ، وقد ارتسمت فى عينيها نظرة جادة .

فقلت لها : " نعم ، أنا هنا من أجل راحتك " .

ورددت بينى وبين نفسى : " وسأكون كذلك إلى آخر العمر " .

فتورد وجهها فور سماع جوابى ، واحمرت عيناها واغرورقت بالدموع التى بدأت تجرى على وجنتيها . تألمت كثيراً من أجلها ، وتمنيت للمرة الألف أن أستطيع فعل أى شىء من أجلها . وقالت :

" أنا آسفة ؛ فأنا لا أستطيع فهم أى شىء يحدث لى الآن ، وحتى أنت ، فعندما أستمع إلى حديثك أشعر أننى ينبغى أن أعرفك جيداً ، ولكنى لا أستطيع ، ولا يمكننى حتى معرفة اسمى " .

ثم مسحت دموعها وقالت : " أرجوك ساعدنى يا ديوك ساعدنى على أن أعرف من أكون ، أو على الأقل ماذا كنت ؛ فأنا أشعر بأنى ضائعة " .

فأجبتها من أعماق قلبى ، ولكنى لم أقل لها اسمها الحقيقى ، وكذلك اسمى ؛ فهناك سبب وجيه لهذا .

قلت : " اسمك هانا ، وأنت إنسانة تحب الحياة ، وكنت مصدر قوة لكل أصدقائك ، بل أنت حلم جميل ، واستطعت أن تمنحى السعادة لكل المحيطين بك ، وأنت فنانة رقيقة استطاعت أن تؤثر فى القلوب والأرواح ، وقد عشت حياة مثمرة ، ولم تطمعى فى شىء منها لأن حاجاتك كانت روحيّة ، فكان كل ما عليك فعله هو البحث داخل ذاتك . أنت قلب عطوف ومخلص ، وعيناك قادرتان على رؤية الجمال حيث لا يراه الآخرون ، وأنت معلمة قديرة لمعانى مدهشة ، وأنت إنسانة تحلم بالكمال فى كل شىء " .

توقفت للحظة حتى ألتقط أنفاسى ، وقلت : " ولكن يا " هانا " ليس هناك سبب يجعلك تشعرين بالضياع لأن :

لا شىء يضيع ، أو يفنى إلى الأبد ،

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

ولا يمحى ميلاد ، أو هوية ، أو شكل
أو شيء من هذا العالم .
ولا تبـاد حيـاة ، أو قـوة ، أو شـيء نـراه
بأعيننا ؛ ...
وأجسادنا تكبر ، وتضعف ، وتتجمد أطرافها ـ
ولكن الجمرة التى بقيت مشتعلة بعدما خمدت
النيران ،
ستشتعل من جديد " .

ظلت تفكر فيما قلت لدقيقة ، وفى أثناء فترة الصمت نظرت من النافذة ، ولاحظت أن نزول المطر قد توقف الآن ، وأشعة الشمس بدأت فى محاولتها للنفاذ إلى الغرفة .

وسألتنى : " هل كتبت هذه القصيدة ؟ " .

فقلت : " لا ؛ إنها لـ " والت ويتمان " .

قالت : " من ؟ " .

قلت : " إنه شخص عاشق للكلمات ، ومبدع للأفكار " .

فلم تجبنى على الفور ، وقامت ، بدلاً من ذلك ، بالنظر فى وجهى لفترة طويلة حتى توافقت أنفاسنا معاً ، شهيق وزفير ، شهيق وزفير ، شهيق وزفير !

وكنا نتنفس بعمق ، وتساءلت ما إذا كانت تعرف أنى لا أزال أراها جميلة فى عينى !

وأخيراً قالت لى : " هل يمكنك أن تبقى معى قليلاً ؟ " .

فابتسمت وأومأت لها بالموافقة ، وابتسمت لى ، وأمسكت بيدى برفق ووضعتها على خصرها ، وظلت تحملق فى العُقد الصلبة التى شوهت منظر أصابعى . ولامستها برفق ـ بيدها التى لا تزال تشبه يد الملاك .

وقلت وأنا أحاول الوقوف بصعوبة بالغة : " هيا بنا نخرج فى نزهة قصيرة ؛ فالهواء منعش وصغار الإوز البرى تنتظرنا والطقس جميل اليوم " . وكنت أنظر إليها وأنا أقول هذه الكلمات الأخيرة ، فتورد وجهها ، وأحسست بأنى رجعت شاباً من جديد .

لقد كانت مشهورة بالطبع ، فالبعض يقول إنها واحدة من أفضل الفنانين بالجنوب فى القرن العشرين ، وأنا أشاركهم هذا الرأى وأفخر بها ، فزوجتى على النقيض منى تماماً ، تستطيع أن توجد الجمال فى يسر وسهولة ، أما أنا فقد فشلت فى محاولاتى المريرة فى كتابة أبسط الأشعار ، وتعرض لوحاتها فى متاحف عالمية ، ولكنى أحتفظ بلوحتين لنفسى ، وهما أول

لوحة وآخر لوحة أهدتها لى ، وأعلقهما فى غرفتى ، وأحياناً أجلس فى وقت متأخر من الليل أتطلع إليهما وأبكى ولا أعرف لذلك سبباً !

وهكذا مرت بنا سنوات العمر التى قضيناها فى العمل ، والرسم ، وتربية الأطفال ، وحب كل منا للآخر ، ورأيت صوراً لأعياد الميلاد ، والرحلات العائلية ، وصورًا للتخرج ، وحفلات الزفاف . وهناك صور لأحفادنا الذين ارتسمت على وجوههم السعادة . ورأيت صوراً لنا وقد اشتعلت رءوسنا شيباً ، وبدت التجاعيد أكثر عمقاً فى وجهينا ، فحياتنا تبدو مألوفة ، ولكنها حياة غير عادية فى الوقت نفسه .

لم يستطع أحد منا أن يتنبأ بالمستقبل ، ولكن من منا يقدر على ذلك ؟ فأنا لا أعيش حياتى الآن مثلما كنت أتوقع ، ولكن ما الذى كنت أتوقعه فيها ؟ التقاعد عن العمل . زيارات الأحفاد ، أو ربما القيام ببعض الأسفار ؛ فقد كانت دائماً تحب السفر ، وأحياناً كنت أفكر فى البدء بممارسة هواية جديدة لشىء لا أعرفه . ربما يكون بناء السفن داخل زجاجات صغيرة ، ولكنه شىء يستحيل التفكير فيه الآن مع حالة يدى ، وعلى أية حال فأنا لست حزيناً لذلك .

لا يمكننا قياس حياتنا بسنوات عمرنا الأخيرة ؛ فأنا واثق تماماً من ذلك ، ولكنى أعتقد أن علىَّ أن أتوقع ما سينتظرنا فى حياتنا القادمة ، وعندما أرجع بذاكرتى إلى الوراء أتذكر أن كل شىء كان واضحاً منذ البداية ، ولكنى تصورت أن اضطرابها مفهوم وعادى ؛ فقد كانت تنسى المكان الذى وضعت فيه المفاتيح ، فمن منا لم يحدث معه هذا ؟ وكانت تنسى أسماء بعض جيراننا ممن لا تربطنا بهم علاقة جيدة ولا نتبادل معهم الزيارات ، وأحياناً كانت تخطىء فى كتابة التواريخ عند توقيعها على شيكات ، ولكنى مرة أخرى استبعدت كل ذلك واعتبرتها أخطاء بسيطة يقع فيها أى شخص عندما يكون منشغلاً بشىء آخر .

ولم أتوقع الأسوأ إلا عندما تفاقمت الأحداث ، وأخذ الأمر يتضح أكثر ؛ فقد كانت تضع المكواة داخل المبرد ، والملابس داخل غسالة الأطباق ، والكتب فى الفرن ، وأشياء أخرى كثيرة ، ولكن فى اليوم الذى وجدتها فى السيارة تسند رأسها على عجلة القيادة وهى تبكى لأنها ضلت الطريق عن المنزل مع أنها على بعد ثلاثة مبان من المنزل ، كان هو اليوم الأول الذى شعرنا فيه بالفزع ؛ لأنى عندما نقرت لها على النافذة ، التفتت إلىَّ وقالت : " يا إلهى ! ما الذى يحدث لى ؟

أرجوك ساعدنى " . عندها شعرت بغصة فى حلقى ، ولكنى لم أجرؤ على التفكير فى الأسوأ .

وبعد ستة أيام من هذه الواقعة ذهبت لزيارة الطبيب الذى بدأ معها سلسلة من الفحوصات التى لم أستطع فهمها حتى الآن ، ولكنى أتصور أن ذلك يرجع إلى خوفى من المعرفة . أمضت ساعة تقريباً مع الدكتور بارنويل وكررت زيارتها له فى اليوم التالى ، وكان ذلك اليوم أطول يوم فى حياتى ؛ فقد أمضيته فى مطالعة بعض المجلات ، ولكنى لم أستطع القراءة ، وفى ممارسة ألعاب لا أقدر على التفكير فيها ، وأخيراً اتصل بنا وطلب منا الحضور إلى عيادته وجلسنا أمامه . وكانت تتشبث بذراعى فى طمأنينة ؛ ولكنى أتذكر بوضوح أن يدى كانت ترتجف .

بدأ الدكتور بارنويل حديثه قائلاً : " آسف لأنى سأقول لكما إنها تمر بالمراحل المبكرة من مرض " الزهايمر " ... " .

لم أستطع وقتها التفكير فى شىء ، وكل ما كان يشغل عقلى هو ضوء المصباح الذى يشع من فوق رءوسنا ، وسمعت صدى كلمات الطبيب يتردد فى رأسى : المراحل المبكرة من مرض الزهايمر ... ؟

وأحسست بأن الدنيا تدور من حولى ، وشعرت بيدها وهى تضغط على ذراعى ، وكانت تهمس لنفسها : " آه يا نوا ، ... نوا ... " .

وبينما بدأت الدموع تتساقط من عيونى ، تردد صدى هذه الكلمة على مسامعى .... " الزهايمر " ....

إنه مرض عقيم ، فارغ ولا حياة فيه مثل الصحراء المقفرة . إنه سارق القلوب والأرواح والذكريات ، ولم أعرف ماذا أقول لها وهى تبكى فوق صدرى ، ولهذا طوقتها بذراعى وأنا أهدهدها .

كان وجه الطبيب متجهماً ، وقد كان رجلاً طيب القلب ، وكان هذا الموقف صعباً عليه . ولأنه أصغر سناً من أصغر أحفادى ، فقد جعلنى أشعر بكبر سنى وأنا أمامه ، وكان عقلى مضطرباً ، وشعرت بأن حبى قد اهتز ، والشىء الوحيد الذى استطعت التفكير فيه هو هذه الأبيات :

كيف لرجل على وشك الغرق أن يعرف أية
قطرة ماء سيلفظ عندها أنفاسه ... ؟

www.rewity.com ^RAYAHEENA^

وعلى الرغم من حكمة هذه الكلمات إلا أنها لم تجلب لى أى إحساس بالراحة ، ولا أعرف ما معناها ولماذا تذكرتها الآن ؟!

وكانت تخبرنى آلى - حلمى الوحيد وأسطورة الجمال الخالد ، بينما كنت أطوقها بذراعى - بأسفها الشديد ، وكنت أعلم أنه ليس هناك ما يستدعى ذلك ، فهمست لها فى أذنها قائلاً : " كل شىء سيكون على ما يرام " ، ولكننى كنت أشعر من داخلى بالخوف الشديد ؛ فقد كنت خالى الوفاض ، وليس لدى شىء لأقدمه ، وفارغاً تماماً مثل أنبوب غاز فارغ .

أذكر فقط عبارات متفرقة من شرح الدكتور بارنويل المستمر للمرض .

حيث قال : " إنه اضطراب ذهنى مدمر يؤثر فى الذاكرة والشخصية ... وليس له شفاء أو علاج ... ولا مفر من إخباركما بتطوره السريع ... وهو يختلف من شخص لآخر ... وأتمنى أن أعرف عنه المزيد .

... وهناك أيام تتحسن فيها حالة المريض قليلاً ... ولكنه يصبح أكثر سوءاً مع مرور الوقت ... وأنا آسف لأنى أخبرتكم بهذا !

أنا آسف !

أنا آسف !

أنا آسف !

كان الجميع يشعرون بالأسف ، أما أطفالنا فقد تحطمت قلوبهم ، وشعر أصدقاؤنا بالخوف على أنفسهم ، ولا أذكر كيف غادرنا مكتب الطبيب ، وكيف استطعت قيادة السيارة إلى المنزل ؛ فذكرياتى عن هذا اليوم قد تلاشت تماماً ، وفى هذا الموضوع تساويت تمامًا مع زوجتى .

لقد مضى على ذلك أربع سنوات الآن ، ومنذ ذلك الحين حاولنا بذل أقصى ما فى قدرتنا للتعايش مع هذه المأساة ، كلما كان ممكناً . فآلى منظمة بطبيعتها ، فقامت بعمل بعض الترتيبات قبل مغادرتنا للمنزل وانتقالنا للعيش هنا ، فأعادت كتابة وصيتها وأحكمت غلقها ، وتركت تعليمات محددة لدفنها ، احتفظت بها فى الدرج الأخير من مكتبى ، ولكنى لم أرها مطلقاً . وبعدما انتهت من ذلك بدأت فى كتابة خطابات لأصدقائنا وأطفالنا ، وخطابات أخرى للإخوة ، والأخوات ، وأبناء وبنات العم ، والجيران ، وخطاب أخير لى .

أقرؤه أحيانًا عندما تتحسن حالتى المزاجية ، وعندما يحدث ذلك ، أتذكر آلى وهى تجلس فى ليالى الشتاء الباردة بجوار المدفأة ومعها كوب من الشاى ، وتقرأ الخطابات التى كتبتها لها طوال سنوات العمر ، فقد كانت تحتفظ بها ، والآن أحتفظ أنا بها ؛ لأنها طلبت منى ذلك . وقالت أنا أعرف ما الذى يجب فعله بها . وقد كانت محقة فى ذلك ؛ لأنى اكتشفت أنى أستمتع بقراءة أجزاء متفرقة منها . تمامًا مثلما اعتادت أن تفعل ، وهذه الخطابات تشدنى إليها ؛ لأنى فى كل مرة أجلس فيها لأتصفحها أدرك أن المشاعر الرومانسية الرقيقة يمكن أن تكون موجودة فى أى عمر ، فكنت أنظر إلى آلى أحياناً فأشعر بأنى أحبها الآن أكثر من السابق ، ولكن عندما أقرأ الخطابات ، أدرك أن إحساسى بها لم يتغير .

ومنذ ثلاثة ليال ماضية بقيت مستيقظًا حتى وقت متأخر عن موعد نومى لأقرأ هذه الخطابات ، فقد كانت الساعة حوالى الثانية صباحاً عندما ذهبت إلى مكتبى لآخذ كومة مكدسة من الخطابات التى اصفرت أوراقها ، وفككت عقدة الشريط ، الذى يصل عمره الآن إلى نصف قرن ، ووجدت الخطابات التى أخفتها والدتها عنها منذ زمن طويل وخطابات أخرى أرسلتها

بعد ذلك ، فقد عشت عمراً حافلاً بالخطابات ، فهناك خطابات أعترف فيها بحبى ، وخطابات أخرى أملاها علىَّ قلبى . نظرت إلى الخطابات نظرة سريعة ، والابتسامة ترتسم على وجهى وأنا أحاول أن أختار أحدها ، وأخيراً فتحت خطاباً كتبته فى ذكرى زواجنا الأولى .

سأقرأ جزءاً منه :

عندما أراك الآن ـ تتحركين فى حذر لأن حياة جديدة تنمو بداخلك ـ أتمنى أن تعرفى قدرك عندى ، وكم كان هذا العام خاصًا جدًا بالنسبة لى ، فلا يوجد رجل محظوظ مثلى ، وأنا أحبك من أعماق قلبى .

وضعت هذا الخطاب جانباً ، وبدأت أبحث من جديد وسط كومة الخطابات حتى عثرت على خطاب آخر ، وقد كتبته فى ليلة باردة منذ تسعة وثلاثين عاماً مضت .

عندما كنت أجلس إلى جوارك ، بينما كانت أصغر بناتنا تغنى بطريقة مختلفة عن الجميع فى حفل رأس السنة بالمدرسة ، نظرت إليك ورأيت اعتزازاً لم أعهده إلا عند هؤلاء الذين يستشعرون الأشياء بعمق ، وأدركت أنه ليس هناك رجل محظوظ مثلى .

وعندما توفى ابننا ، الذى كان قريب الشبه من والدته ... كانت هذه أصعب لحظات مرت بنا ، ولا تزال هذه الكلمات لها وقعها على مسامعى :

فى أوقات الحزن والأسى سأضمك إلى صدرى وأهدهدك ، وأجعل من أحزانك أحزانى ، فالشىء الذى يبكيك يبكينى ، والشىء الذى يجرحك يجرحنى . وسنحاول معاً أن نكبح سيول الدموع واليأس ونجعلها تعبر بسلام إلى مساراتها الضيقة فى طرقات الحياة .

توقفت للحظة وأنا أتذكره ، فقد كان حينذاك طفلاً صغيراً لا يتجاوز عمره أربعة أعوام ، وقد عشت عشرين مرة قدر عمره ، ولكن إذا سألنى أحد ، لكنت ضحيت بحياتى من أجله . إنها لمأساة مروعة أن ترى طفلك يموت وأنت لا تزال على قيد الحياة ؛ فهى مأساة لا أتمناها لأحد .

حاولت قدر استطاعتى أن أمنع نفسى من البكاء ، وبدأت أبحث من جديد عن شىء يعيد لذهنى صفاءه ، ووجدت خطاباً كتبته فى الذكرى العشرين لزواجنا ، وكان لشىء يسهل علىَّ التفكير فيه :

عندما أراك ، يا عزيزتى ، فى الصباح قبل أن تأخذى حمامك ، أو أثناء وقوفك فى مرسمك والألوان تغطى ملابسك ، وشعرك متشابك وعيناك مرهقتان ، أدرك أنك أجمل امرأة فى هذا العالم .

تواصلت هذه الخطابات التى تؤرخ قصة حياتى وحبى ، وقرأت منها العشرات ، فبعضها كان مؤلماً ، ولكن معظمها يدخل السرور على قلبى ، وفى تمام الساعة الثالثة صباحاً أحسست بالتعب ، ولكننى كنت قد وصلت إلى آخر خطاب فى المجموعة ، ولم يبق أمامى إلا خطاب واحد ، وهو آخر خطاب كتبته لها ، وعندئذ أدركت أن على مواصلة القراءة .

فتحت الشريط اللاصق للخطاب وأخرجت منه صفحتين ، ووضعت الصفحة الثانية جانباً ، ووضعت الصفحة الأولى تحت ضوء قوى ، وبدأت فى قراءتها :

عزيزتى آلى :

تسود حالة من السكون فى الشرفة لا يخترقها شىء سوى أصوات الهوام التى تتحرك فى الظلام ، ولأول مرة لا أجد الكلمات التى أعبر بها عما أشعر . فهى تجربة فريدة بالنسبة لى ؛ لأنى عندما أفكر فيك

www.rewity.com ^RAYAHEENA^

وفى الحياة التى جمعت بيننا ، أجد أشياء كثيرة تستحق أن نذكرها ؛ فحياتنا تزخر بالذكريات ، ولكنى لست واثقاً من أنى أستطيع وصفها بالكلمات . وعلى الرغم من أننى لست شاعراً ، إلا أن الشعر هو أقرب شىء أحتاج إليه لأصف بدقة شعورى تجاهك .

ولهذا شرد عقلى ، وتذكرت تفكيرى فى حياتنا معاً وأنا أعد القهوة فى هذا الصباح . كانت كل من كيت ، وجين تجلسان فى هدوء عندما دخلت إلى المطبخ ، ولاحظت أنهما كانتا تبكيان منذ قليل ، فجلست وسطهما على الطاولة وأمسكت بيد كل منهما دون أن أنطق بكلمة واحدة ، فهل تعلمين ما الذى رأيته عندما نظرت إليهما ؟ لقد رأيت صورتك منذ زمن بعيد ، تحديداً فى ذلك اليوم الذى ودع فيه كل منا الآخر . فصورتهما اليوم تشبه صورتك فى ذلك اليوم ؛ فقد كنت جميلة ومرهفة الحس وأنت تتألمين من الإحساس بفقدك لشىء عزيز عليك . ولسبب ما لست أعرفه تحديداً ، شعرت برغبة فى أن أحكى لهم حكاية .

فناديت جيف ، ودافيد إلى المطبخ ؛ لأنهما كانا بالمنزل أيضاً ، وعندما استعد الأطفال ، رويت لهم حكايتنا ، وكيف عدتِ إلىَّ بعد مرور فترة طويلة من الزمن ، وأخبرتهم عن نزهتنا ، وعن عشاء السرطانات البحرية فى المطبخ ، وارتسمت على وجوههم ابتسامة عندما سمعوا عن النزهة التى قمنا

بها فى القارب بالخليج ، وجلوسنا أمام المدفأة عندما كانت هناك عاصفة عاتية بالخارج ، وحكيت لهم عن تحذير والدتك لنا من قدوم لون فى اليوم التالى ـ وقد بدت عليهم الدهشة مثلما حدث معنا تماماً ، وحكيت لهم عما حدث بعدها فى ذلك اليوم عندما رجعت إلى المدينة .

فهذا الجزء من القصة لم أنسه مطلقاً ، حتى بعد مرور كل هذا الزمن ، فعلى الرغم من أنى لم أكن موجوداً معك ، ولم ترويه لى إلا مرة واحدة ، إلا أننى أذكر إعجابى الشديد بالشجاعة التى أظهرتها فى ذلك اليوم ، ولا يمكننى حتى الآن تخيل ما كان يدور فى عقلك عندما رأيت لون واقفاً ينتظرك فى رواق الفندق ، وكيف كان شعورك وأنت تتحدثين معه . وقد أخبرتنى بأنكما غادرتما الفندق وجلستما على مقعد بجوار مبنى قديم .

أعرف أنك كنت تهتمين بأمره ، وقد أثبت لى رد فعله أنه هو الآخر كان يهتم بك ، ولكنه لم يستطع أن يستوعب ضياعك منه إلى الأبد ، فكيف يمكنه ذلك ؟ وحتى عندما بينت له أن قلبك لا يزال متعلقاً بى ، وأنك بذلك تظلمينه ، لم يحاول أن يرضى بذلك . وأعرف أن ذلك سبب له إحساساً بالألم والغضب ، وأنه ظل لساعة كاملة يحاول أن يجعلك ترجعين عن قرارك ، ولكنك وقفت أمامه بحزم وقلت : " أنا آسفة ، لا يمكننى أن أعود معك " ، وقد تأكد من أن

هذا هو قرارك النهائى ، وقلت لى إنه لم يفعل شيئاً سوى الإيماء برأسه ، وجلستما فى صمت لفترة طويلة من الوقت ، وكنت دائماً أتساءل فيما كان يفكر وهو جالس إلى جوارك ، ولكننى واثق من أنه كان يشعر بنفس ما كنت أشعر به منذ ساعات قليلة . وعندما سار معك أخيراً إلى السيارة ، قلت إنه قال عنى إنى رجل محظوظ ؛ فقد تصرف مثل أى رجل نبيل ، وقد عرفت الآن لماذا كان اختيارك صعباً ؟

وأتذكر حين انتهيت من الحكاية ، أن الغرفة كان يسودها الصمت حتى وقفت كيت أخيراً واحتضنتنى وقالت وعيناها مبللتان بالدموع : " عجباً ، يا والدى " ، وعلى الرغم من أنى كنت أتوقع العديد من الأسئلة من جانبهم ، إلا أن أحداً لم يسألنى عن شىء ، وقام كل منهم ـ بدلاً من ذلك ـ بإعطائى شيئاً خاصاً جداً .

فعلى مدار أربع ساعات ، قام كل منهم على حدة بالتحدث عما بذله كل منا فى تربيتهم ، وروى كل منهم قصصاً عن أشياء لم أكن أتذكرها ، وفى النهاية وجدت نفسى أبكى لأنى أدركت أننا نجحنا فى تربيتهم ؛ فقد كنت فخوراً بهم وبك ، وكنت سعيداً بالحياة التى عشناها معاً ، ولن يتغير إحساسى هذا مطلقاً ، ولم أكن أتمنى سوى وجودك معى لتستمتعى به .

وبعدما غادروا الغرفة ، جلست فى هدوء على الكرسى الهزاز ، أسترجع ذكريات حياتنا معاً ؛ فقد كنت بجوارى طوال الوقت ، على الأقل فى قلبى ، ويستحيل أن أذكر لحظة لم تكونى فيها جزءاً منى . لم أعرف كيف كان سيتغير حالى إذا لم تأت إلىَّ فى ذلك اليوم ، ولكنى واثق من أنى كنت سأعيش وأموت فى حسرة ، أحمد الله أنى لم أعرفها فى يوم من الأيام .

أنا أحبك يا آلى لأنى أصبحت هكذا بفضلك أنت . فوجودك فى حياتى يمثل لى كل أمل وحلم تمنيت تحقيقه ، ومهما يحدث لنا فى المستقبل ، فسيكون كل يوم يمر علينا معاً هو أعظم يوم فى حياتنا ، وسأكون قلبى دائماً ملكاً لك .

وأنت ، يا عزيزتى ، ستكونين لى دائماً .

نوا

وضعت الأوراق جانبًا وتذكرت عندما جلست مع آلى فى الشرفة وهى تقرأ هذا الخطاب للمرة الأولى ، فقد كان ذلك فى وقت متأخر بعد الظهر ، والسماء ملونة بخطوط الشفق الحمراء ، واللحظات الأخيرة المتبقية من ذلك اليوم فى طريقها إلى الزوال ، وتغير لون صفحة السماء شيئاً فشيئاً ، وأنا أراقب الشمس وهى تغرب ،

وأتذكر أنى كنت أفكر فى هذه اللحظات القصيرة والمضطربة عندما يتحول النهار فجأة إلى ليل .

وأدركت حينئذ أن الشفق ما هو إلا وهم باطل ؛ لأن الشمس إما أن تكون فوق خط الأفق أو أسفل منه ، وهذا يعنى أن النهار والليل مرتبطان بطريقة ما ، وأن أحدهما يستحيل أن يوجد منفصلاً عن الآخر ، ومع ذلك لا يمكنهما أن يتواجدا فى وقت واحد ، وتذكرت أنى تساءلت ماذا يكون إحساس المرء بأن هناك شيئاً يلازمه ، ولكنه منفصل عنه إلى الأبد ؟

وعندما أتذكر ذلك أجد أنه لمن السخرية أن تختار قراءة هذا الخطاب فى اللحظة التى ألح فيها هذا السؤال على عقلى . إنه لمن السخرية ، بالطبع ، لأنى أعرف الإجابة عليه الآن ؛ ولأنى أعرف الآن معنى أن تشبه الليل والنهار ؛ فنحن متلازمان ، ولكن كل منا منفصل عن الآخر للأبد .

كنا نجلس فى مكان جميل أنا وآلى فى ظهيرة هذا اليوم . فوق صخرة أعتبرها أعز شىء فى حياتى ، وكان جميع أصدقائى من الطيور والإوز هنا عند الغدير . وأجسامها تطفو فوق سطح الماء البارد الذى تنعكس عليه بعض ألوانها ؛ مما يجعلها تبدو أكبر من حجمها ،

وكانت آلى كذلك مفتونة بجمالها ، وبدأ كل منا يتعرف على الآخر شيئاً فشيئاً من جديد .

قلت : " أنا سعيد لأنى أتحدث إليك ؛ فقد أحسست بأنى أفتقدك على الرغم من أنه لم يمض وقت طويل " .

فقد كنت صادقاً فيما قلته وهى تعلم ذلك ، ولكنها تعاملنى بحذر ؛ لأنها تعتبرنى شخصاً غريباً عنها .

سألتنى : " هل اعتدنا القيام بهذا ؟ هل كنا نجلس هنا كثيراً لنراقب الطيور ؟ أقصد أن أقول هل يعرف كل منا الآخر ؟ " .

قلت : " نعم ولا ، وأعتقد أن لكل منا أسراره الخاصة ، ولكننا نعرف بعضنا منذ سنوات " .

نظرت إلى يديها ، ثم إلى يدى ، وظلت تفكر فى هذا الأمر للحظة ، وكنت أنظر إلى وجهها من زاوية بدت فيها شابة من جديد ، فلم يكن أحد منا يرتدى خاتم الزواج ، وكان هناك سبب لذلك أيضًا . وسألتنى :

" هل تزوجت فى يوم من الأيام ؟ " .

فأومأت لها برأسى .

وقلت " نعم " .

سألتنى : " وكيف كان شكلها ؟ " .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

فأخبرتها الحقيقة :

" لقد كانت حلمى الجميل ، وهى التى ساعدتنى على أن أكون ما أنا عليه الآن ، وعندما كنت أحتضنها بين ذراعى كنت أشعر أن دقات قلبها أقرب إلىَّ من نفسى ، وأنا أفكر فيها طوال الوقت حتى الآن ، وأنا أجلس هنا ، أفكر فيها ، ولا يمكننى أن أفكر فى سواها " .

استوعبت ما قُلته تمامًا ، ولكنى لا أعرف إحساسها تجاه ما قلت ، وأخيراً ، تحدثت بصوت رقيق ، ملائكى وحساس ، وتساءلت إذا ما كانت تعرف أنى أفكر فى هذه الأشياء .

وسألتنى : " هل توفيت ؟ " .

وتساءلت ما هو الموت ؟ ، ولكنى لم أقل شيئاً كذلك ، وأجبتها ، بدلاً من ذلك ، : " زوجتى لا تزال تحيا داخل قلبى ، وستظل هكذا إلى الأبد " .

قالت : " لا تزال تحبها ، أليس كذلك ؟ " .

قلت : " بالطبع ، ولكنى أحب أشياء أخرى كثيرة ، فأنا أحب أن أجلس هنا إلى جوارك ، وأحب أن يشاركنى أحد أهتم به فى الاستمتاع بجمال هذا المكان ، وأحب أن أشاهد نسر الماء وهو ينقض بجناحيه فى مياه الغدير ليبحث عن غذائه " .

جلست فى هدوء للحظة ، واتجهت بنظرها بعيداً حتى لا يمكننى أن أرى وجهها ؛ فقد كانت هذه عادتها منذ سنوات .

وقالت ليس بدافع من الخوف ولكن الفضول : " لماذا تفعل معى ذلك ؟ " ، فهذا سؤال جيد أعرف ماذا قصدت من وراءه ، ولكنى سألتها على أية حال :

" ماذا تقصدين ؟ " .

قالت : " لماذا تقضى يومك معى ؟ " .

فابتسمت .

وقلت : " أنا هنا لأنه من المفترض أن أكون معك . فالأمر بهذه البساطة ، فكل منا سعيد بصحبة الآخر . ولا تحسبى الوقت الذى أقضيه معك ضائعاً ، فأنا أريد أن أجلس وأتحدث معك ، فكثيراً ما قلت لنفسى إنه ليس هناك ما هو أعظم مما أقوم به الآن " .

فحدقت فى عينى للحظة ورأيت عينيها تتلألآن . وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها .

وقالت : " وأنا أحب أن أكون معك ، وإذا ما كنت تقصد من وراء ذلك استمالتى فقد نجحت فى مهمتك . فأنا أعترف بأنى أستمتع بصحبتك ، ولكنى لا أعرف عنك شيئاً ، ولا أنتظر منك أن تحكى لى قصة حياتك ، ولكن لماذا أنت غامض هكذا ؟ " .

فقلت : " لقد قرأت فى يوم من الأيام أن النساء يعجبن بالشخصيات الغامضة والغريبة " .

قالت : " أرأيت ؟ أنت لم تجب عن سؤالى بوضوح ، ولا تجيب عن كثير من أسئلتى ، وحتى لم تخبرنى فى صباح اليوم كيف انتهت القصة " .

فهززت كتفى ، وجلسنا فى هدوء لفترة وجيزة ، وسألتها أخيراً : " هل هذا صحيح ؟ " .

قالت : " ما هو ؟ " .

قلت : " أن النساء تعجبن بالشخصيات الغامضة ؟ " .

فكرت فى هذا الأمر وضحكت ، ثم أجابت كما أريد : " أعتقد أن بعض النساء يفعلن ذلك " .

فسألتها : " وهل أنتِ منهن ؟ " .

قالت : " أرجو أن تكف عن طرح الأسئلة الشخصية ؛ فأنا لا أعرفك جيداً " ، وعرفت أنها تمزح معى ، وكنت سعيداً بذلك .

جلسنا فى صمت نراقب الطبيعة من حولنا ، فقد استغرقنا عمرنا بأكمله نتعلم ذلك ، ويبدو لى أن كبار السن هم من يستطيعون وحدهم الجلوس معاً فى هدوء ، وعلى الرغم من ذلك يشعرون بالرضا ، أما الشباب ـ لأنهم يفتقدون الصبر ـ لا يهنأ لهم بال إلا بتعكير صفو

هذا الهدوء ، ويا لخسارة ذلك ! لأن الهدوء ينم على الصفاء والنقاء ، والهدوء شىء مقدس ، وهو يقرب بين الأشخاص ؛ لأن من يشعرون بالراحة معاً يمكنهم الجلوس لفترة طويلة دون أن يتكلموا ، وهذه هى المفارقة الغريبة .

مع مرور الوقت بدأت أنفاسنا تتوافق معاً ، تماماً مثلما حدث فى صباح هذا اليوم . وكنا نأخذ أنفاسنا بعمق واسترخاء ، ومرت لحظة غفت فيها قليلاً ، تماماً مثلما يحدث مع الأشخاص الذين يشعرون براحة معاً ، وتساءلت هل يستمتع الشباب بهذا الإحساس ؟ وأخيراً حدثت المعجزة ، عندما استيقظت .

قالت وهى تشير بإصبعها : " هل ترى ذلك الطائر ؟ " وحاولت أن أغمض عينى قليلاً لأراه ، ولكنى تعجبت من أنى استطعت رؤيته بالفعل ، ولم لا ، فأشعة الشمس ساطعة ، وأشرت إليه أنا الآخر .

وقلت بصوت منخفض : " إنه أحد الطيور النادرة ، وأعطى كل منا انتباهه إليه ونظرنا إليه وهو يحلق فوق برايسز كريك ، وعندما أنزلت ذراعى ، ووضعت يدى فوق ركبتها ، لم تطلب منى رفعها ، وكأنها قد تذكرت عادتى القديمة .

لقد كانت محقة بخصوص مراوغتى لها ؛ ففى أيام مثل هذه عندما كانت تفقد ذاكرتها تماماً ، أصبح غامضاً فى إجاباتى ؛ لأنى جرحت مشاعر زوجتى كثيراً خلال الأعوام القليلة الماضية من غير قصد بسبب زلات لسانى ، وقد عزمت على ألا أقع فى هذا الخطأ مرة أخرى ، ولهذا قصرت إجاباتى على الأسئلة التى تطرحها ، وأحياناً لا أستطيع فعل ذلك ، فلا أجيبها على الإطلاق !

فهذا القرار ليس صائباً فى جميع الأحوال ، ولكنه ضرورى ؛ لأن المعرفة تسبب لها الألم ، وأنا أحاول أن أحدد إجاباتى لكى أخفف عنها هذا الألم ، فقد تمر عليها أيام لا تتذكر فيها أطفالها ، أو أننا متزوجان ! ومع أنى أشعر بالأسف لهذا ، ولكننى لن أتغير .

فهل ذلك يجعلنى غير صادق معها أحياناً ؟ ربما ، ولكنى كنت أراها تنهار أمام سيل المعلومات الغزيرة فى حياتها ، فهل يمكننى النظر فى المرآة من غير أن تكون عيناى محتقنتين ، وفكى يرتجف ، وأدرك أنى نسيت كل ما هو مهم فى حياتى ؟ بالطبع لا يمكننى ، ولا يمكنها ، فقد اتخذت نقطة انطلاقى من المكان الذى بدأت فيه هذه الرحلة الطويلة ، فحياتها ، وزواجها ،

وأبناؤها ، وأصدقاؤها وعملها هى الأسئلة والإجابات التى تتألف منها لعبة الحياة .

كانت هذه الأيام شديدة القسوة على كل منا ؛ فقد كنت أشبه بموسوعة متنقلة ، لا حياة فيها ولا روح ، عن الأشخاص ، والأشياء ، والأماكن التى مرت بها فى حياتها ، فى حين أنها كانت فى الحقيقة من الأسباب الجديرة بالاهتمام ، وهى الأشياء التى لم أكن أعرفها ولا أستطيع الإجابة عنها ، فقد كانت تنظر إلى صور الأبناء فلا تذكرهم ، وتحمل بيدها فرشاة رسم لا تلهمها بشىء ، وتقرأ خطابات حب لا تجلب لها السعادة . وتضعف صحتها فى غضون ساعات ، ويصبح لون وجهها شاحباً ، وتصاب بنوبة غضب ، وتنهى يومها بصورة أسوأ مما بدأته ، فقد ضاعت أيامنا ، وضاعت هى معها ، وأنا بمنتهى الأنانية أقول إنى ضعت كذلك .

ولهذا تغيرت ، وأصبحت كالرحالة أو المستكشف ، مثل ماجلان أو كولمبوس ، ولكنى كنت أستكشف أسرار العقل ، وعلى الرغم من أنى تعثرت كثيراً ، إلا أنى تعلمت فى النهاية ، ولكن الشىء الذى لم أستطع تعلمه هو كيف أتصرف بعد ذلك ؟ وتعلمت ما هو بديهى حتى للأطفال ؛ أن الحياة ما هى إلا مجموعة من

www.rewity.com ^RAYAHEENA^

حيوات صغيرة ، نعيش كل واحدة منها فى يوم ، وعلينا أن نقضى كل يوم فى البحث عن الجمال فى الزهور والشعر والتحدث إلى الكائنات الأخرى ، وأنه ليس هناك شىء أفضل من يوم تقضيه فى التأمل ومشاهدة غروب الشمس والاستمتاع بالنسيم العليل ، ولكن أهم ما تعلمته هو أن الحياة تعنى بالنسبة لى أن أجلس إلى جوارها على مقعد بالقرب من الغدير ، وأنا أضع يدى فوق ركبتها ، وأحياناً ، عندما تبتسم لى الأيام ، أقع فى حبها من جديد .

سألتنى : " ما الذى تفكر فيه ؟ " .

اقتربت لحظة الغروب الآن فغادرنا المقعد وسرنا فى طريقنا على طول الممر المحيط بهذا المجمع ، وكانت تمسك بذراعى وأنا أصطحبها ، وهذه كانت فكرتها ؛ ربما لأنها مفتونة بى ، أو لأنها كانت تخشى علىَّ السقوط . على أية حال ، ابتسمت لها وقلت : " كنت أفكر فيك " .

وبدلاً من أن تجيبنى قامت بالضغط على ذراعى ، ويمكننى القول بأنها سعدت بما قلته ، فحياتنا معاً مكنتنى من فهم أصغر التفاصيل ، حتى وإن لم تتمكن هى من ذلك ، واستمررت فى الحديث :

" أعرف أنك لا تذكرين شيئاً عن نفسك ، ولكنى أستطيع أن أتذكر ذلك ؛ فقد اكتشفت أنى أشعر بالسعادة عندما أنظر إليك " .

فضربت ذراعى برفق وابتسمت ثم قالت : " أنت رجل طيب القلب وعطوف ، وأتمنى لو أنى كنت قد أسعدتك فى الماضى كما أفعل الآن " .

استمررنا فى السير قليلاً ، وأخيراً قالت لى : " علىَّ أن أخبرك بشىء " .

قلت : " هيا أكملى كلامك " .

قالت : " أظن أن لى معجبًا ؟ " .

قلت : " معجبًا ؟ " .

قالت : " نعم " .

قلت : " حسناً " .

قالت : " ألا تصدقنى ؟ " .

قلت : " بلى ، أصدقك " .

قالت : " ينبغى عليك ذلك " .

قلت : " ولماذا ؟ " .

قالت : " لأنى أعتقد أن هذا المعجب هو أنت " .

أخذت أفكر فيما حدث ونحن نسير جنباً إلى جنب فى صمت ، ويمسك كل منا بيد الآخر ، ومررنا من أمام الحجرات ، ثم فناء المبنى إلى أن وصلنا إلى الحديقة ،

وتوقفت تحديداً أمام الزهور البرية ، وقطفت لها باقة من الزهور الحمراء والوردية والصفراء والبنفسجية . وأعطيتها إياها ، فأخذتها وتشممتها وهى تغمض عينيها وهمست قائلة : " إنها جميلة " ، وواصلنا السير وهى تمسك بيدى وتحمل الزهور فى اليد الأخرى . ظل الناس ينظرون إلينا لأنهم اعتبرونا ـ كما أخبرنى البعض ـ معجزة تسير على الأرض ، وكلامهم صحيح على أية حال ، ولكنى لا أشعر فى معظم الأحيان بأنى محظوظ .

وسألتها أخيراً : " هل تظنين أنى هو ؟ " .

قالت : " نعم " .

قلت : " لماذا ؟ " .

فقالت وهى تحمل فى يدها قصاصة ورقة صغيرة : " انظر إلى هذه الورقة لقد وجدتها تحت وسادتى " .

فقرأتها ، وكانت تقول :

مع أن جسدى مثقل بالآلام ، إلا أن عهدى
سيظل بك قائماً حتى نهاية أيامى ،
فلمسة حانية تنتهى بقبلة من شفتيك
تكفى لأن توقظ بداخلى
بهجة الحب .

وسألتها : " هل هناك المزيد ؟ " .

قالت : " وجدت هذه فى جيب معطفى " .

عليك أن تتيقنى من أننا لن نفترق
لأن روحنا واحدة ؛
فعندما يظهر الخيط الأول من الفجر
يضىء وجهك ، فأقترب منك
لأبحث عن قلبى .

فلم أقل سوى : " حسناً ! " .

وواصلنا السير حتى غربت الشمس ، وهو الوقت الذى يصبح فيه ضوء الشفق الفضى آخر ما تبقى من اليوم ، وكنا لا نزال نتحدث عن الشعر ؛ لأن لديها ولعًا بكل ما هو رومانسى .

ومع الوقت وصلنا إلى الباب ، وقد كنت متعباً . وكانت تعرف ذلك ، فاستوقفتنى بيدها وجعلتنى أنظر إليها ، وأدركت حينذاك كم انحنى ظهرى حتى أصبح طولى مساوياً لها ، فأحياناً أشعر بالسعادة لأنها لا تعرف كم تغيرت ، وتحولت إلىَّ ، وظلت تنظر فى وجهى لفترة طويلة .

وسألتها : " ماذا تفعلين ؟ " .

قالت : " لا أريد أن أنساك ، أو أنسى هذا اليوم ، وأحاول أن أحتفظ بذكراك حية داخل عقلى " .

وتساءلتُ ، هل ستنجح فى هذه المرة ؟ ومع أنى كنت واثقاً من عكس ذلك ، لم أخبرها بتصورى ، وبدلاً من ذلك ابتسمت لها لأن كلماتها كانت عذبة .

وقلت : " شكراً لك " .

قالت : " أنا أعتزم ألا أنساك فى هذه المرة ؛ فأنت شخص عزيز على . ولا أعرف كيف كنت سأقضى هذا اليوم بدونك " .

أحسست بأنى لا أستطيع التقاط أنفاسى عندما أدركت أن هناك عاطفة قوية وراء كلماتها ، وعرفت سبب وجودى فى هذه الحياة ، وشعرت بأنى أحبها كثيراً فى هذه اللحظة . وتمنيت أن أكون قوياً حتى أستطيع أن أحملها بذراعى وأذهب بها إلى الجنة .

وقالت : " لا تحاول قول أى شىء ، دعنا فقط نستمتع باللحظة " .

ففعلت ، وشعرت بالسعادة الغامرة .

أصبح مرضها الآن فى أسوأ حالاته ، ومع ذلك كانت آلى مختلفة عن الجميع ؛ فهناك ثلاثة آخرون فى هذا المكان يعانون نفس المرض ، وهم يمثلون لى خلاصة

خبرتى العملية معه . فهم ، على النقيض من آلى ، يمرون بمراحل متقدمة من الزهايمر وفى حالة ضياع تامة ؛ فهم يتعرضون فى الصباح لنوبات من الهلوسة والاضطراب ، ويرددون ما يقولونه طوال اليوم . اثنان منهم لا يستطيعان إطعام أنفسهما ، وسرعان ما سيموتان . أما الحالة الثالثة فكانت تجنح إلى السير حتى تضل الطريق ، وفى إحدى المرات عثر عليها فى سيارة أحد الأشخاص الغرباء على بعد ربع ميل من هنا ، ومنذ ذلك الحين تثبت بأربطة فى سريرها ، وقد يتعرضون لنوبات غضب فى بعض الأوقات ، وفى بعض الأوقات يصبحون مثل الأطفال الضائعين ويشعرون بالحزن والوحدة . ونادراً ما يلاحظون وجود الأشخاص حولهم سواء كانوا من العاملين فى هذا المكان أو أصدقائهم . فهذا المرض لا يمكن لأحد أن يتحمله ، ولهذا السبب يجد أبناؤهم صعوبة بالغة فى زيارتهم ، وأبنائى يعانون من ذلك أيضاً .

تعانى آلى ، بالطبع ، من بعض المشكلات الخاصة ، والتى ستتفاقم أيضاً مع مرور الوقت . فهى تصاب فى صباح كل يوم بحالة من الفزع وتستمر فى البكاء بلا توقف ، فهى تتوهم وجود أشخاص صغار ، أعتقد أنهم يشبهون الأقزام إلى حد كبير ، يراقبونها ،

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

وهى تصرخ فيهم حتى يبتعدوا عنها ، وهى لا تعارض الاستحمام ولكنها لا تتناول الطعام بشكل منتظم . وأعتقد أنها أصبحت نحيلة جداً الآن ، وفى الأيام التى تتحسن فيها حالتها أبذل كل ما فى وسعى لتغذيتها .

ولكن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد ، ولهذا السبب تعتبر حالة آلى معجزة ؛ لأنه قد تتحسن حالتها أحياناً بعدما أقرأ لها . ولا أستطيع أن أجد تفسيراً لذلك ، فالأطباء يقولون : " إن هذا مستحيل . لابد أنها لا تعانى من الزهايمر " . ولكنها مريضة به بالفعل ، ففى معظم الأيام صباحاً لا يكون هناك أدنى شك فى ذلك ، والجميع يتفق على ذلك .

ولكن لماذا إذن تعتبر حالتها مختلفة ؟ لماذا تتغير حالتها أحياناً بعدما أقرأ لها ؟ لقد شرحت للأطباء السبب - فقد دلنى عليه قلبى - ولكن أحداً لم يصدقنى ، وحاولوا أن يجدوا تفسيراً علمياً له ، وسافر بعض المتخصصون أربع مرات من تشابل هيل للبحث عن إجابة من غير أن يستوعبوا كلامى ، فقد قلت لهم : " لا يمكنكم أن تجدوا تفسيراً له إذا ما استعنتم فقط بما تعلمتموه وتدربتم عليه فى كتبكم " ، ولكنهم أومأوا لى برءوسهم وقالوا : " إن هذه الأعراض تختلف

عن الزهايمر ، فمن المستحيل أن تشترك فى حوار أو تتحسن حالتها على مدار اليوم " .

ولكنها استطاعت فى آخر الأمر ، مع أن ذلك لم يحدث بصفة يومية ، ولا حتى فى معظم الأوقات ، ولا كما كانت عادتها ، وفى بعض الأحيان ، نجد أن الشىء الوحيد الذى ضاع منها هو ذاكرتها ، وكأنها تعانى مرض فقدان الذاكرة المؤقت ، وتصبح مشاعرها وأفكارها فى حالة طبيعية ، وأشعر فى هذه الأيام بأننى أتبع معها الأسلوب الصحيح .

كان العشاء مُعداً فى غرفتها عندما رجعنا ، مثلما يحدث عادة فى هذه الأيام ، ولا يمكننى أن أطمع فى أكثر من ذلك ؛ لأن العاملين هنا يعتنون بكل شىء ، ويعاملوننى معاملة طيبة ، ولذلك أشعر نحوهم بكل الامتنان .

كانت الأضواء خافتة ؛ لأن الغرفة كانت مضاءة بأضواء شمعتين تم وضعهما على المائدة التى سنجلس عليها ، وكانت الموسيقى تعزف لحناً هادئاً فى الخلفية ، وكانت الأكواب والأطباق من البلاستيك والدورق الزجاجى مملوءة بعصير التفاح ، ومع أن القواعد لا يمكن تغييرها ، إلا أنها لم تكن تبالى بها

كثيراً ، وعند رؤيتها لهذا المنظر أصدرت صيحة لتعبر عن دهشتها ، وقالت وهى تحدق باهتمام بالغ :

" هل قمت بذلك ؟ " .

فأومأت برأسى ، ودخلت الغرفة .

قالت : " إنها تبدو جميلة " .

ومددت لها ذراعى لأصطحبها إلى النافذة ، فلم تتركها مع أننا وصلنا إلى هناك ، وكانت تلمس يدى برفق وهى تقف بالقرب منى لنشاهد صفحة السماء البلورية فى هذ المساء الربيعى . كانت النافذة مفتوحة قليلاً ، فشعرت بالنسيم العليل وهو يلامس وجنتى . ووقفنا لفترة طويلة نشاهد القمر وهو يرتقى عالياً فى السماء وينشر ضوءه فى الظلام .

قالت : " أنا واثقة من أننى لم أر شيئاً أجمل من ذلك " ، وقلت لأبين لها أنى أوافقها الرأى :

" وأنا كذلك " ، ولكنى كنت أنظر إليها ، وعندما فطنت إلى معنى كلامى رأيتها تبتسم ، وبعد لحظة همست لى قائلة :

" أعتقد أنى عرفت من اختارته آلى فى نهاية القصة " .

قلت : " هل هذا صحيح ؟ " .

قالت : " نعم " .

فسألتها : " من هو ؟ " .

قالت : " لقد ذهبت إلى نوا " .

قلت : " هل أنت واثقة من ذلك ؟ " .

قالت : " بكل تأكيد " .

فابتسمت لها وأومأت برأسى وأنا أقول بصوت منخفض : " هذا صحيح " ورأيت وجهها ، وقد تألق بابتسامة رائعة وهى تنظر إلىّ .

ضاعفت جهدى حتى أسحب لها المقعد لتجلس عليه ، ثم جلست فى مقابلها ، وناولتنى يدها من فوق المائدة ، فأمسكت بها ، وشعرت بحركة إصبعها كما كانت تفعل منذ سنوات عديدة ماضية ، ونظرت إليها من غير أن أتحدث لفترة طويلة من الوقت ؛ لأستعيد ذكرى لحظات مرت من حياتى وأستمتع بها من جديد ، وشعرت بأنى لا أستطيع التقاط أنفاسى ، فأدركت من جديد مقدار حبى لها ، وعندما تحدثتُ أخيراً كان هناك ارتباك فى صوتى .

وقلت : " كم أنت جميلة جداً ! " . واستطعت أن أرى من عينيها أنها تعرف مقدار مشاعرى نحوها والمعنى الذى أردته من وراء كلماتى .

وبدلاً من أن تجيبنى ، تحولت بنظرها إلى أسفل وتساءلت بينى وبين نفسى فيما كانت تفكر ؛ فهى

لم تعطنى أية دلالة ، وضغطت على يدها برفق ، وانتظرت ، ومعى كل أحلامى ، وأنا أثق فى قلبها ، وأنى قد اقتربت من المعجزة .

وعندئذ حدثت المعجزة التى أثبتت صدق كلامى .

فبينما كانت موسيقى جلين ميلير تعزف لحنها الرقيق فى الغرفة المضاءة بالشموع ، رأيتها وهى تستسلم شيئاً فشيئاً للمشاعر التى بداخلها ، ورأيت ابتسامة دافئة ترتسم على شفتيها ، جعلتنى أشعر أن تعبى لن يضيع سدى ، ورأيت عينيها المرهقتين تنظران إلى ، ثم جذبت يدى نحوها برفق .

وقالت بصوت رقيق : " أنت إنسان رائع " ، وانتظرت قليلاً ، وكانت هذه هى اللحظة التى وقعت فيها فى حبى من جديد ؛ أعرف ذلك جيداً من الأمارات التى رأيتها عليها آلاف المرات .

ولم تحاول قول أى شىء على الفور ، ولا ينبغى لها ، ورمقتنى بنظرة كأنها قادمة من حياة جديدة وجعلتنى أشعر بأن نفسى قد عادت إلىَّ من جديد . وابتسمت لها ، وأنا أحاول أن أجمع لها قدر استطاعتى كل عواطفى الجياشة ، ونظر كل منا للآخر ، وتحركت مشاعرنا كما تتحرك أمواج المحيط ، ونظرت فى أرجاء الغرفة ، ثم نظرت عالياً إلى السقف ، ثم من جديد إلى

آلى ، وشعرت بالدفء يسرى فى أوصالى وهى تنظر إلىَّ ، وفجأة شعرت بأنى عدت شاباً من جديد ، ولم أعد أشعر بالبرودة أو الألم ، أو بتشوهى وانحناء ظهرى ، أو أنى أعانى تقريباً من العمى بسبب المياه البيضاء .

وشعرت بأنى أقوى وأعظم وأسعد رجل على ظهر الأرض ، واستمر إحساسى هذا لفترة طويلة وأنا أجلس إلى المائدة .

وبمرور الوقت كانت الشمعتان قد ذابتا حتى ثلثيهما ، وكنت مستعداً لإنهاء هذا الصمت ، فقلت : " أتمنى لو تعرفين أنى أحبك كثيراً " .

فقالت وهى تحاول التقاط أنفاسها المتسارعة : " أنا واثقة من ذلك ، وأنا أحبك كثيراً يا نوا " .

" نوا " ، وسمعت الاسم يتردد فى رأسى من جديد نوا ..... نوا " . وقلت لنفسى إنها تعرفنى ، وتعرف من أكون .. . !

إنها تعرف ... !

فهذه المعلومة الصغيرة جداً ، تعتبر بالنسبة لى هبة عظيمة من الله ، وتذكرت حياتنا معاً ، حبى لها ، وقربها إلى نفسى ، وكيف مرت علينا أفضل سنوات عمرنا .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

وتمتمت قائلة : " نوا ... حبيبى نوا ... " .

فأنا ، الذى رفضت الاستماع إلى كلام الأطباء ، استطعت تحقيق انتصار جديد ، على الأقل للحظة . وتخليت عن تظاهرى بالغموض ، قبلتُ يدها وقربتها من خدى ، وهمست فى أذنها قائلاً : " أنت أعظم شىء فى حياتى " .

فقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع : " حسناً يا نوا ... وأنا أيضاً أحبك كثيراً " .

وإذا كان الأمر سيقف عند هذا الحد ، لكنت أسعد رجل فى هذا العالم .

لكنى كنت واثقاً من أن ذلك لن يحدث ؛ لأنى كنت أرى علامات القلق بادية على وجهها كلما مر بنا الوقت .

وسألتها : " ماذا بك ؟ " ، فأجابتنى فى هدوء :

" إنى خائفة جداً من أن أنساك مرة أخرى ، إنه إحساس فظيع ... لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه " .

وتقطع صوتها وهى تنهى حديثها ، ولكنى لم أعرف ماذا أقول ؛ لأنى متيقن من أن هذه الليلة ستنقضى لا محالة ، وليس بإمكانى فعل شىء لأوقف هذا القدر

المحتوم ، فأنا أقف عاجزاً أمامه تماماً ، وقلت لها أخيراً :

" لن أدعك وحدك مطلقاً ؛ فما بيننا سيظل معنا إلى الأبد " .

وكانت تعلم أنه ليس بوسعى غير ذلك ، فكلانا لا يريد الاستماع إلى وعود غير حقيقية ، ولكنى شعرت من الطريقة التى كانت تنظر بها إلىَّ أنها تود سماع المزيد منها .

كانت أصوات صرار الليل تعزف حولنا من كل جانب ، وقد بدأنا نلتقط بعض اللقيمات من عشائنا . لم يكن أىٌّ منا يشعر بالجوع ، ولكننى بدأت أولاً ، ثم اقتدت هى بى ، وكانت تتناول لقيمات صغيرة جداً وتظل تمضغها لفترة طويلة ، ولكنى كنت سعيداً على أية حال لأنى أراها تأكل ؛ فقد فقدت الكثير من وزنها فى الشهور الثلاثة الماضية .

وبعد العشاء ، شعرت بالخوف رغماً عن نفسى . مع أنه من المفترض لى أن أبتهج ؛ لأن اجتماعنا من جديد دليل على بقاء حبنا ، ولكنى أعرف أن الموعد قد اقترب لتدق أجراس المساء ؛ فقد غربت الشمس منذ فترة ، واللص على وشك أن يأتى ، وليس بإمكانى

منعه ، ولهذا نظرت إليها وانتظرت وقد مرت علىَّ هذه اللحظات الأخيرة المتبقية كأنها دهر من الزمن .

لم يحدث شيء بعد .

ودقت الساعة .

لم يحدث شيء بعد .

فأخذتها بين ذراعى وضممتها إلى صدرى .

لم يحدث شيء بعد .

وشعرت بجسدها وهو يرتجف وهمست لها فى أذنها .

لم يحدث شيء بعد .

وقلت لها للمرة الأخيرة فى هذا المساء إنى أحبها .

ولكن اللص قد أتى .

ودائماً ما كنت أتعجب من تسارع هذه الأحداث . وحتى الآن ، على الرغم من مرور كل هذا الوقت . فبينما كانت تتشبث بى ، بدأت ترمش عيناها بسرعة وتهز رأسها ، ثم تركتنى وذهبت إلى ركن من الغرفة ، وظلت تحملق ببصرها لفترة طويلة وعلامات الخوف ظاهرة على وجهها .

وبدأ عقلى يصرخ : لا ليس الآن ... ليس بعدما عادت إلىَّ ! ليس فى هذه الليلة : تعال فى أى ليلة أخرى غير هذه ... أرجوك ! فكانت هذه الكلمات تتردد

داخل عقلى ، لن يمكننى أن أعيدها إلىَّ من جديد ... إن هذا أمر صعب .. إن هذا أمر صعب ...

ولكن من جديد ، ذهب كل شيء سدى .

وقالت أخيراً وهى تشير بيدها : " إن هؤلاء الأشخاص ينظرون إلىَّ ، أرجوك اجعلهم يتوقفون عن ذلك " .

وتقصد بـ " هؤلاء " الأقزام !

وشعرت بألم شديد فى معدتى ، وتوقفت عن التنفس للحظة ، ثم بدأت أتنفس من جديد ، ولكن فى هذه المرة بصورة أكثر عمقاً ، وشعرت بجفاف فى حلقى ، وبضربات قلبى القوية ، وكنت أعرف تماماً أن كل شيء قد انتهى ، فقد أتت لحظة الغروب ، وكان أصعب شيء فيها هو الاضطراب الليلى المرتبط بمرض ألزهايمر الذى يصيب زوجتى ، فعندما تصاب بهذه النوبة ، كانت تفقد صوابها ، وأحياناً ما كنت أتساءل إذا كان الحب سيجمع بيننا من جديد ؟!

وقلت محاولاً أن أصد هذا الأمر المحتوم : " ليس هناك أحد يا آلى " ، ولكنها لم تصدقنى .

قالت : " إنهم ينظرون إلىَّ " .

فهمست لها وأنا أهز رأسى بالرفض : " لا " .

قالت : " ألا يمكنك رؤيتهم ؟ " .

فقلت : " لا " ، وظلت تفكر للحظة .

وقالت وهى تدفعنى بعيداً عنها : " إنهم هناك ينظرون إلىّ " .

ومنذ هذه اللحظة بدأت تتحدث مع نفسها ، وعندما حاولت ، بعد ذلك بفترة ، تهدئتها ، ابتعدت عنى وهى تفتح عينيها عن آخرهما .

وصاحت بصوت ينم عن الذعر وقد أصبح وجهها أكثر شحوباً : " من أنت ؟ وما الذى تفعله هنا ؟ " فقد كان هناك إحساس فظيع بالخوف ينمو بداخلها ، وأحست بالحزن ؛ لأنه ليس بمقدورى فعل شىء حيال ذلك ، وابتعدت أكثر عنى ، وكانت يداها تتخذان وضع الدفاع عن النفس ، وصرخت بكلماته موجعة :

" ابتعد من هنا ! ابتعد عنى " ، وكانت تدفع بيدها الأقزام بعيداً عنها وهى فى حالة من الذعر ، ولا تدرك وجودى على الإطلاق " .

فوقفت من مكانى وسرت داخل الغرفة حتى وصلت إلى سريرها ، وشعرت بالضعف والألم فى قدمى ، وبألم غريب فى جنبى ، لا أعرف مصدره ، وحاولت جاهدا الضغط على زر الجرس لاستدعاء الممرضات ؛ لأن أصابعى كانت ترتجف من البرودة ، ولكننى نجحت

فى النهاية ، وسيأتون إلى هنا على الفور ، وكنت أنتظر وصولهم ، وفى أثناء ذلك كنت أنظر إلى زوجتى .

ومرت عشر ثوان ... .

عشرون ثانية ...

ثلاثون ثانية ...

وأنا أواصل النظر إليها ، وعيناى لا يفوتهما شىء ، وأتذكر اللحظات التى عشناها معاً ، ولكن طوال هذا الوقت لم تكن تنظر إلى ، ووجدت نفسى مطارداً بمشاهد صراعها المرير مع هؤلاء الأعداء المجهولين .

وجلست بجانب السرير وأنا أشعر بألم فى ظهرى ، وبدأت فى البكاء وأنا أمسك بالمفكرة ، وأنا أعى تماماً بأن آلى لم تلاحظ شيئاً ، فعقلها قد أصبح مغيباً عن الوعى .

سقطت منى صفحتان على الأرض ، وانحنيت بظهرى لألتقطهما ، وشعرت بأنى مجهد الآن ، ولهذا جلست ، وحيداً وبعيداً عن زوجتى ، وعندما حضرت الممرضات رأين شخصين بحاجة إلى عونهن ، امرأة ترتجف من شدة الخوف من أشباح ليس لها وجود إلا فى عقلها ، والرجل العجوز الذى أحبها من أعماق قلبه أكثر مما يحب الحياة نفسها ، يبكى فى هدوء فى ركن من الغرفة وهو يخفى وجهه بكلتا يديه .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

قضيت بقية هذا المساء وحيداً فى غرفتى ، وتركت الباب مفتوحاً بعض الشىء ، وكنت أشاهد أشخاصاً يمرون من أمامها ، بعضهم غرباء ، والآخرون أصدقاء ، وإذا ما ركزت قليلاً أستطيع سماع أحاديثهم عن أسرهم ، ووظائفهم ، ونزهاتهم ، ومع أنها لم تكن سوى محادثات عادية إلا أنى وجدت نفسى أحسدهم على اليسر الذى يتمتعون به فى تواصلهم . أعرف أن الحسد رذيلة قبيحة ، ولكنى لا أستطيع أحياناً منع نفسى منه .

كان الدكتور بارنويل هنا أيضاً ، يتحدث مع واحدة من المرضات ، وتساءلت بينى وبين نفسى عن الشخص المريض لهذه الدرجة الذى تستدعى حالته مجىء الدكتور بارنويل فى هذه الساعة المتأخرة ؛ فقد كان يضنى نفسه فى العمل ، ونصحته فى يوم بأن يقضى وقتاً أطول مع عائلته ، لأنهم لن يبقوا معه إلى الأبد ، فقال لى إنه يهتم بشئون مرضاه ، ويُحتم عليه الواجب أن يأتى إلى هنا عند استدعائه ، وأنه ليس لديه خيار آخر ، ولكن ذلك يجعله مشتتًا بين أمرين متناقضين ، فهو يريد أن يكون طبيباً يكرس حياته كلياً لمرضاه ، ورجلاً يكرس حياته لأسرته ، فمن المستحيل تحقيق هذين الأمرين معاً ؛ لأن ساعات اليوم لا تكفى لكل

ذلك ، ولكنه لم يدرك ذلك حتى الآن . وتساءلت ، بينما كان صوته يختفى بعيداً ، ماذا سيكون اختياره ؟ أو لسوء حظه سيفرض عليه هذا الاختيار !

جلست بجوار النافذة على مقعد مريح لأفكر فيما حدث لى اليوم ، فقد جمع بين السعادة والحزن ، والدهشة ولوعة القلب ، وتسببت مشاعرى المتصارعة فى صمتى لساعات طويلة ، ولم أستطع القراءة لأحد فى هذا المساء ولن يمكننى ذلك ؛ لأن تأملى فى الشعر سيجعلنى أجهش بالبكاء . كان الهدوء يعم الردهة إلا من وقع خطوات حراس الليل ، وسمعت فى الساعة الحادية عشرة أصوات وقع أقدام مألوفة أعرف صاحبها جيداً ، وتوقعت لسبب ما قدومه .

وكانت للدكتور بارنويل الذى جاء ينظر خفية من وراء الباب ، وقال : " لاحظت أن غرفتك مضاءة . فهل لديك مانع أن أدخل ؟ " .

فقلت وأنا أهز رأسى : " لا ، تفضل " .

فدخل وهو ينظر فى جميع أركان الغرفة قبل أن يأخذ مقعده على بُعد أقدام قليلة منى .

وقال وهو يبتسم : " سمعت أنك حظيت بيوم جميل مع آلى " ، فقد كان لديه فضول شديد لمعرفة نوع

العلاقة التى تربط بيننا ، ولا أعرف إذا كان هذا الفضول له علاقة بمهنته أم لا ؟

وقلت : " أعتقد ذلك ! " .

فرفع رأسه عند سماعه لإجابتى ونظر إلىَّ ، وقال : " هل أنت على ما يرام يا نوا ؟ إنك تبدو محبطاً بعض الشىء " .

فقلت : " أنا بحالة جيدة ، ولكنى متعب قليلاً " .

فسألنى : " كيف كان حال آلى اليوم ؟ " .

فقلت : " على ما يرام ، وجلسنا نتحدث لأربع ساعات " .

قال : " أربع ساعات .. ؟ يا نوا .. هذا مدهش " .

ولم أستطع إلا أن أومئ برأسى .

واستمر فى حديثه وهو يهز رأسه : " لم أر شيئاً كهذا من قبل ، أو حتى سمعت عنه ، وأعتقد أن الحب يصنع المعجزات ، وكل منكما حريص على الآخر . إنها حتماً تحبك كثيراً يا نوا ، أليس كذلك ؟ " .

فلم أقل شيئاً غير : " أعرف ذلك " .

قال : " إذن ما الذى يحزنك يا نوا ؟ هل قالت آلى أو فعلت شيئاً يؤذى مشاعرك ؟ " .

فقلت : " كلا إنها كانت رائعة ، ولكننى أشعر الآن ... بالوحدة " .

فقال : " تشعر بالوحدة ؟ " .

فقلت : " نعم " .

فقال : " لا يوجد هنا من يشعر بالوحدة " .

وقلت وأنا أنظر إلى ساعتى وأفكر فى أسرته وهى تنام فى منزلها الهادئ ، الذى كان من المفترض أن يكون فيه معهم : " أنا وحيد ! وكذلك أنت " .

مرت الأيام القلائل التالية دون أى تقدم ملحوظ . ولم تستطع آلى التعرف علىَّ مطلقاً ، وأعترف أن انتباهى كان يضعف بين كل حين وآخر ؛ لأن معظم تفكيرى كان ينصب على اليوم الذى أمضيناه معاً . وعلى الرغم من أن النهاية غالباً ما تأتى سريعاً ، إلا أننى فى ذلك اليوم لم أخسر شيئاً ، بل إننى ربحت الكثير ، وشعرت بالسعادة لأنى حظيت بهذه النعمة مرة أخرى .

ومع حلول الأسبوع التالى بدأت حياتى تعود إلى مجراها الطبيعى ، أو على الأقل الطبيعى لمثل حالتى . فكنت أقرأ لآلى ، أو للآخرين ، وأتجول فى الردهات . أستلقى على ظهرى فى الليل ، وأجلس إلى جوار المدفأة

الكهربائية فى الصباح ، وشعرت بطمأنينة غريبة ؛ لأن حياتى لم تعد تحمل لى أية مفاجآت .

وفى صباح قارس البرودة وملبد بالغيوم بعد ثمانية أيام من اليوم الذى أمضيناه معاً ، استيقظت مبكراً كعادتى ، وانشغلت فى بعض الأشياء على مكتبى ، وكنت أقوم من حين لآخر بمشاهدة بعض الصور وقراءة بعض الخطابات التى مضى عليها سنوات بعيدة ، أو على الأقل حاولت ذلك . لم أستطع التركيز جيداً لأننى كنت أعانى من الصداع ، ولذلك وضعتها جانباً وذهبت لأجلس على الكرسى بجوار النافذة لأشاهد الشمس وهى تشرق ، وقلت لنفسى إن آلى ستستيقظ بعد ساعتين ، وأريد أن أكون فى كامل نشاطى ؛ لأن القراءة طوال اليوم ستزيد من ألم رأسى .

وكنت أغمض عينى لعدة دقائق بينما كانت نوبات الألم تشتد ثم تنحسر ، وبعد ذلك كنت أفتحهما لأشاهد صديقى القديم ، إنه الغدير ، وهو يتراقص بالقرب من النافذة ، فقد شغلتُ ـ على النقيض من آلى ـ غرفة تطل عليه ، وفى كل مرة أنظر إليه كان يلهمنى بشىء جديد ، فياله من تناقض غريب أن يتجدد هذا الغدير الذى يبلغ من العمر مئات الآلاف من السنين مع كل سقوط للمطر ! وناجيته فى هذا الصباح ، وهمست له

بصوت مسموع : " كم أنت وافر الحظ يا صديقى ، مثلى تماماً ، وسنقابل معاً الأيام المقبلة ! " .

وكانت الأمواج تدور معاً وتلتف حول بعضها فى انسجام ، بينما كان ضوء النهار الخافت يعكس صورة العالم الذى نتقاسمه معاً أنا والغدير ، وكانت أمواجه تمتد وتنحسر ، وقلت لنفسى وأنا أشاهد المياه إنها تشبه الحياة ؛ فالإنسان يمكنه أن يتعلم أشياء عديدة منه .

ولكنَّ هناك شيئاً حدث بمجرد جلوسى على الكرسى ، بينما كانت الشمس تسترق أولى نظراتها فوق الأفق . عندئذٍ لاحظت وخزاً خفيفاً فى يدى ، وهو أمر لم يحدث لى من قبل ، وبدأت أحركها ، ولكننى أجبرت على التوقف عندما اشتدت آلام الصداع ، وكأن أحداً يدق بمطرقة فوق رأسى ، فأغمضت عينى وأطبقت جفنى ، وتوقف ذلك الوخز فى يدى ، ولكننى بدأت أشعر بنخديرها سريعاً ، وكأن الأعصاب الموجودة فى ساعدى قد بُترت فى موضع ما فجأة ، وتصلب رسغ يدى ، بينما اندفع ألم رهيب من رأسى وبدأ يسرى إلى أسفل رقبتى حتى وصل إلى كل خلية فى جسدى ، مثل موجة مد ، تحطم وتُفنى كل شىء فى طريقها .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

وفقدت حاسة بصرى ، وسمعت صوتاً يشبه دوى قطار يتحرك على بعد سنتيمترات قليلة من رأسى ، فعلمت أنى أتعرض لسكتة دماغية ، وكان الألم يسرى فى جسدى مثل ومضات البرق ، وفى اللحظات القليلة التى كنت لا أزال فيها واعياً ، كنت أتخيل صورة آلى ، وهى ترقد فوق سريرها ، وتنتظر سماع القصة التى سأقرأها لها ، وهى فى حالة مضطربة ، ولا تملك أن تساعد نفسها ، تماماً مثلى الآن .

وبينما كنت أغمض عينىَّ للمرة الأخيرة ، قلت لنفسى ، يا إلهى ! ماذا يحدث لى ؟!

• • •

أمضيت عدة أيام وأنا فاقد الوعى ، وفى اللحظات التى أسترده فيها كنت أجد نفسى معلقاً فى الأجهزة ، وكانت هناك أنابيب متصلة من أنفى إلى أسفل حلقى ، وعبوتان تحتويان على سوائل معلقتان بجوار سريرى . وكنت أستطيع سماع الطنين الخافت لهذه الأجهزة وهى تدوى ، ثم تختفى ، وأحياناً كانت تصدر أصواتاً لم أستطع إدراكها ، وكان هناك جهاز يصدر صوته مع ضربات قلبى ، وكان وقعه مهدئاً لأعصابى ، وشعرت بأنى أرحل إلى مكان ما بعيداً عن حسابات الزمن ثم أعود إلى عالمنا .

كان الأطباء يشعرون بقلق بالغ . استطعت رؤية ذلك بادياً على وجوههم وأنا أنظر إليهم خلسة وهم يفحصون الرسوم البيانية ويعيدون ضبط الأجهزة ، وكانوا يتهامسون بتصوراتهم عن حالتى ، وفى اعتقادهم أنى لا أستطيع سماعهم ويقولون : " السكتة الدماغية يمكن أن تكون خطيرة جداً ، وخصوصاً لشخص فى مثل عمره ، وستكون عواقبها وخيمة " ، وكانت تبادر بعض الوجوه المتجهمة بتنبؤات مستقبلية مثل فقدان الكلام ، وفقدان الحركة ، والشلل ، وبعد ظهور الرسم البيانى ، وسماعهم لطنين جهاز غريب غادروا المكان ، وهم لا يدركون أنى كنت أستمع لكل كلمة . حاولت ألا أفكر فى هذه الأشياء بعد ذلك وركزت بدلاً من ذلك فى التفكير فى آلى ، وكنت أستحضر صورتها فى عقلى كلما أمكننى ذلك ، وحاولت أن أقرن روحى بروحها حتى تتحد روحانا من جديد ، وحاولت أن أشعر بلمسة يدها ، وأسمع صوتها ، وأرى وجهها ، وعندما كنت أفعل ذلك كانت الدموع تنهمر من عينى ؛ لأنى لم أكن أعرف إذا ما كنت سأستطيع ضمها إلى صدرى من جديد ، أو أن أهمس لها بكلمات رقيقة ، أو أن أقضى معها يوماً نتبادل فيه أطراف الحديث أو أقرأ لها ، أو نتنزه قليلاً ؟! فلم أكن أتصور ، أو آمل أن ينتهى بنا

الحال هكذا ، وكنت دائماً أتصور أنها سترحل قبلى ، فلم يكن ما حدث فى الحسبان !

بقيت على هذه الحالة لعدة أيام حتى جاء صباح آخر ملبد بالغيوم عندما دفعنى وعدى لآلى لأن أنهض مرة أخرى ، وعندما فتحت عينى وجدت الغرفة مزينة بباقات الورود ، التى أيقظتنى رائحتها هى الأخرى . وبحثت عن الجرس ، وحاولت جاهداً الضغط على زره ، أتت إلىَّ الممرضة بعد ثلاثين ثانية ، ومعها الدكتور بارنويل ، الذى ابتسم لى على الفور .

وقلت بصوت أجش : " أشعر بالعطش " ، فابتسم لى ابتسامة عريضة ، وقال :

" حمداً لله على سلامتك ، كنت واثقاً من أنك ستجتاز هذه الأزمة بنجاح " .

وبعد ذلك بأسبوعين غادرت المستشفى ، ولكنى أصبحت نصف إنسان الآن ، وإذا كنت سيارة كادلاك ، لكانت حركتى دائرية ؛ لأن عجلة واحدة فقط هى التى تتحرك ، فقد أصبح النصف الأيمن من جسمى أضعف من الأيسر ، وقد أخبرونى أن ذلك خبر سار لأن الشلل قد يكون كلياً ، وأحياناً ، يجعلنى ذلك أشعر أنى محاط بمجموعة من المتفائلين .

أما الخبر السيئ فهو أن حالة يدى تمنعنى من استخدام عصا للمشى أو كرسى متحرك ، وينبغى علىّ الآن أن أسير وفقاً لإيقاع خاص حتى أحافظ على اتزان جسدى ، ولا أستطيع أن أحرك قدمى سريعاً كما اعتدت فى شبابى ، أو أن أمشى على مهل ، ولكن أخطو خطوة بطيئة بقدمى اليسرى ، ثم أجرجر قدمى اليمنى ، وهكذا ؛ فقد أصبحت نزهتى بين ردهات الدار تشبه الانتصارات الملحمية ، فقد أصبحت أشعر ببطء حركتى أكثر الآن ، فقد كنت منذ أسبوعين ماضيين لا أستطيع حتى أن أسبق سلحفاة .

كان الوقت متأخراً عندما عدت إلى غرفتى وشعرت بأنى لن أتمكن من النوم ، فتنفست بعمق ورحت أتشمم عبير الربيع الذى ينتشر فى غرفتى ، وكانت النافذة مفتوحة قليلاً ، وهناك لسعة برد فى الهواء ، وأحسست بأن نشاطى قد تجدد بفضل هذا التغيير فى درجة الحرارة ، وقد ساعدتنى إيفلين ـ وهى واحدة من العديد من الممرضات هنا ، عمرها ثلث عمرى ـ للجلوس على الكرسى الموجود بجوار النافذة ، وحاولتُ غلق النافذة ، ولكنى منعتها ، ومع أنها رفعت لى حاجبها مندهشة ، إلا أنها امتثلت لقرارى فى النهاية ، وسمعت صوت فتح لأحد الأدراج ، وفى لحظة وجدت

معطفاً يوضع على كتفاى وكانت تلبسنى إياه وكأنى طفل صغير ، وعندما انتهت ، ربتت بلطف كتفى ، ولم تقل شيئاً وهى تفعل ذلك ، أدركت من صمتها هذا أنها كانت تنظر من النافذة ، وظلت واقفة لا تتحرك لفترة طويلة ، وتساءلت فيم كانت تفكر ؟! ولكنى لم أسألها ، وبعد ذلك بفترة سمعتها تتنهد ، والتفتت لتغادر الغرفة ، وفى أثناء ذلك ، توقفت عندى ومالت إلى بجسمها لتربت كتفى ثانية بلطف ، مثلما تفعل معى حفيدتى ، واندهشت من تصرفها هذا ، وقالت بصوت منخفض : " نحن سعداء بعودتك ، إن آلى تفتقدك ، كما يفتقدك الجميع هنا . وكنا جميعاً ندعو لك بالشفاء لأنك تركت فراغاً كبيراً فى هذا المكان " ، وابتسمت لى قبل أن تتركنى ولم أقل لها شيئاً ، وبعد ذلك سمعتها وهى تسير وتدفع عربة أمامها ، وتتحدث إلى ممرضة أخرى بصوت خافت .

كانت النجوم تتلألأ فى تلك الليلة ، والسماء تضىء بلون أزرق غريب ، وصرار الليل يعزف لحنه الرتيب ، الذى يحجب معه كل شىء ، وتساءلت وأنا جالس هنا إذا ما كان أحد يرانى ، أنا سجين الجسد . وأخذت أبحث ببصرى وسط الأشجار ، وفى فناء الدار ، وفى المقاعد الموجودة بالقرب من بحيرة الإوز ،

أبحث عن علامات للحياة ، ولكنى لم أجد شيئاً . وحتى الغدير كان هادئاً ، والظلام يجعله يبدو مثل فراغ فسيح ، ووجدت نفسى منجذباً إليه بقوة خفية . جلست أشاهده لساعات طويلة ، وفى أثناء ذلك رأيت انعكاس صور السحاب وكأنه يتحرك فوق صفحة المياه . فهناك عاصفة قادمة ، وسيتحول لون السماء بعد قليل إلى اللون الفضى ، مثل ضوء الغسق .

اخترق البرق صفحة السماء الموحشة ، وشعرت بأنى أعود بذاكرتى إلى الوراء . من نحن أنا وآلى ؟ هل نحن شجرة لبلاب قديمة عالقة فوق شجرة سرو ، وأغصانها وفروعها متشابكة تماماً لدرجة أننا سنموت إذا ما حاول أحد فصلنا عن بعض ؟ لا أعرف ! وجاءت صاعقة أخرى وأضاءت الطاولة التى بجانبى حتى تمكنت من رؤية أفضل صورة أمتلكها لآلى ، وكنت قد وضعتها فى إطار منذ عدة سنوات ماضية على أمل أن يحافظ عليها الزجاج إلى الأبد ، ومددت يدى نحوها لأحملها بالقرب من وجهى ، وكنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من النظر إليها لفترة طويلة ، فقد كانت فى الواحد والأربعين من عمرها عندما التقطت لها هذه الصورة ، وقد كانت من أجمل صورها ، وكانت هناك العديد من الأسئلة التى

www.rewity.com ARAYAHEEN

أود أن أطرحها عليها ، ولكنى أعلم أن الصورة لن تجيبنى ، ولهذا أعدتها إلى موضعها .

وكنت أشعر فى هذه الليلة ـ وآلى فى غرفتها فى الطابق السفلى ـ بالوحدة ، وسأظل دائماً وحيداً . كنت أفكر فى ذلك وأنا أرقد فى سريرى فى المستشفى . وكنت واثقاً من ذلك وأنا أنظر من خلال النافذة ، بينما السحب التى تنذر بالعاصفة تظهر واضحة فى السماء ، فقد كنت أشعر رغماً عن نفسى بالحزن بسبب مأساتنا ؛ ولأنى أدركت أننى لم أتمكن من تقبيلها فى آخر يوم تقابلنا ، وربما لن يمكننى ذلك مطلقاً ، فمن الصعب التكهن بذلك مع هذا المرض ، فلماذا كنت أفكر فى هذه الأشياء ؟

وأخيراً وقفت من مكانى وسرت إلى مكتبى وفتحت ضوء المصباح ، وتطلب ذلك منى مجهوداً لم أكن أتوقعه ، وأحسست ببعض التوتر ، ولذلك لم أعد إلى الكرسى بجوار النافذة ، وجلست على مكتبى ، وقضيت بعض الوقت فى النظر إلى بعض الصور الموجودة عليه . وكانت صوراً عائلية لأطفالى ، ورحلاتنا معاً ، وصوراً لى ولآلى ، ورجعت بذاكرتى إلى الأوقات السعيدة التى أمضيناها معاً ، سواء بمفردنا ، أو مع العائلة ، ومرة أخرى أدركت كم أنا كبير فى السن .

وفتحت أحد الأدراج ، فعثرت على زهور كنت قد أهديتها لآلى منذ زمن بعيد ؛ وكانت قديمة وباهتة الألوان وكانت معقودة بشريط من الستان ، فتلك الأزهار جافة وهشة ، مثلى تماماً ، ومن الصعب حملها دون أن تتهشم ، ولكنها استطاعت أن تحتفظ بها ، وكنت أقول لها : " لا أفهم السبب الذى يجعلك تحتفظين بها ! " ، ولكنها لم تكن تبالى كثيراً بقولى ، وأحياناً كنت أراها فى المساء تحملها ، وكأنها شىء مقدس ، أو كأنها تهب لها سر الحياة نفسها ؛ فهذه طبيعة النساء .

وبما أن هذه الليلة تبدو لى مخصصة للذكريات ، فقد بحثت عن خاتم الزواج حتى وجدته فى الدرج العلوى . فقد كان ملفوفاً داخل قطعة من القماش ، ولم أستطع ارتداءه الآن لأن مفاصلى كانت متورمة ، ولم يكن الدم يسرى بصورة طبيعية فى عروق يدى . فتحت قطعة القماش ووجدته على حالته لم يتغير ؛ فقد كان متيناً ، فهو يعد رمزاً ، وحياة ، وعلمت أننى لن أرتدى خاتماً آخر فى يوم من الأيام ، وفى هذه اللحظة قلت بصوت مسموع : " أنا مازلت ملكك يا آلى ، يا مليكتى ، ويا صاحبة الجمال الخالد ، فقد كنت ، ولا تزالين ، أحب شىء إلى قلبى فى هذه الحياة " .

وتساءلت إذا ما كانت تسمعنى عندما قلت ذلك ، وانتظرت حتى أجد دليلاً على ذلك ، ولكن لم يحدث شيء .

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً ، وأنا أبحث عن خطابها الذى أقرؤه عندما تتدهور حالتى المزاجية ، ووجدته فى المكان الذى تركته فيه آخر مرة . أخذت أقلبه فى يدى عدة مرات قبل أن أفتحه ، وعند ذلك شعرت بيدى ترتجف ، ولكنى تمكنت من قراءته أخيراً :

عزيزى نوا

أكتب إليك هذا الخطاب وأنا جالسة تحت أضواء الشموع بينما تنام فى الغرفة التى جمعتنا منذ أول يوم فى زواجنا ، وعلى الرغم من أننى لم أستطع سماع أصوات نومك الهادئ ، فأنا أعرف أنك هناك ، وسألحق بك سريعاً إلى هناك كما أفعل دائماً ، وسأشعر بدفئك وحنانك ، وستقودنى أنفاسك الهادئة إلى المكان الذى سأحلم فيه بك وبصفاتك الرائعة .

عندما رأيت أضواء الشموع بالقرب منى تذكرت ضوءاً آخر قادنى إلى الصواب منذ عشرات السنوات ، حينما كنت أرتدى ملابسك الناعمة الدافئة ، وأدركت منذ ذلك الوقت أننا سنظل معاً إلى الأبد، على الرغم

من أننى ترددت طويلاً فى اليوم التالى ؛ فقد استولى على قلبى شاعر من الجنوب ، وكنت متيقنة من داخلى أن قلبى لك وحدك ، فمن أكون أنا حتى أحاكم حباً يتخذ من الشهب ركاباً ؟ ودوى صوته يشبه أصوات الأمواج العاتية ؛ لأن ذلك هو الذى جمع بيننا وقتها ، ولا يزال يجمعنا حتى الآن !

وأتذكر كيف رجعت إليك فى اليوم التالى ، ذلك اليوم الذى جاءت والدتى لزيارتنا ، وكنت أشعر بالخوف الشديد الذى لم أعرفه من قبل لأنى كنت أعلم أنك لن تسامحنى إذا ما رحلت عنك ، وكان جسدى يرتعد وأنا أخرج من سيارتى ، ولكنك استطعت أن تصرف ذلك الإحساس عنى بابتسامتك ، وكان كل قولك وقتها هو : " ما رأيك فى فنجان من القهوة ؟ " ، ولم يحدث فى يوم طوال هذه السنوات من عمرنا أنك حاولت أن تفتح معى هذا الموضوع من جديد .

ولم تسألنى أيضاً عن سبب مغادرتى فى الأيام التالية ، وعندما ذهبنا بعد ذلك لتوثيق زواجنا وشراء خاتم الزواج ، نظرت إليك فى عينيك ، وتأكدت من أنى اتخذت القرار الصائب ، ولكن فوق ذلك ، أدركت أنى كنت حمقاء عندما فكرت فى شخص آخر غيرك ، ولم أتردد فى قرارى بعد ذلك اليوم .

لقد عشنا معاً حياة رائعة ، وأنا أفكر كثيراً فيها الآن ، وأغمض عينى أحياناً لأراك وقد انتشر بعض

الشعر الأبيض فى رأسك ، تجلس فى الشرفة وتعزف بجيتارك ، بينما يجلس حولك الصغار وهم يصفقون ويلعبون على أنغام الموسيقى التى تعزفها ، وكانت ملابسك قد اتسخت من الساعات الطويلة التى قضيتها فى العمل وكنت تشعر بالتعب ، ومع أنى وفرت لك بعض الوقت ليستريح بدنك ، إلا أنك ابتسمت لى وقلت : " أنا أقوم بذلك الآن " ، لقد اكتشفت أن حبك لأطفالك رائع ويفوق كل الحدود ، وكنت قد قلت لك بعدما نام الصغار : " أنت أفضل مما تعتقد فى نفسك كأب " ، وبعد ذلك كان كل منا يقبل الآخر قبل أن ننام .

أنا أعشق فيك أشياء عديدة ، وخصوصا رومانسيتك ؛ لأن هذه الأشياء تمثل لى أجمل ما فى الوجود ! مثل : الحب ، والشعر ، ومشاعر الأبوة ، والصداقة ، وحب الجمال ، والطبيعة ، وأنا سعيدة لأنك استطعت تعليم الأطفال هذه الأشياء ؛ ولأنى واثقة من أنهم سيسعدون فى حياتهم بفضلها . وقد أخبرونى بمقدار حبهم لك ، وفى كل مرة كنت أسمع فيها هذا الكلام ، أشعر بأنى أسعد امرأة على ظهر الأرض .

ولقد علمتنى أنا الأخرى ، وألهمتنى بأشياء كثيرة ، وساعدتنى فى لوحاتى ، ولن يمكنك أن تدرك معنى ذلك عندى ! فأعمالى أصبحت تعرض فى المتاحف والمعارض الخاصة ، وعلى الرغم من أننى

كنت أتعرض لأوقات أشعر فيها بالقلق والتوتر بسبب المعارض وندوات النقاد ، إلا أنك كنت دائما تساندنى بكلماتك ، وتشد أزرى ، واستطعت أن تتفهم حاجتى لوجود مرسم لى وحدى ، واستطعت أن ترى ما هو أبعد من الألوان التى تبقع ملابسى وشعرى ، وفى بعض الأحيان ، قطع الأثاث . أعرف أن ذلك ليس سهلا ؛ فالأمر يتطلب يا نوا أن يعايش المرء كل ذلك . وأنت استطعت ذلك طوال خمس وأربعين سنة ، هى سنوات زواجنا السعيد .

وكما أنك أقرب إنسان إلى قلبى فأنت أعز صديق لى ، ولا أدرى أى جانب منهما يجعلنى أشعر بالسعادة أكثر ، فكل جانب منهما عزيز على نفسى ، تماما مثلما أقدر سنوات حياتنا معا ، فهناك شىء جميل قوى ينبع من داخلك يا نوا ، وهى طيبة قلبك ، التى أراها عندما أنظر إليك الآن ، ويراها كل من ينظر إليك ، أجل طيبة القلب . فأنت تفوق فى تسامحك ومسالمتك جميع من عرفتهم ، فالله معك يا نوا ؛ لأنك أقرب لأن تكون ملاكا من بين كل من صادفتهم فى حياتى .

أعرف أنك تصورت أنى قد جننت عندما طلبت منك كتابة قصتنا قبل مغادرتنا للمنزل ، ولكن كانت لدى أسبابى الخاصة وأشكرك على صبرك معى ، وعلى الرغم من أنك قد سألتنى عنها إلا أننى لم أجبك بشىء ، ولكنى أعتقد أن الوقت قد حان لكى تعرف .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

لقد عشنا حياة سعيدة لم يعرفها معظم الأزواج ، ومع ذلك عندما أنظر إليك أشعر بالخوف الشديد لأنى أعرف أن كل شيء سينتهى سريعاً ؛ لأن كلاً منا يعرف جيداً معنى تشخيص مرضى وتأثيره على حياتنا ، لقد رأيت الدموع فى عينيك وشعرت بالقلق عليك أكثر مما شعرت به لنفسى ؛ لأنى أخشى عليك من الألم الذى ستكابده ، ولن أستطيع أن أجد الكلمات التى تعبر عن أسفى على ذلك .

ولأنى أحبك حباً جماً ، حباً يفوق كل الحدود ، فسوف أجد طريقة لكى أعود إليك على الرغم من مرضى . أعدك بذلك . وهنا يتضح لك سبب مطلبى . فعندما تجدنى شاردة ووحيدة ، اقرأ هذه القصة ـ تماماً كما حكيتها لأطفالنا ـ وثق تماماً بأنى سأدرك بصورة ما أن هذه القصة لنا ، وربما ، وهو مجرد احتمال ، أن أجد طريقة لنلتقى بها من جديد .

وأرجو منك ألا تغضب فى الأيام التى ستجدنى فيها لا أعرفك ، فأنا وأنت نعرف جيداً أنها ستأتى لا محالة ، وأعلم جيداً أنى أحبك ، وسأظل أحبك ، مهما حدث ، وأن حياتى معك كانت أعظم حياة عشتها .

وإذا ما احتفظت بهذا الخطاب لتقرأه من جديد ، فعليك أن تؤمن بكل ما كتبته لك الآن ، واعلم أنى أحبك فى أى مكان وزمان كنت ؛ فأنا أحبك وأنا أكتب لك هذا الخطاب ، وسأظل أحبك وأنت تقرؤه ، وأنا

آسفة لك إذا لم أستطع أن أقول لك ذلك فى يوم من الأيام . أنا أحبك من أعماق قلبى يا زوجى ، فأنت كنت ولا تزال حلمى الوحيد .

آلى

وعندما انتهيت من قراءة الخطاب ، وضعته جانباً . وقمت من مكتبى لأبحث عن حذائى ، فقد كان قريباً من السرير ، وعلى أن أجلس حتى أستطيع ارتداءه ثم أقف من جديد ، ومشيت فى طريقى لكى أفتح الباب ، ونظرت خلسة إلى الردهة فرأيت جانيس جالسة على المكتب الرئيسى . على الأقل أظن أنها جانيس ، وينبغى علىَّ المرور من أمام هذا المكتب حتى أصل إلى غرفة آلى ، ولكن ليس من المفترض أن أغادر غرفتى فى هذه الساعة المتأخرة ، وجانيس ليست من النوع الذى يرضى بمخالفة القوانين لأن زوجها محام .

وانتظرت حتى أرى ما إذا كانت سترحل ، ولكن يبدو أنها لن تتحرك من مكانها ، وقد نفد صبرى . وأخيراً قررت مغادرة غرفتى مهما كانت العواقب . فكنت أخطو بقدمى اليسرى ببطء وأجرجر قدمى اليمنى ، وهكذا ؛ فقد استغرق الأمر منى دهراً من الزمن حتى اقتربت المسافة ، ولكنها لسبب ما لم تستطع

ملاحظة اقترابى منها ؛ فقد كنت رابضاً مثل نمر يزحف عبر الأدغال ، وكنت مختفياً عن الأنظار مثل فرخ اليمام .

ثم اكتشفت أمرى فى النهاية ، ولكنى لم أتعجب لذلك ، ووقفت أمامها .

فقالت : " ماذا تفعل يا نوا ؟ " .

قلت : " أتمشى قليلاً لأنى لم أستطع النوم " .

قالت : " ولكنك تعلم أن هذا الأمر غير مسموح به " .

قلت : " أعرف ذلك " .

قالت : " أنت لم تخرج لكى تتمشى يا نوا ، أليس كذلك ؟ أنت ذاهب لرؤية آلى " .

قلت : " هذا صحيح " .

قالت : " أنت تذكر جيداً ماذا حدث لها يا نوا فى آخر مرة كنت عندها مساءً " .

قلت : " نعم أذكره " .

قالت : " إذن أنت تعلم جيداً أنه لا ينبغى عليك فعل ذلك " ، فلم أجبها على الفور ، وقلت بدلاً من ذلك : " إنى أفتقدها كثيراً " .

قالت : " أنا أعلم ذلك ، ولكننى لا أستطيع السماح لك برؤيتها " .

قلت : " إن اليوم ذكرى زواجنا " ، وكان ذلك صحيحاً ، فقد كان ذلك اليوم الذكرى التاسعة والأربعين لزواجنا ، ويبقى عام واحد على الذكرى الذهبية لزواجنا .

قالت : " حسناً " .

قلت : " إذن يمكننى الذهاب ؟ " .

نظرت بعيداً للحظة ، وقد تغير صوتها وأصبح أكثر نعومة ، واندهشت لذلك كثيراً لأنى لم أكتشف من قبل أنها عاطفية بطبيعتها .

وقالت : " لقد عملت هنا يا نوا لأكثر من خمسة أعوام ، وعملت كذلك فى دار أخرى قبل أن آتى إلى هنا ، ولكنى لم أر زوجين مثلكما يتصارعان بقوة ضد الحزن والأسى ، بل لم أر فى حياتى شخصاً يتعامل مع المرض بهذه الطريقة ، ولم ير أحد ممن يعملون هنا ، سواء من الأطباء ، أو الممرضات شيئاً مثل ذلك من قبل " .

وسكتت عن الكلام للحظة ، وبدأت الدموع تنهمر من عينيها بصورة أدهشتنى ، فمسحتها بيدها وأكملت حديثها :

" حاولت أن أتخيل مشاعرك وأنت تمضى فى حياتك يوماً بعد يوم ، ولكنى لم أستطع ، ولا أعرف

كيف استطعت فى بعض الأوقات أن تنتصر على هذا المرض وكذلك الأطباء لم يستطيعوا تفسير ما حدث . ولكن المرضات يعرفن . إنه ببساطة شديدة ، الحب . إنه أروع شيء فى هذا الوجود " .

وشعرت بغصة فى حلقى ولم أستطع الكلام .

قالت : " ولكن يا نوا ، لا ينبغى عليك فعل ذلك ، ولا يمكننى السماح لك ؛ ولذلك عد إلى غرفتك " . ثم ابتسمت ابتسامة رقيقة ورتبت بعض الأوراق على مكتبها وقالت : " سأذهب إلى الطابق السفلى لأشرب فنجاناً من القهوة ، وسأغيب من هنا قليلاً ، ولذلك لا ترتكب أى تصرف طائش " .

وقامت على الفور من مكانها ، وأمسكت بذراعى ، ثم اتجهت إلى السلم ، ولم تلتفت إلى الوراء ، وفجأة وجدت نفسى وحيداً ، ولم أعرف فى أى شيء أفكر ، ونظرت إلى المكان الذى كانت تجلس فيه فلاحظت وجود فنجان قهوة لا يزال ساخناً ، وأدركت عندئذ أن هناك أناساً طيبين فى هذه الدنيا .

وشعرت بالدفء يسرى فى أوصالى لأول مرة منذ سنوات ، وأنا أخطو خطواتى الأولى فى رحلتى إلى غرفة آلى ، وكانت خطواتى متناهية الصغر ، وحتى مع ذلك كانت حركتى تنطوى على خطورة بالغة ؛ لأن قدمىّ

متعبتان بالفعل ، ورأيت أن أستند إلى الحائط حتى أمنع نفسى من السقوط ، وكانت المصابيح تصدر أزيزاً من فوق رأسى ، وشعرت بألم فى عينىّ بسبب إضاءتها المبهرة ، ولهذا كنت أنظر بعينين شبه مغمضتين . وكنت أمر من أمام عشرات الغرف المظلمة التى كنت أقرأ فيها من قبل ، وشعرت بأنى اشتقت إلى رؤية أصحابها ؛ فهم أصدقائى الذين ألفت صورة وجوههم ، وسوف أراهم غداً ، ولكن الليلة ليس لدى متسع من الوقت لأتوقف قليلاً فى رحلتى ، ولهذا واصلت مسيرتى بإصرار ، وحفزت الحركة الدماء لكى تسرى فى شرايينى التى تركتها من قبل ، وشعرت بأن قوتى تزداد مع كل خطوة أخطوها ، وسمعت صوت أحد الأبواب يفتح من ورائى ، ولكنى لم أستمع لوقع أقدام ، واستمررت فى مسيرتى ، وعندما سمعت رنين الهاتف داخل غرفة المرضات ، أسرعت الخطى حتى لا يضبطنى أحد ؛ فأنا أشبه لص منتصف الليل وهو يتخفى وراء قناعه ويفر بحصانه من مدن الصحراء النائمة ، ويرمى أشعة القمر الصفراء بتراب الذهب الذى يحمله فى جعبته . أشعر أنى عدت شاباً من جديد عندما تتأجج المشاعر فى صدرى ، وسأحطم باب حجرتها وأحملها فوق ذراعى إلى الجنة .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

هل أخدع نفسى بهذا الحديث ؟

فأنا أحيا حياة بسيطة . يا لحماقتى ! فما أنا إلا رجل مسن أعيش حالة من الحب ، ولا أحلم بشىء أكثر من أن أقرأ لآلى ، أو أن أضمها إلى صدرى إذا أمكننى ذلك ، وأنا شخص اقترفت الكثير من الذنوب ، ولكننى بلغت من العمر أرذله ، ولا يمكننى التغيير من نفسى .

وعندما وصلت أخيراً إلى الغرفة كان جسدى قد أنهكه التعب ، وكانت قدماى ترتجفان ، وشعرت بعدم قدرتى على الرؤية بوضوح ، وقلبى ينبض سريعاً داخل صدرى من الفرح . حاولت جاهداً فتح مقبض الباب ، وفى النهاية استلزم الأمر منى الاستعانة بكلتا يدى وحشد ثلاث شحنات من مجهودى . وعندما فتح الباب تسرب ضوء الردهة إلى الداخل حتى أضاء السرير الذى تنام عليه ، وعندما رأيتها تخيلت نفسى مجرد عابر سبيل فى مدينة مزدحمة الشوارع لا يعرفنى فيها أحد .

كانت غرفتها هادئة ، وهى تنام وجسدها مغطى حتى منتصفه ، وبعد لحظة رأيتها تتحرك إلى الجانب الآخر ، وأصوات أنفاسها ذكرتنى بأوقات سعيدة مضت . كانت تبدو صغيرة الحجم فى سريرها ، وعندما كنت أشاهدها أدركت أن كل شىء قد انتهى بيننا .

وكان الهواء بارداً فى الغرفة ، وبدأ جسمى يرتجف ؛ فقد أصبح هذا المكان بمثابة مقبرة لنا .

كنت واقفاً دون حراك ، لدقيقة تقريباً ، وكنت أتوق لأن أخبرها بمشاعرى فى عيد زواجنا ، ولكنى التزمت الصمت حتى لا أوقظها من نومها ، بالإضافة إلى أننى كتبت كل ما كنت أريد قوله على قصاصة من الورق سأضعها تحت وسادتها تقول :

يتحول الحب فى هذه الساعات الأخيرة والرقيقة
إلى شىء حساس ونقى ،
ويأتى ضوء الصباح بأشعته الناعمة والقوية ؛
ليوقظ الحب الصادق .

اعتقدت أنى سمعت وقع أقدام شخص ، فدخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب من ورائى ، فأظلمت الغرفة من حولى وكنت أسير على أرضيتها من منطلق ما أذكره منها حتى وصلت إلى النافذة ، وأزحت ستائرها ، وكان القمر حارس السماء فى الليل يطل عليها باكتماله وروعته ، والتفتُّ إلى آلى ورحت أحلم بآلاف الأحلام ، وعلى الرغم من أنى أعرف أنه غير مسموح بالجلوس على سريرها ، ولكنى جلست عليه ، وأنا أضع قصاصة

الورق أسفل وسادتها ، ومددت يدى إليها لألمس وجهها الذى كان ناعماً كالحرير ، ومسحت بيدى شعرها ، وشعرت بأنى لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى ، وشعرت بإحساس يجمع بين الرهبة والألم ، فتحركت وفتحت عينيها بعض الشىء ، وشعرت فجأة بالندم بسبب تصرفى الأحمق ؛ لأنى كنت أعلم أنها ستبدأ فى البكاء والصراخ ، لأن ذلك هو الشىء الذى اعتادت أن تفعله . فقد كنت أعلم أنى شخص ضعيف ومتهور ، ولكنى شعرت برغبة فى أن أحاول الخوض فى شىء مستحيل ، وملت برأسى نحوها حتى أقترب بوجهى من وجهها .

وعندما تلاقت شفاهنا شعرت بوخز غريب لم يحدث لى من قبل ، ولكنى لم أتراجع ، ومررت يدى برفق فوق وجنتيها ، ثم حملت يدها فى يدى ، ورحت أقبل شفتيها ، ووجنتيها ، وأستمع إلى أصوات أنفاسها . فتمتمت قائلة : " عزيزى بوا ... كم أفتقدك كثيراً ! " . لقد حدثت معجزة أخرى ، ولكنها كانت أعظمها على الإطلاق ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء عندما شعرت وكأننا نصعد إلى السماء ، وشعرت بأن الدنيا تزخر بأعجب الأشياء ، وأنا أشعر بأصابعها تمتد نحوى لتلمس وجهى فى حنان .

www.rewity.com ^RAYAHEEN^